موريس لوبلان

ترجمة: باسنت عصام

أرسين لوبين في وكالة بارنيت

الرواق للنشر والتوزيع





كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

-

أرسين لوبين في وكالة بارنيت

موريس لوبلان

ترجمة: باسنت عصــام

إهداء المترجمة..

إلى مرآتي وعيني التي أبصر بها،

إلى أمي..

دُمتِ لي.

☆ ☆ ☆

شكر خاص إلى..

- أمي/ حنان محمد، التي عكفت على هذا العمل معي وسهرت معي ليالي طويلة؛ لإنجازه على هذا النحو، والتي لولاها ما خرجت ترجمتي الأدبية الأولى للنور.

- أبي/ عصام سيد، على دعمه ومساندته لي، وعلى ملاحظاته السديدة.

- أخي/ أحمد عصام، الذي لم يدخر جهدًا لمساعدتي؛ رغم كل المعوقات.

- صديقتي الغالية وفراشتي/ خميلة الجندي، التي دعمتني ومهدت لي الطريق؛ لأخطو خطواتي الأولى في الترجمة الأدبية، والتي لولاها ما عرفت الطريق.

☆ ☆ ☆

مقدمة الكاتب

حتى يُنسَب الفضل لأهله..

نسرد لكم في هذه المجموعة القصصية ملابسات بعض القضايا الغامضة التي هزت الرأي العام، قبل الحرب ببضع سنوات، والتي لم يصلنا عنها سوى أطراف معلومات متناقضة ومقتطعة من سياقها.

لكننا لاحظنا أن هذه القضايا اتصلت جميعها باسم (جيم بارنيت)..

تُرَى مَن هذه الشخصية المثيرة التي تُسمَّى (جيم بارنيت)؟ وما علاقتها بهذه الملفات؟ وما الذي كان يدور في (وكالة بارنيت وشركاه للاستعلامات المجانية)؟ وهل كانت الوكالة تعمل بالمجان من ناحية وتستولي على ممتلكات عملائها من ناحية أخرى؟

اليوم، سنحت لنا الفرصة للكشف عن هذا اللغز بتفاصيله كافة، وحان الوقت لأن ننسب الفضل لأهله، وأن نكشف عن الرأس المدبر الذي وقف وراء كل الجنح التي ارتُكِبت باسم چيم بارنيت.. حان الوقت للكشف عن الفاعل الحقيقي الذي تورط في كل هذه القضايا.. حان الوقت للكشف عن الصامد العنيد، أرسين لوبين..

☆ ☆ ☆

القطرات المتساقطة

دق جرس البهو بالقصر الكبير الذي تقطنه البارونة أسيرمان بضاحية سان جيرمان. أقبلت عليها الخادمة وفي يدها مظروف مغلق، وقالت لها:

- وصل الرجل الذي استدعيتِه ومنحتِ له موعدًا في الرابعة سيدتي.

فضت السيدة أسيرمان هذا المظروف وقرأت هذه العبارة المكتوبة على البطاقة الموجودة بالداخل: (وكالة بارنيت وشركاه، للاستعلامات المجانية)، وقالت للخادمة:

- أوصلي هذا الرجل إلى جناحي الخاص.

كانت ڤاليري، أو ڤاليري الجميلة، كما كانت تُلقَّب منذ أكثر من ثلاثين عامًا، امرأة ضخمة ومتفجرة الأنوثة، ترتدي أرقى الثياب وتتزين بأفضل مساحيق التجميل، وتحافظ على أناقتها ورونقها. كانت ملامح وجهها تنم عن شيء من الكبرياء الممزوج بالقسوة، وتشي أحيانًا أخرى بشيء من السذاجة الممزوجة ببراءة ساحرة. كانت ڤاليري زوجة السيد أسيرمان، المصرفي الكبير، تنعم بحياة مترفة، وبعلاقات متنوعة، وبقصرها الفخم، وبكل ما كانت تملكه بشكل عام. وكانت الأوساط المحيطة بها تلومها أحيانًا على علاقاتها ومغامراتها المخزية التي كادت تدفع زوجها إلى أن يطلقها ذات مرة.

مرت ڤاليري أولًا بغرفة البارون أسيرمان، وهو رجل عجوز ومريض، أرغمته الأزمات القلبية المتتالية على ملازمة الفراش منذ بضعة أسابيع. اطمأنت عليه وعلى حاله، ورتبت الوسائد خلف ظهره. فتمتم هو قائلًا:

- ألم يدق أحدهم الجرس؟

ردت عليه:

- بلى، إنه المخبر الخاص الذي رُشِّح لنا ليتولى حل قضيتنا، يبدو أنه رجل ماهر للغاية.

قال لها زوجها: لقد جاء في وقته، فهذه القضية تثير أعصابي ولم أعد أفهم منها شيئًا.

خرجت ڤاليري من غرفته وقد ازداد قلقها من هذه القضية هي الأخرى، ثم دلفت إلى مخدعها. وجدت فيه رجلًا غريبًا بعض الشيء، طويل القامة، عريض المنكبين، يرتدي سترة سوداء، أو بالأحرى زيتية، وقماشها يلمع كحرير مظلات المطر. كان وجهه حيويًّا وملامحه بارزة. شاب بشرته غليظة وخشنة بعض الشيء، يميل لونها إلى اللون الأحمر الداكن، مثل لون قوالب الطوب الأحمر. نظرتُه فاترة وعيناه ساخرتان، وكان يخبئهما وراء نظارة مونوكل مفردة، ينقلها بين عينه اليمنى واليسرى بلا مبالاة. كانت عيناه تنضحان بعفوية الشباب.

سألته ڤاليري:

- أنت السيد بارنيت؟

انحنى ليسلم عليها، فأخذ يدها وطبع قبلة سريعة عليها، قبل أن تتمكن حتى من سحب يديها. ثم حرك يديه بإيماءة دائرية وأصدر صوتًا مفاجئًا من حلقه؛ كما لو كان يُعبِّر عن مدى إعجابه برائحة يديها المعطرتين، ثم قال لها:

- چيم بارنيت في خدمتك يا سيدتي البارونة. لقد تلقيت رسالتك، فمشطت شعري وجئت إليكِ في التو واللحظة.

أرادت أن تطرد هذا الدخيل خارجًا من فرط غرابته، لكنه باغتها بسرعة بديهته وبمجاملته لها، تمامًا كما يفعل أكابر القوم ورجال النخبة، فوجدت نفسها تقول له:

- نما إلى علمي أنك بارع في حل القضايا المعقدة.

فتبسم لها بشيء من الزهو، وقال:

- إنما هي مَلَكة لديَّ.. مَلَكة البصيرة والفهم الثاقب للأمور.

كان صوته حنونًا ولهجته حاسمة، لكنه يغلف كلامه بنبرة سخرية أو استهزاء خفي. ويبدو شديد الثقة بنفسه لدرجة تجعل من الصعب على أي أحد ألا ينبهر به.. وشعرت ڤاليري لأول وهلة أنها ترضخ لسطوة هذا الرجل الغريب، هذا المخبر الجريء الفظ، ومدير وكالة بارنيت الخاصة.

في محاولة منها لاستعادة زمام الأمور، لمَّحت له قائلة:

- أتمنى أولًا أن نتفق فيما بيننا على.. التفاصيل الماد...

- لا جدوى من كل ذلك سيدتي.

قالت متبسمة:

- وهل تعمل فقط لنيل المجد والشهرة؟

- وكالة بارنيت تعمل بالمجان يا سيدتي.

بدا عليها استياؤها. ثم أردفت:

- كنت أتمنى أن نتفق على أجر بسيط على الأقل.

قال لها ساخرًا:

- بقشيش؟ أهذا ما قصدتِه؟

أصرت عليه قائلة:

- لكنني لا أريد أن أكون...

- أن تكوني مدينة لي بشيء؟ لا تقلقي سيدتي، لا يمكن أن تُدان امرأة على هذا القدر من الجمال لرجل أبدًا.

وللتخفيف من جرأة مزاحه، استطرد على الفور قائلًا:

- على العموم، لا أريدكِ أن تقلقي يا سيدتي البارونة، أيًّا ما كانت طبيعة الخدمة التي سأسديها إليك، سوف أتدبر أمري؛ بحيث لا يتضرر أيٌّ منا، ولا يُدان أيٌّ منا للآخر بأي شكل.

تُرَى، ماذا كان يقصد بهذه العبارات الغامضة؟ هل ينوي أن يدفع لنفسه ثمن خدماته؟ وكيف سيفعل ذلك؟

أحست ڤاليري برجفة تسري في جسدها واحمر وجهها قلقًا. كان السيد بارنيت يثير في نفسها قلقًا وارتباكًا، وتوجست منه خيفةً تمامًا كما لو كانت أمام محتال متمرس. ظنت أيضًا أنه قد يكون أحد معجبيها الذي عمد لهذه الحيلة؛ ليتمكن من التسلل إلى بيتها بهذه الطريقة المبتكرة. لكن كيف لها أن تعرف حقيقته؟ وكيف يجب أن تتصرف؟ امتزج داخلها شعور الارتباك، وقلة الحيلة، وأحست في الوقت ذاته بشيء من الأمان والثقة وبرغبة في التسليم له، أيًّا ما كانت العواقب المحتملة.

وما إن سألها عن الأسباب التي دفعتها للجوء لوكالة بارنيت، حتى أجابته على الفور، دون مراوغة أو مماطلة؛ كما طلب منها تمامًا. لم تسهب في حديثها؛ لأنه كان في عجلة من أمره كما بدا عليه.

قصت عليه وقائع اليوم المشئوم، فقالت:

- كان ذلك يوم الأحد قبل الماضي، وكنت قد دعوت بعض أصدقائي للعب البريدج. وقد دلفت في هذه الليلة إلى غرفتي مبكرًا وغفوت كعادتي، لكنني سمعت صوتًا أيقظني قرابة الرابعة صباحًا.. في الرابعة وعشر دقائق تحديدًا، ثم تبعه صرير كان أشبه بصرير باب ينغلق. كان هذا الصوت صادرًا من جناحي.

قاطعها السيد بارنيت قائلًا:

- أتقصدين هذه الغرفة؟

- نعم، هذه الغرفة الملحقة بغرفتي الرئيسة من ناحية، وبالممر الذي يقودنا لسلم الخدم من ناحية أخرى. وأنا لا أخاف بطبعي، فنهضت سريعًا لأتحقق من الأمر.

وبينما ظلت تتحدث، انحنى بارنيت على استحياء ليرى هذه الغرفة الداخلية.

ثم عاد ليتابع التفاصيل التي تلت نهوضها من فراشها سريعًا. فقال لها:

- نهضتِ إذن سيدتي؟

- نعم نهضت ودلفت إلى هذه الغرفة وأنرت المصابيح. لم يكن هناك أحد قط،

لكن هذه الواجهة الزجاجية كانت قد هوت بكل ما تحمل من تحف ومقتنيات وتماثيل، كُسِر بعضها بالطبع. فدلفت إلى غرفة زوجي الذي كان جالسًا يقرأ في فراشه، لكنه لم يكن قد سمع أي صوت. انتابه القلق سريعًا، فدق الجرس واستدعى رئيس الخدم، الذي بدأ تحقيقاته مع الخدم على الفور، واستكملها في صباح اليوم التالي مع مفوض الشرطة.

- والنتيجة سيدتي؟

- النتيجة أنه لم يتم العثور على أي دليل يشير لدخول أو خروج أي شخص على الإطلاق.. لا نعرف كيف دخل هذا الشخص؟! ولا كيف خرج؟! هذه هي المعضلة. لكننا عثرنا أسفل أحد المقاعد القماشية، بين بقايا التحف والحلي، على نصف شمعة وكمَّاشة بيد خشبية قذرة. غير أنه في نهار اليوم السابق، كان قد قدم أحد السباكين لإصلاح صنبور حوض المرحاض في غرفة زوجي. واستجوبنا رئيس هذا العامل، وأقر بأن هذه الكماشة له وعثرنا لديه على نصف الشمعة الآخر...

قاطعها بارنيت قائلًا:

- هذه المعلومة مؤكدة، أليس كذلك؟

- بلى، هذه معلومة مؤكدة لا شك فيها، لكن المشكلة تكمن في أن هناك معلومة أخرى مؤكدة أيضًا لكنها تناقضها، وهو ما يحيرنا حقًّا. فقد أثبتت التحقيقات أن عامل السباكة استقل القطار السريع المتجه إلى بروكسل في السادسة من مساء ذلك اليوم، وأنه وصل إلى مقصده في منتصف الليل؛ أي قبل الحادث بثلاث ساعات.

- عجبًا! وهل عاد هذا العامل حقًّا إلى هنا؟

- لا، لقد فقدوا أثره بالقرب من مدينة إنفر؛ حيث ذهب ينفق المال بلا حساب.

- هل هذا كل ما في الأمر؟

- نعم، هذا كل شيء.

- ومَن تولى هذه القضية؟

- المفتش بيشو.

انفرجت أسارير وجهه، وقال لها:

- بيشو؟ إن بيشو مفتش ماهر! وهو أحد أصدقائي المقربون يا سيدتي، وقد عملنا معًا كثيرًا.

- نعم، هو الذي نصحني بالتواصل مع وكالتك، واستشارتك يا سيد بارنيت.

- لأن تحقيقاته لم تُفضِ إلى أي نتيجة، أليس كذلك؟

- بلى.

- بيشو.. هذا الرجل عظيم حقًّا! كم سيسعدني أن أسدي له معروفًا! ولكِ أيضًا سيدتي، صدقيني. لكِ أنتِ على وجه الخصوص.

توجه السيد بارنيت نحو النافذة التي اتكأ عليها بجبهته، وشرد بضع لحظات ليفكر، وهو ينقر بأصابعه على النافذة ويدندن لحنًا خفيفًا. عاد لينظر إلى السيدة أسيرمان، وقال لها:

- يتراءى لكِ وللسيد بيشو إذن أن هذه المحاولة كانت محاولة سرقة، أليس كذلك؟

- بلى، ويبدو أنها كانت محاولة فاشلة؛ لأننا لم نتوصل لضياع أي غرض.

- إذا سلَّمنا أن هذه الفرضية صحيحة، فلا شك أن السارق كان يعتزم سرقة غرض معين، ولا بد أنكِ تعرفين هذا الغرض يا سيدتي. فما هذا الغرض؟

أجابته ڤاليري بعد تردُّد بسيط:

- لا أعلم.

تبسم المخبر، وقال لها:

- مع كامل احترامي، اسمحي لي يا سيدتي أن أعرب عن استيائي..

ودون أن ينتظر منها ردًّا، أشار بإصبعه إلى لوحات قماشية تحيط بفراشها، معلقة فوق أعمدة، وسألها بنبرة توحي بالسخرية، كما لو كان يستجوب طفلًا يخفي شيئًا وراء ظهره:

- ماذا تخبئ هذه اللوحات القماشية؟

باغتها بهذا السؤال العجيب فردت عليه:

- لا شيء.. ماذا تقصد بهذا السؤال؟

فأجابها السيد بارنيت بنبرة حاسمة:

- أقصد ببساطة أن أكثر المحققين سذاجة كان ليتوقف أمام أطراف هذه اللوحات، ويلاحظ أنها متهالكة يا سيدتي، وأن هناك فجوة بسيطة تفصلها عن هذا العمود، وأغلب الظن أن هناك خزنة مخبأة وراء هذه الأقمشة.

شعرت ڤاليري بقشعريرة تسري في بدنها، وتعجبت من قدرة بارنيت على التدقيق في مثل هذه التفاصيل الغامضة. كيف توصل لكل ذلك؟!

في حركة سريعة ومفاجئة، أزاحت ڤاليري اللوحات القماشية عن الحائط لتكشف عن باب حديدي صغير، وحركت بمهارة شديدة الأزرار الثلاثة لتفتح قفل هذه الخزنة. اجتاحها القلق والرهبة، وشردت لثوانٍ في احتمالية أصابتها بالتوتر، رغم عدم واقعيتها.. فقد خُيِّل لها أن هذا الرجل غريب الأطوار سرقها

خلال الدقائق القليلة التي بقي فيها وحده في غرفتها.

أخرجت المفتاح من جيبها، وفتحت الخزنة سريعًا، ثم تنفست الصعداء وارتسم الارتياح على وجهها. فقد وجدت داخل خزنتها عقد اللؤلؤ الرائع، فقبضت عليه مسرعة وأخذت تحرك حباته المتراصة في صفوفٍ ثلاثة بين يديها.

انفجر بارنيت ضاحكًا، وقال لها:

- ها أنتِ أصبحتِ أكثر هدوءًا وأكثر ارتياحًا.. سيدتي، أتفهم قلقك كثيرًا، فقد أصبح اللصوص ماهرين وبارعين اليوم أكثر من أي وقت مضى، وعليكِ الحذر منهم! هذا العقد رائع حقًّا، لكن يؤسفني أن أقول لكِ إن أحدهم قد سرقكِ.

عارضته، وقالت له:

- لم تحدث أي سرقة.. لقد حاول اللص أن يسرقه فقط، لكن محاولاته باءت بالفشل.

- هل هذا ظنكِ سيدتي؟

- نعم هذا ظني! ها هو العقد بين قبضتي! أُمسك به بين يدَي! الأغراض المسروقة تختفي وها هو العقد معي، لم يختفِ.

صحح بارنيت قولها، وأردف:

- في يديكِ عقد، نعم، لكن هل أنتِ واثقة أنه عقدكِ أنتِ؟ هل أنتِ واثقة أن لهذا العقد أي قيمة من الأساس؟

ضاقت به ذرًعا، فقاطعته:

- ماذا تحاول أن تقول؟ لقد عرضته بنفسي منذ أسبوعين على تاجر المجوهرات الذي أتعامل معه، وقدَّر ثمنه بنصف مليون فرنك.

- لقد حدث ذلك منذ أسبوعين يا سيدتي على حد قولك؛ أي قبل الحادث بخمسة أيام، لكن ماذا عن قيمته الفعلية اليوم؟ في الحقيقة لم أفحص العقد بعد. لكن هذا ظني، ولا أعلم إن كان هناك أي شكوك تعتريكِ مثلي أم لا؟

لم تنبس البارونة ببنت شفة وتسمرت مكانها، ولم تفهم فيم عليها أن ترتاب؟ وما الموضوع تحديدًا؟ لكنها أحست بقلق شديد يعصف بها، ونظرت إلى العقد الذي كان في راحة يدها بشيء من الحيرة، وأدركت فجأة أن وزنه أخف من عقدها الذي تألفه. سرعان ما بدت عليها علامات الفزع، والخوف، والارتباك الشديد. انكشفت لها الحقيقة ببشاعتها شيئًا فشيئًا!

قال بارنيت:

- نعم، نعم، أظنكِ بدأتِ تفهمين.. ستتضح الحقيقة لك شيئًا فشيئًا يا سيدتي، أنتِ على الطريق الصحيح، لا يبقى لنا إلا القليل لنصل للحقيقة كاملةً، وحينها ستشعرين أن ملابسات الحادث منطقية. دعيني أساعدكِ على فهم ما حدث.

إن هذا اللص الذي اقتحم غرفتك لم يسرق على الإطلاق، وإنما استبدل شيئًا بشيء، وبذلك لم يُلاحَظ اختفاء أي غرض من الغرفة. ولولا أنه اصطدم باللوح الزجاجي الذي سقط وأصدر ذلك الصوت الذي سمعتيه، لما استيقظتِ ولما انكشف الأمر أبدًا، وما كنتِ لتعرفي أبدًا أن هذا العقد البديع الذي تتزينين به الآن ما هو في الواقع إلا عقد مزيف لا تساوي لآلئه شيئًا.

لم تتعجب البارونة من فجاجة هذا المخبر، فقد انشغل بالها بما هو أهم من ذلك. انحنى بارنيت أمامها وحاول الدخول في صلب الموضوع بأسرع ما يمكن، فأوضح لها:

- لدينا الآن معلومة مبدئية يمكن أن نبني عليها تحقيقاتنا، وهي أن عقد اللؤلؤ الحقيقي اختفى. ولكن لا يجب أن نتوقف عند هذه النقطة. بما أننا عرفنا الآن أن العقد الحقيقي قد سُرِق، فلنحاول إذن الكشف عن الفاعل الحقيقي، هذه هي الخطوات الصحيحة لأي تحقيق ناجح، فبمجرد أن نحدد الفاعل، سنقترب خطوة إضافية من الإمساك به، وسنتمكن لاحقًا من استرداد العقد، وهذه هي الخطوة التالية من عملنا.

سمح لنفسه بأن يربت على يدها بهدوء، ثم قال لها:

- أريدكِ أن تثقي بي يا سيدتي البارونة، نحن نسير على الطريق الصحيح. واسمحي لي أن أشاركك فرضية صغيرة فكرت فيها لتوي، ويا لها من فرضية عبقرية! فلنفرض أن زوجك استطاع -رغم مرضه- أن يجر نفسه من غرفته في تلك الليلة، وأن يصل إلى غرفتكِ، ولنفرض أنه استخدم الشمعة والكماشة اللتين صادف وأن نسيهما العامل قبل انصرافه، وأنه فتح الخزنة، ثم اصطدم باللوح الزجاجي، فهرب خوفًا من أن تكوني قد سمعتِ أي صوت.. أفلا تصبح الملابسات جليةً ومنطقيةً الآن؟ في مثل هذه الحالة سيكون من الطبيعي ألا يتم العثور على أي أثر يدل على دخول أو خروج أي شخص. وسيكون من الطبيعي أيضًا أن تكون الخزنة قد فُتِحت دون أي محاولة تحطيم أو سطو، لا سيما أن زوجكِ رآكِ حتمًا خلال السنوات التي حظي فيها بالولوج إلى مخدعكِ وأنتِ تفتحين الخزنة مرارًا وتكرارًا، وحفظ طريقة تدوير سلسلة الأرقام على قرص القفل، وعدد هذه التكات؛ بحيث تمكن من معرفة الرقم المسلسل المكون من ثلاث عدّات.

هذه الفرضية الصغيرة -كما أشار إليها بارنيت- أفزعت ڤاليري، بينما كان يقص عليها كل هذه التفاصيل، كانت تصغي إليه كما لو كانت تتخيل كل هذه المشاهد أمامها. راحت تقول له في ذهول:

- أنت مجنون! إن زوجي عاجز. إذا كان قد دلف أحد في هذه الليلة إلى غرفتي فلا يمكن أن يكون زوجي.. إن هذا مستحيل!

أردف بارنيت قائلًا:

- هل كانت هناك نسخة مقلدة من عقدكِ؟

- نعم! صنعها زوجي على سبيل الاحتياط منذ أربع سنوات.

- ومَن يملك هذه النسخة؟

أجابته بصوت خافت:

- هو مَن يملكها!

اختتم السيد بارنيت حديثه في مرح قائلًا:

- هذه النسخة المزيفة هي التي تمسكين بها بين يديكِ الآن.. إنها هي التي استُبدِلت بعقدكِ الحقيقي، وزوجكِ هو الذي أخذ حبات اللؤلؤ الحقيقية. لكن لماذا قد يُقدِم على مثل هذه الفعلة؟! إن ثروته تضعه فوق مستوى الشبهات!.. لا بد لنا أن نبحث عن الدوافع الأخرى التي قد تجعله يفعل ذلك.. ماذا عن رغبته في الانتقام منكِ مثلًا؟ أو في إيذائكِ؟ أو ربما في معاقبتكِ؟ ما قولكِ؟ أنا أعرف أنه يحق لأي امرأة جميلة مثلكِ أن ترتكب بعض الحماقات في شبابها، وهي حماقات مشروعة بالطبع، ولكن كيف يمكن أن يعاقبها زوجها بهذه القسوة؟! أرجوكِ أن تعذريني يا سيدتي البارونة، فليس لي أن أتدخل في أسراركما الزوجية، وإنما عليَّ أن أفتش عن عقدكِ وأن أعاونكِ فحسب.

صاحت ڤاليري وهي تتراجع خطوة إلى الوراء:

- كلا، كلا!

ضاق بها ذرعًا من ذلك الشيطان الذي استطاع في ظرف بضع دقائق من الحديث الممزوج بنبرة تهكُّم وسخرية، وبطريقة مخالفة لكل أعراف التحقيقات، أن يزيح الستار بسهولة مدهشة عن كل الأسرار التي تحيط بها وأن يريها باستخفاف شديد الهوة التي سيقودها إليها القدر.

لم تعد تشعر بأي رغبة في سماع صوته الساخر هذا.

عادت لتتمتم في تعنت شديد:

- كلا!

انحنى بارنيت أمامها، وقال:

- كما يحلو لك يا سيدتي. لم يكن في نيتي أن أزعجكِ أبدًا وأنا هنا لكي أسدي لكِ خدمةً، على النحو الذي يناسبكِ، وأنا على ثقة أنه بعدما قادتنا التحقيقات إلى هذه النقاط، لم تعودي في حاجة إليَّ وأنه يمكنكِ أن تستغني عن خدماتي، وأن تعفيني من مساعدتكِ، خاصةً وأن زوجكِ لا يتحرك، فلا يزال حتمًا يحتفظ بالعقد في مكان ما في غرفته، وهو ليس بالحماقة التي تجعله يعطي هذا العقد لأي شخص آخر.. العقد مع زوجكِ، وسيمكنكِ العثور عليه إذا بحثتِ عنه بدقة وعناية. ها أنا قد فعلت ما بوسعي وأظن الآن أن القضية أصبحت من اختصاص صديقي بيشو. ولكن دعيني أُذكِّركِ -يا سيدتي- أنه في حال حدوث أي شيء وفي حال احتجتِ إليَّ، يمكنك أن تتصلي بي على

تليفون المكتب مساء اليوم، من التاسعة إلى العاشرة مساءً. تحياتي يا سيدتي.

قبَّل بارنيت يدها من جديد دون أن تجرؤ على إبداء أدنى مقاومة، ثم انصرف وهو يسير متمايلًا في ارتياح وخفةً، وأغلق الباب خلفه.

وفي مساء ذات اليوم، طلبت ڤاليري المفتش بيشو واستدعته إليها ليباشر تحقيقاته.. وجوده المستمر في قصر أسيرمان، بدا شيئًا طبيعيًّا في هذه الظروف. بدأ المفتش القدير وتلميذ المحقق جانيمار الشهير، في إجراء تفتيش دقيق، بالطرق التقليدية. قام بتقسيم الغرف إلى أقسام، وفتش المرحاض والمكتب الخاص، وجال في أرجاء القصر كافة. العقد مؤلف من ثلاثة صفوف من اللؤلؤ، وبالتالي لم يكن من السهل إخفاؤه، خاصةً عن رجل متمرس مثل بيشو.

ومع ذلك، وبعد مرور ثمانية أيام من البحث المضني، وبعد مرور ليالٍ عدة كان ينتهز فيها المحقق بيشو فرصة تعاطي البارون للمنومات، ليقوم بنفسه بتفتيش الفراش وما تحته، ثبطت عزيمته وأكد أن العقد ليس في القصر، قولًا فصلًا.

رغم نفورها منه، فكرت ڤاليري في أن تتواصل من جديد مع السيد بارنيت، وأن تطلب مساعدته، رغم عدم تحمُّلها لشخصيته. لا يهم إذا قبَّل يدها، أو دعاها في ألفة شديدة، بـ(البارونة العزيزة)، إن كان ذلك سيوصلها إلى هدفها المنشود في كل الأحوال..

لكن حدثت مفاجأة لم تكن في الحسبان، قلبت الأمور رأسًا على عقب. ففي المساء، أقبل أحد الخدم مسرعًا وأخبر ڤاليري أن زوجها تعرض لأزمة شديدة، وأنه قد تهالك خائر القوى فوق أريكة بجانب دورة المياه وأنه يكاد يختنق. كان وجهه المكلوم يوحي بالآلام المبرحة التي كان يتكبدها.

فزعت ڤاليري؛ فاتصلت بالطبيب، لكن البارون تمتم قائلًا:

- انقضى الأمر، وفات الأوان.. فات الأوان.

قالت:

- كلا، أقسم لك أنك ستكون على ما يرام.

حاول أن ينهض، وقال وهو يترنح نحو دورة المياه:

- أريد ماءً.

- ولكن الدورق مملوء يا عزيزي.

- كلا، كلا، لا أريد أن أشرب من هذا الماء.

- ولم هذا التعنت؟!

وقع البارون وقد خارت قواه، ففتحت هي الصنبور الذي أشار إليه، ثم مضت لكي تأتي بكوب، ملأته وناولته إياه، ولكنه رفض أن يشرب وخيم الصمت المطبق على المكان، بينما كانت مياه الصنبور تنساب بالقرب منهما. أشار إليها بأن لديه ما يريد أن يُسِر به إليها، فانحنت فوقه ولكن لا شك أنه خشي أن يسمعه الخدم؛ لأنه قال لها:

- اقتربي أكثر، اقتربي.

ترددت قليلًا وتوجست خيفة مما سيقوله لها، ولكن زوجها رمقها بنظرة آمرة، فوجدت نفسها تجثو على ركبتيها بجواره وتلصق أذنها بفمه تقريبًا.

همس بكلمات غير مفهومة استطاعت بالكاد أن تفسرها:

- العقد.. اللآلئ.. يجب أن تعرفي قبل أن أرحل.. أنت لم تحبيني قط، وتزوجتِني فقط طمعًا في ثروتي.

احتجت ڤاليري غاضبة من هذا الاتهام القاسي الذي يوجهه لها في هذه اللحظة الحرجة، ولكنه أمسك بمعصمها وعاد يقول لها في غموض وهذيان شديد:

- طمعًا في ثروتي.. لقد برهنتِ على ذلك بسلوكِك، فأنت لم تكوني زوجة مخلصة قط، ولهذا أردت معاقبتكِ، وها أنا أعاقبكِ في هذه اللحظة. وأشعر بسعادة غامرة.. حان وقت نزول العقاب، ولا يهمني إن مت أنا؛ لأن اللآلئ ستختفي مع موتي في كل الأحوال.. إنكِ لا تسمعين وقعها الآن وهي تتساقط.. ها هي تمضي مع التيار.. آه! يا له من عقاب قاسٍ يا ڤاليري! ويا لكِ من مسكينة! قطرات المياه تتساقط، ها هي تتساقط!

خارت قواه وحمله الخدم إلى فراشه وأقبل الطبيب بعد قليل وأقبلت أيضًا ابنتا أخ له متقدمتان في العمر كانتا قد علمتا بمرضه.. دلفتا إلى غرفته ولم تتحركا بعد ذلك منها. وبدا أن هاتين السيدتين تتربصان بڤاليري وبكل تحركاتها، وأنهما على أتم استعداد للدفاع عن الأدراج والخزانات بكل ما أوتيتا من قوة ضد أي محاولة لفتحها.

ظل البارون يحتضر طويلًا، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة قبل بزوغ الفجر، دون أن يردف بكلمة أخرى. وُضِعت الأختام الشمعية على كل الغرف وعلى الأثاث كله؛ بناءً على طلب ابنتَي الأخ وبدأت مراسم الجنازة والحداد.

وبعد مرور يومين على دفن البارون، استقبلت ڤاليري زيارة من محامي الفقيد الذي طلب أن يقابلها على انفراد. بدا وجهه مغمومًا وحزينًا للغاية. قال لها في أسى شديد:

- إن المهمة التي أحملها على عاتقي عصيبة يا سيدتي البارونة، وأريد أن أفرغ منها بأسرع ما يمكن، وأؤكد لكِ مسبقًا أنني لم أكن يومًا راضيًا عن هذا الظلم الذي سيقع عليكِ، وأنني لن أوافق عليه أبدًا، لكنني اصطدمت للأسف

بإرادة البارون وإصراره، وأنتِ أدرى الناس بإصرار السيد أسيرمان وتعنُّته، ورغم كل ما بذلت من جهد...

توسلت إليه ڤاليري قائلة:

- أرجوك تحدثْ يا سيدي، ما الأمر؟

- إليكِ الأمر يا سيدتي. بين يدي الآن الوصية الأولى للسيد أسيرمان، والتي كان قد كتبها منذ عشرين عامًا، ويوصي لكِ فيها بكل شيء باعتباركِ الوريثة الشرعية الوحيدة، لكنه -للأسف- عهد إليَّ الشهر الماضي بتحرير وصية أخرى، ينقل فيها كل ثروته لابنتَي أخيه.

- وهل هذه الوصية معك؟

- بعد أن تلاها عليَّ وضعها في هذا المكتب. أراد ألا يطلع عليها أحد إلا بعد أسبوع من وفاته، ولا يمكن أن تُرفَع الأختام الشمعية قبل هذا التاريخ أبدًا.

أدركت البارونة الآن لماذا نصحها زوجها -قبل بضع سنوات، عندما وقعت خلافات شديدة بينهما- أن تبيع كل مجوهراتها وأن تشتري بثمنها عقدًا من اللؤلؤ. وها هي الآن دون عقد، ودون ميراث، ولم يتبقَّ معها أي مورد دخل ولا أي ثروة.

وفي اليوم السابق لرفع الأختام الشمعية، توقفت سيارة أمام متجر متواضع بشارع دي لابورد، عُلِّقت عليه هذه اللافتة:

وكالة بارنيت وشركاه

للاستعلامات المجانية

نعمل من الساعة الثانية إلى الثالثة ظهرًا

خرجت من السيارة امرأة ترتدي ثياب الحداد، ودقت على الباب؛ فسمعت صوتًا يرِد من الداخل: تفضل!

دلفت إلى المكتب وسمعت صوتًا تألفه يقول لها من غرفة داخلية يفصل بينها وبين المكتب ستار:

- مَن القادم؟

فأجابته:

- البارونة أسيرمان.

- آه معذرة يا سيدتي البارونة.. تفضلي بالجلوس، سآتي حالًا.

انتظرت ڤاليري أسيرمان وراحت تتفحص المكتب.. كان مكتبًا تقليديًّا، وخاليًا تمامًا سوى من منضدة ومقعدين، وكانت الجدران عارية.. لا ملفات ولا أوراق، والشيء الوحيد الذي كان يزين هذه الغرفة وجود الهاتف وجواره بعض أعقاب السجائر الفاخرة، وكان يفوح من المكان رائحة رقيقة وخفيفة. أُزِيح الستار،

وظهر من خلفها السيد چيم بارنيت، الذي يسير في حركة خفيفة ورشيقة كعادته، والذي تعلو شفتيه ابتسامة هادئة.

كان يرتدي السترة الطويلة المستهلكة نفسها وربطة عنق غير محكمة، ونظارة المونوكل المفردة المعلقة في سلسلة سوداء. أسرع بالانحناء أمامها وأمسك بيدها وطبع قبلة فوق قفازها، ثم قال: كيف حالكِ يا بارونة؟ إنه لشرف كبير لي أن أستقبلكِ هنا.. ولكن ما الخبر؟ هل أنتِ في حداد؟ أرجو ألا يكون الأمر خطيرًا.. يا إلهي! ماذا دهاني؟! بدأت أتذكر.. البارون أسيرمان، أليس كذلك؟ يا لها من كارثة! لقد كان رجلًا ظريفًا للغاية، وكان يحبكِ كثيرًا. إلى أين وصلت الأمور؟

أخرج من جيبه مدونة صغيرة تصفحها سريعًا، وأخذ يستعيد تفاصيل القضية، ويقول:

- دعيني أتذكر.. ممم.. البارونة أسيرمان.. حسنًا.. اللآلئ المزيفة! نعم.. الزوج السارق.. المرأة الجميلة.. بل، شديدة الجمال.. أنتظر منها مكالمة هاتفية.

وأردف يقول لها في ألفة متزايدة:

- حسنًا يا سيدتي العزيزة، يبدو أنني كنت أنتظر منك مكالمة هاتفية أولًا.

ارتبكت ڤاليري من شخصية هذا الرجل، ولم ترغب في أن تُظهِر له ضعفها ولا فجيعتها على موت زوجها، لكنها أحست -رغم ذلك- بمشاعرَ مؤلمة للغاية، وانتابها قلق من المستقبل ورعب من شدة مصابها. كانت قد قضت أسبوعين عصيبين للغاية، بين هواجس اليأس واحتمالات الإفلاس، وبين الكوابيس والندم والرعب والإحباط التي تركت آثارها على وجهها المكلوم. وها هي الآن، واقفة أمام شاب ساخر، ومرح وعفوي لا يعي هول الموقف.

وحتى تضع الحوار في إطار رسمي، روت عليه الأحداث بتماسك شديد، وتجنبت أن تنتقص من أفعال زوجها، واكتفت فقط بنقل ما أخبرها به المحامي.

ارتسمت ابتسامة ثقة على وجه بارنيت، ثم قال لها:

- حسنًا، حسنًا! هذه الأحداث مترابطة ومنطقية للغاية.. إنه من دواعي سروري أن أرى هذه القضية تسير على هذا النحو وبهذا الترتيب.

سألته ڤاليري وقد ازدادت حيرتها:

- أي سرور تقصد؟

- لا بد وأن صديقي بيشو قد أحس بشعور الارتياح الذي أشعر به الآن.. ألم يشرح لكِ الأمر؟

- لا أفهم ما تعنيه؟

- كيف لا تفهمين؟ لا بد وأنه شرح لكِ بالتأكيد حبكة هذه القضية ولب هذا

اللغز، ألا ترين أن الأمر غريب ومضحك؟ لا ريب أن بيشو ضحك من أعماق قلبه.

وراح بارنيت يضحك من أعماق قلبه هو الآخر وأوضح لها:

- آه يا سيدتي! يا لها من مفاجأة تثلج الصدر! لحسن الحظ حبكة هذه القضية ليست معقدة على الإطلاق، لكنها بُنِيت بحرفية شديدة! لا أنكر أنني التقطت طرف الخيط منذ أن حدثتِني عن السباك الذي جاء لإصلاح حوض دورة المياه، وربطت على الفور هذه الإصلاحات بنوايا البارون أسيرمان. قلت لنفسي: يا لها من حبكة عظيمة! ففي الوقت الذي كان البارون يستبدل فيه العقد المزيف بالعقد الأصلي، كان يبحث عن مكان بديل ليخبئ فيه اللآلئ الحقيقية! لأن هذا هو ما كان يهمه في نهاية المطاف، أليس كذلك؟ ما الجدوى إذا سرق منكِ اللآلئ ليتخلص منها في نهر السين كما لو كانت طردًا لا قيمة له؟ ما كان هذا النوع من الانتقام الساذج ليرضيه يا سيدتي، فحتى يُحكِم خطة انتقامه على أكمل وجه؛ ارتأى أن يخبئ اللآلئ الحقيقية في مخبأ قريب منه لا يمكن لأحد الوصول إليه أبدًا.. وقد كان.

بدا چيم بارنيت سعيدًا بهذه الاستنتاجات، فاستطرد قائلًا:

- وهذا ما فعله تمامًا، بفضل التعليمات التي حرص على إعطائها لفني السباكة. دعينا نتخيل الحوار الذي دار بين البارون وعامل السباكة في هذا اليوم: «هل ترى يا صديقي هذا الخرطوم الذي ينسكب فيه الماء تحت الحوض؟ إن هذا الخرطوم ينحدر حتى العمود ثم تنساب المياه في ماسورة المرحاض المنزلقة هذه، أليس كذلك؟ أريدك أن تقلل من انحدار هذا الخرطوم؛ بحيث تخلق نوعًا من التجويف في هذه الزاوية تحديدًا؛ بحيث يمكن لأي شيء يُلقَى في الحوض أن يستقر في هذه الزاوية المجوفة، وبالتالي عندما نفتح الصنبور، سينساب الماء ويملأ هذا التجويف فينزلق الشيء المستقر في تجويف الخرطوم وينساب مع الماء في ماسورة المرحاض. هل تفهمني يا صديقي؟ في هذه الحالة، أريدك أن تثقب لي ثقبًا في هذه الناحية من الخرطوم، بجانب الحائط مباشرةً؛ حتى نتمكن من تسكين حبات اللؤلؤ فيه.. عظيم! ممتاز! الآن سد لي هذا الثقب بواسطة سدادة مطاطية.. هل انتهيت؟ رائع يا صديقي. لا يسعني الآن إلا أن أشكرك، وأن نتفق على كل شيء. لن تتفوه بكلمة لأحد على الإطلاق، مفهوم؟ وهذا ثمن تذكرة القطار لتتوجه لبروكسل الليلة. وهذه ثلاثة شيكات يمكن أن تصرفها لدى وصولك لبروكسل على مدار ثلاثة أشهر، وبعد هذه الأشهر الثلاث، يمكن لك أن تعود إلى هنا متى شئت.. وداعًا يا صديقي». هل تتابعيني يا سيدتي؟ أنا متأكد أن اتفاقهما سار على هذا النحو. والصوت الذي سمعتيه في هذه الليلة، كان صوت سرقة اللآلئ وإخفاء اللآلئ الحقيقية في المخبأ المخصص لهم، في تجويف أنبوب الحوض. هل تفهميني؟ وعندما شعر البارون أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، استدعاكِ وطلب منكِ «ماءً».. لكنه لم يُرِد ماء الدورق، وإنما أراد ماءً من الصنبور، وبالطبع امتثلتِ أنتِ لأوامره، وهذا هو العقاب والانتقام الحق. أنت من فتحتِ الصنبور بيديكِ. سالت المياه في أنبوب الحوض وسحبت معها اللآلئ

القابعة في تجويف الخرطوم؛ لذلك قال لك البارون حينها: «هل تسمعينها؟ إنها تتساقط، قطرات المياه تتساقط نحو الظلمات». وكان يقصد حينها أن حبات اللؤلؤ تسقط مع قطرات المياه.

أنصتت له البارونة في صمت تام وفي قلق شديد، فبالإضافة إلى بشاعة هذه القصة التي تبرز مدى كراهية زوجها لها ومدى قسوته ووحشيته، انتبهت إلى أمر آخر تجلى أمام عينيها بوضوح شديد وهي تصغي لهذه التفاصيل. همست لبارنيت قائلة:

- كنت تعلم كل شيء؟ كنت تعرف الحقيقة؟

- أليست هذه مهنتي؟

- لماذا لم تخبرني بها من قبل؟!

- ماذا؟! أنتِ منعتِني من الإفصاح عما أعرفه أو عما كنت على وشك معرفته، أنتِ من صددتِني بشيء من الحدة. أنا رجل حساس يا سيدتي، ولم أصر عليك. وفي نهاية الأمر كان عليَّ أن أتأكد من صحة هذه الفرضيات.

- وهل تأكدت حقًّا؟

- نعم، كان ذلك بدافع الفضول.

- وكان ذلك في أي يوم؟

- في مساء اليوم الذي استدعيتِني فيه.

- في الليلة ذاتها؟ كيف تمكنت من الولوج إلى المنزل دون أن أشعر؟

- اعتدت أن أعمل في صمت، والبارون أسيرمان لم يسمع شيئًا هو الآخر، لكن...

- لكن ماذا؟

- حتى أتحقق مما كان يدور في ذهني، قمت بفتح وتوسيع الثقب الذي كان في خرطوم الصرف هذا.. ذلك الثقب الذي أُدخِلت منه اللآلئ.

ارتجفت البارونة، وقالت له:

- رأيتها؟

- نعم، رأيتها.

- رأيت اللآلئ؟

- نعم، رأيت اللآلئ بعيني.

قالت ڤاليري في صوت خافت:

- هذا يعني أنك عثرت على اللآلئ، وتسنى لك أخذها بالتأكيد!

اعترف بارنيت بكل براءة قائلًا:

- يا إلهي، لولايَ أنا، چيم بارنيت، لكانت هذه اللآلئ الآن في المكان الذي خطط له البارون أسيرمان، في المكان الذي وصفه لكِ.. أتتذكرين؟ «إنها تسقط.. في الظلمات.. أتسمعينها؟ تسقط كقطرات الماء». وكان لينجح في انتقامه. خسارة، خسارة حقًّا أن نفقد مثل هذا العقد الثمين الفريد من نوعه!

لم تكن ڤاليري من نوع السيدات التي تُستفَّز وتغضب سريعًا، لكن في هذا اليوم، اجتاحها غضب عارم جعلها تثور على چيم بارنيت وحاولت أن تمسك بتلابيبه.. فصاحت فيه:

- هذه سرقة! أنت محتال.. ارتبت فيك منذ البداية.. محتال ونصاب!

ضحك كثيرًا من كلمة «محتال» هذه، وهمس:

- «محتال».. يا لها من كلمة رائعة!

لكن ڤاليري لم تهدأ قط وظلت تجول وتصول في الغرفة كلها، وتصرخ فيه:

- لن تخدعني! ستعيده لي الآن، هل تفهمني! وإلا اتصلت بالشرطة!

تعجب من ردة فعلها ووبخها قائلًا:

- ما هذا التصرف الأهوج؟! كيف لامرأة جميلة مثلك أن تتعامل بهذا الجفاء مع رجل أمين ومتفانٍ مثلي؟!

رفعت كتفيها، وقالت له بلهجة آمرة:

- العقد!

قال لها:

- العقد بين يديكِ سيدتي، يا للعجب! ماذا كنتِ تخالين؟ أتظنين أن چيم بارنيت يسرق مَن يأتمنه؟ أهذا ظنكِ بوكالة چيم بارنيت التي بنت سمعتها على أمانتها ونزاهتها وترفُّعها عن أي مكسب؟ أنا لا أقبض أي مليم من عملائي نظير عملي! إذا احتفظت بلآلئكِ سأكون حينها «محتالًا» ونصابًا، وأنا رجل شريف. ها هو عقدكِ يا (بارونتي العزيزة)!

أخرج لها كيسًا قماشيًّا فجذبته (البارونة العزيزة) من يديه بيد مرتعشة. لم تصدق عينيها، أيُعقَل أن يكون قد سلمها العقد بهذه البساطة؟ خشيت فجأة أن يكون قد دبر لها أي مكيدة أخرى؛ فخرجت من الباب مسرعةً دون أن تشكره حتى.

ضحك بارنيت، وقال لها:

- أراكِ متعجلة يا سيدتي، ألن تتأكدي من عدد حبات اللؤلؤ؟ 354 حبة بالتمام،

354 حبة حقيقية وأصلية، هذه المرة.

أردفت ڤاليري:

- نعم.. نعم، أعلم جيدًا.

- أنت متأكدة أليس كذلك؟ هذه هي الحبات ذاتها التي ثمَّنها بائع المجوهرات بقيمة 500 ألف فرنك، أليس كذلك؟

- نعم، أنا متأكدة.

- أأنتِ واثقة سيدتي؟

- نعم، واثقة تمام الثقة.

- في هذه الحالة، دعيني أبتاعها منكِ.

- لا أفهم.. ماذا تقصد؟

- أقصد أنكِ ما دمتِ بلا ثروة الآن، فستضطرين...

توقفت ڤاليري عند الباب، وقالت له:

- اعذرني، لا أفهم العلاقة بين ثمن العقد، وقيمة ثروة زوجي.. اشرح لي من فضلك.

رد عليها بوضوح شديد:

- التفسير بسيط للغاية، سأشرح لكِ بإيجاز: إما العقد وإما الميراث، الاختيار لكِ.

رددت الكلام دون أن تعيه جيدًا:

- إما العقد أو الميراث؟!

- يا إلهي! سيدتي، إن حصولكِ على ميراث زوجكِ يتوقف على وصيتين كما قلتِ لي. الوصية الأولى لصالحكِ، لا جدال.. لكن الوصية الثانية تحرمكِ كل شيء وتنقل كل الثروة، البالغ قدرها عشرة ملايين فرنك، لصالح السيدتين المسنتين شديدتي الثراء، وهما كالساحرات الشريرات، للعلم.. لكن إن لم يعثر أحد على الوصية الثانية التي ستُفَض غدًا، فحينها سيعتمد المحامي الوصية الأولى فقط، وسترثين أنتِ كل الثروة.

قالت ڤاليري بصوت خافت:

- لكن من المفترض أن تُرفَع الأختام وتُفتَح أدراج المكتب غدًا، فالوصية الثانية داخل هذا المكتب.

- قال لها: وربما لا تكون داخله.. بل أكاد أجزم، في رأي المتواضع، أنها ليست داخله.

- أيُعقَل؟

- نعم، تمامًا، أنا متأكد أنها ليست فيه. أتذكر في الحقيقة أنني عندما دلفت لبيتكِ لمعاينة ماسورة الحوض تسللت خلسة إلى غرفة زوجكِ.. كان المسكين يغط في نوم عميق!

قالت له وهي ترتعش: وأخذت الوصية؟

- نعم، على ما يبدو.. واسمحي لي أن أقول إن الوصية المكتوبة في هذه الورقة مكتوبة بخط رديء للغاية.

أخرج بارنيت ورقة مدموغة وفتحها وأعطاها لها، فتعرفت فيها خط السيد أسيرمان، وقرأت العبارات التالية:

«أقر أنا الموقع أدناه -ليون چوزيف أسيرمان، الرجل المصرفي- أنه لا يحق لزوجتي التصرف بثروتي؛ نظرًا لبعض التصرفات التي بدرت منها آنفًا...».

لم تواصل ڤاليري القراءة، وتحشرج صوتها، وهوت على المقعد، وقد خارت كل قواها، ثم تلعثمت، وقالت:

- لقد سرقت هذه الورقة! يا للعار! لا أريد أن أكون شريكتك في هذه الفعلة المشينة.. يجب أن تُنفَّذ وصية زوجي المسكين، مهما كلفني الأمر!

بدا على چيم بارنيت بعض الحماس الساخر؛ فقال لها:

- آه، يا له من موقف نبيل يا صديقتي الغالية! الواجب يحتم عليكِ أن تضحي، وأنا أوافقكِ الرأي تمامًا، لكن -للأسف- هذا الواجب ثقيل للغاية! هذه التضحية ثقيلة؛ لأن السيدتين العجوزتين لا تستحقان هذه التضحية إطلاقًا، ولأنكِ تضحين من أجل زوجكِ الذي كان يُكِن لكِ كل الكراهية.. كيف تقبلين على نفسكِ أن تدفعي ثمن بعض الحماقات التي بدرت منكِ في شبابكِ وتسكتين عن هذا الظلم الواقع عليكِ؟ يا إلهي.. ڤاليري الجميلة ستضحي وستحرم نفسها من الترف الذي عاشت فيه طيلة حياتها، وسينتهي بها الحال إلى الفقر والعوز! أرجوكِ أن تعيدي التفكير يا سيدتي البارونة. احسبي خطواتكِ جيدًا، وحاولي أن تعي جيدًا أبعاد الموقف. إذا اخترت العقد، أو بمعنى أدق، وحتى لا يكون هناك مجال للبس، إذا خرج العقد من هذه الغرفة، سيتلقى المحامي الوصية الثانية غدًا، وستُحرَمين من أي ميراث.

- وإن تركت لك العقد؟

- إن تركتِ لي العقد، ففي هذه الحالة لن يعرف أحد بأمر هذه الوصية الثانية على الإطلاق، وبالتالي ستنتقل كل الثروة إليكِ؛ بفضلي أنا، چيم بارنيت.

كانت نبرته ساخرة كالعادة.. وأحست ڤاليري بضيق يطبق على صدرها، وشعرت أنها عاجزة ومسلوبة الإرادة، تمامًا كأي فريسة يسوقها القدر بين يدَي ذلك الشيطان.. لم يكن أمامها مجال لأي مقاومة، وإن لم تترك له العقد،

فسوف تخرج الوصية الثانية للنور وتُحرَم هي من الميراث. ومع خصم كهذا لم يكن هناك أي أمل، فهو لن يستسلم.

قضى چيم بارنيت لحظة وجيزة خلف الستار.. وقادته جرأته إلى أن يعود بعد برهة وقد دهن وجهه بمادة دهنية وراح يمسحها شيئًا فشيئًا كما يفعل الممثلون عندما يزيلون مساحيق التجميل من على وجوههم. بدا لها عندئذٍ بهيئة مختلفة تمامًا، بدا أصغر سنًّا، ببشرة جميلة وصحية وقد غيَّر ربطة عنقه بربطة أنيقة واستبدل السترة الطويلة المستهلكة بسترة على أحدث طراز. كشف عن هويته الحقيقية وعن وجهه الحقيقي دون أدنى خوف من أن تفضح ڤاليري أمره. كان واثقًا من أن ڤاليري لن تجرؤ أبدًا على أن تنطق بأي كلمة دارت بينهما لأحد، وأنها لن تكشف شخصيته الحقيقية لأحد، ولا حتى للمفتش بيشو. عرف أن هذا السر سيبقى بينهما للأبد.

انحنى نحوها، وقال لها وهو يضحك:

- يُخيَّل إليَّ أنكِ ترين الأمور الآن بصورة أوضح.. لا تقلقي، إذا تركتِ لي العقد الأصلي واحتفظتِ لنفسكِ بالعقد المزيف، وقبلتِ بهذه المقايضة، فلن يعرف أحد أن البارونة أسيرمان ترتدي عقدًا مزيفًا.. لا أحد من أصدقائكِ ولا من صديقاتك سيكشف الأمر. وعلى هذا النحو ستضربين عصفورين بحجر واحد، فمن ناحية ستحتفظين بثروتكِ الشرعية ومن ناحية أخرى سترتدين عقدًا سيظنه الجميع أصليًّا، وسأحتفظ أنا بالعقد الأصلي.. أليست مقايضة رائعة؟ أولا تبدو الحياة أمامكِ أكثر جمالًا الآن؟ استمتعي بالحياة الجميلة المثيرة المليئة باللهو والمرح، واستمتعي بحياتكِ التي يمكنكِ أن تفعلي فيها من الآن فصاعدًا كل الحماقات التي يحق لمَن في سنك أن يفعلها.

لم تكن ڤاليري قادرة على التفكير في الاستمتاع بحياتها ولا في ارتكاب أي حماقات على الإطلاق، ورمقت چيم بارنيت بنظرة تنضح بالكراهية والحقد والغضب، لكنها خرجت من غرفته بمنتهى الشموخ والوقار، وتركت فوق المنضدة الكيس الصغير الذي يحتوي على العقد.

حدَّث چيم بارنيت نفسه وهو يعقد ذراعيه، قائلًا في استنكار شديد:

- يا لها من امرأة شريفة! يحرمها زوجها من الميراث؛ لكي يعاقبها على حماقاتها فلا تكترث لإرادته ولا لوصيته الأخيرة.. هناك وصية، ولكنها تخفيها، وهناك محامٍ، لكنها تتفنن في خداعه.. وهناك ابنتا أخ ستسلبهما حقهما الشرعي.. ياً له من تصرف بغيض! لكن ما أجمل أن نعيد نحن الحق لأهله!

أعاد بارنيت العقد في خفة إلى مكانه؛ أي في جيبه، وبعد أن فرغ من ارتداء ثيابه ووضع سيجارًا فخمًا بين شفتَيه وارتدى نظارة المونوكل على عينه، غادر وكالة بارنيت وشركاه.

رسالة غرامية من الملك چورچ

بينما كان السيد بارنيت يغفو فوق مقعده في وكالة بارنيت وشركاه، في انتظار أحد العملاء، طرق أحدهم الباب، فرد بارنيت:

- تفضل.

عندما رأى بارنيت هذا الزائر غير المتوقع صاح:

- المفتش بيشو! زيارتك هذه تعني لي الكثير.. كيف حالك يا صديقي العزيز؟

كان المفتش بيشو يختلف في مظهره وفي سلوكه عن بارنيت كليًّا، فقد كان شديد الأناقة، يحكم ربطة عنقه، ويرفع طيات قميصه.. كان شاحب الوجه، طويل القامة، ونحيل الجسد، وذراعاه مفتولتين كما لو أنه استعارهما من أحد أبطال الملاكمة، وعلَّقهما على جسده النحيل هذا ليتباهى بهما. أما وجهه، فيوحي بخفة ومرح صبياني، لكن نظرته لا تخلو من الذكاء والحدة.

رد بيشو على بارنيت قائلًا:

- مررت من أمام وكالتك فحدثت نفسي أن أنتهز فرصة وجودك في مكتبك وأقابلك، فأنا أعرف يا صديقي أن مواعيدك دقيقة للغاية وأنك حتمًا في وكالتك في هذه الساعة.

رد بارنيت عليه:

- لا بد وأنك تريد أن تستشيرني في أمر ما.

اعترف بيشو ضمنيًّا أنه يحتاج لمشورة بارنيت، فقال بشيء من التحفظ:

- نعم، ربما.

رد بارنيت:

- قل لي ما الذي يشغل بالك اليوم؟ يبدو أن الأمر معقد.

ضرب بيشو برسغه على الطاولة، فهز الطاولة بذراعيه المفتولتين، ثم قال:

- حسنًا، في الحقيقة، أنا لا أعرف من أين أبدأ؟ لقد عملنا معًا ثلاث مرات من قبل على قضايا معقدة وعويصة يا بارنيت، أنت بصفتك مخبرًا سريًّا، وأنا بصفتي مفتش شرطة.. وقد لاحظت في هذه المرات الثلاث، أن علاقتك بالعملاء الذين يلجئون لمكتبك الاستشاري، ومن بينهم البارونة أسيرمان على سبيل المثال، دائمًا ما تنتهي بسوء فهم أو بشيء من الحساسية.

قاطعه بارنيت:

- ماذا تقصد؟ أتظن أنني أقوم بابتزاز عملائي؟

- لا، ليس هذا ما قصدته..

ربَّت بارنيت على كتف بيشو، وقال له:

- يا بيشو يا صديقي، أنت تعلم أن شعار وكالتي (وكالة بارنيت للاستعلامات المجانية). أقسم لك بشرفي أنني لا أتحصل على مليم واحد من أحد عملائي.

تنفس بيشو الصعداء، وقال:

- شكرًا لك على هذا الإيضاح. أنت تعلم أن ضميري المهني لا يسمح لي بالتعاون مع أطراف خارجية إلا بشروط معينة؛ لذلك أردت أن أتأكد من نزاهة وكالتك، لكن أرجو أن تعذرني في تطفلي.. ما مصادر التمويل التي تعتمد عليها وكالتك إذا كنت تعمل بالمجان حقًّا؟

- هناك الكثير من الرجال الخيرين الذين يقومون بتمويلي ودعمي ماديًّا، لكنهم يفضلون عدم الإفصاح عن هويتهم.

لم يُصِر بيشو عليه في السؤال، فتابع بارنيت حديثه:

- وماذا عن القضية التي أتت بك إلى هنا؟

- في الحقيقة، وقع حادث مروع بالقرب من مدينة مارلي، والقتيل رجل اسمه ڤوشريل.. هل سمعت شيئًا عن هذه القضية؟

- لا أتذكر الكثير عنها.

- هذا ما توقعته، فالصحف لا تولي اهتمامًا كافيًا بهذه القضية، رغم الغموض الذي يحيط بملابساتها.

- الجريمة تمت بطعنة سكين على ما أتذكر، أليس كذلك؟

- بلى، تلقى القتيل طعنة بين كتفَيه.

- هل تم رفع أي بصمات من على السكين؟

- لا، لقد تم تغليف مقبض السكين بورق، ووُجِد هذا الورق محترقًا.

- أليس هناك أي أدلة من أي نوع؟

- لا شيء على الإطلاق.. لا شيء سوى الفوضى، وُجِد الأثاث مقلوبًا رأسًا على عقب، وتم خلع أحد أدراج الطاولات من مكانه، لكننا لم نعرف لماذا خُلِع؟ وماذا أخذ القاتل منه؟

- وإلى أين وصلت التحقيقات؟

- حتى هذه اللحظة، تقوم الشرطة بمقارنة أقوال السيد ليبوك، وهو موظف متقاعد، بأقوال ثلاثة أقارب من آل جودو، وهم من أحقر الشخصيات التي يمكن أن تقابلهم، فهم لصوص قدامى. كل طرف يتهم الآخر دون أدنى دليل على كلامه. ألا تريد أن نستقل الحافلة الآن لحضور الاستجواب؟ أظن أنه من الأفضل أن نحضر الاستجواب على أرض الواقع. ما رأيك؟

- حسنًا، هيا بنا.

- نسيت أن أقول لك يا بارنيت، إن السيد فورميري، هو مَن يتولى التحقيق في هذه القضية، ويتمنى أن يغلق الملف بنفسه، وأن يذيع صيته؛ حتى يتمكن من اقتناص منصب جديد في باريس. وهو قاضٍ دقيق وصارم، لن يتقبل منك أي دعابات أو أي استخفاف بعمل رجال القضاء.

- حسنًا، مفهوم.. أعدك أنني سأُظهِر له كل الاحترام الذي يليق بشخص في مركزه.

في منتصف الطريق، بين بلدة فونتين، وغابة مارلي، كان هناك بيت متوسط الارتفاع، مكون من طابق واحد فقط، وملحق به بستان صغير، تحيط به أكوام من جذوع الأشجار المتراصة. ڤوشريل القتيل الذي كان يمتلك متجرًا لبيع الكتب، كان يسكن هذا (الكوخ) قبل ثمانية أيام، ولم يكن يغادر منزله الصغير المحفوف ببستان الورد والخضراوات، إلا للبحث عن بعض الكتب على أرصفة ضفاف السين بباريس. ذاع عنه أنه رجل ثري رغم شدة بخله، ورغم أنه كان يعيش حياة متواضعة للغاية، لم يكن يستقبل أحدًا في منزله قط، سوى صديقه السيد ليبوك، الذي كان يقيم في بلدة فونتين.

عندما نزل بارنيت وبيشو من الحافلة، كان استجواب السيد ليبوك قد انتهى، وكانت تتم إعادة تمثيل الجريمة، بينما يتجول القضاة في الحديقة. قدَّم السيد بيشو نفسه للضباط الذين كانوا يحرسون باب الكوخ، فسمحوا له بالدلوف، ولحقه بارنيت، وانضما إلى قاضي التحقيقات ووكيل النيابة اللذين توقفا عند إحدى زوايا جدران المنزل.

بدأ استجواب أبناء العم جودو الثلاث.. كانوا مأجورين عند مزارع الملاك باليومية، ولم يجمع بينهم أي قاسم مشترك، سوى ملامحهم الفظة الماكرة التي ترتسم على وجوههم المتباينة. قال أكبرهم لقاضي التحقيقات:

- نعم سيدي القاضي، لقد وثبنا إلى هنا لنجدة القتيل.

- كنتم قادمين من فونتين؟

- نعم سيدي، من فونتين.. كنا عائدين من العمل، وكنا نتحدث مع الأم دنيز، على مقربة من الكوخ، عندما تعالت صرخات القتيل. عرفنا أن هناك مَن يستغيث بنا، وأن الصوت قادم من الكوخ، وأنه صوت السيد ڤوشريل الذي لا يمكن أن يلتبس علينا.. ركضنا ووثبنا من فوق السور رغم قطع الزجاج المتناثرة فوقه، وعبرنا الحديقة..

- أين كنتم بالتحديد عندما انفتح باب البيت؟

قال أكبرهم وهو يقود رجال التحقيق إلى مساحة منبسطة من الأرض:

- كنا هنا يا سيدي.

أشار قاضي التحقيقات إلى الدرجتين اللتين كانتا تقودان إلى البهو، وقال:

- إذا كنتم على بعد 15 مترًا من البهو، فقد تمكنتم من موقعكم هذا من رؤية...

- تمكنا من رؤية السيد ليبوك شخصيًّا.. رأيته بعينَي الاثنتين؛ كما أراك الآن يا سيدي.. كان يسارع في الخروج، كما لو كان يحاول الفرار من شيء ما، لكنه عندما رآنا عاد أدراجه.

- هل أنت متأكد أن مَن رأيته هو السيد ليبوك؟

- بلا أدنى شك!

سأل القاضي الشابين الآخرين، فأكدا له الشيء ذاته.

فقال لهم:

- ألا يمكن أن يكون قد اختلط عليكم الأمر؟

رد عليه أكبرهم قائلًا:

- لا يمكن، إن السيد ڤوشريل يقيم هنا بجوارنا في فونتين منذ خمسة أعوام، حتى إنني كنت أجلب له الحليب أحيانًا.

أمر القاضي بفتح باب البهو؛ لاستكمال تمثيل الجريمة، فأقبل من الداخل رجل في عقده السابع، يرتدي ثوبًا من الكتان وقبعة من القش، وجهه باسم ومتورد.. قال أبناء العم الثلاثة في آنٍ واحد:

- إنه السيد ليبوك.

قال وكيل النيابة:

- من الواضح أنه لا يمكن أن يحدث أي لبس من هذه المسافة، وأن هؤلاء الأقارب الثلاثة لم يختلط عليهم الأمر، وأنهم رأوا السيد ليبوك الهارب، أو القاتل بمعنى أصح.

رد عليه القاضي:

- نعم، بكل تأكيد، لكن تُرَى هل هم صادقون فعلًا؟ هل رأوا السيد ليبوك حقًّا أو خُيِّل لهم ذلك؟ دعنا نتابع التحقيقات سيدي.

دلف الجميع إلى المنزل وانتقلوا إلى قاعة فسيحة، بدت جدرانها كأنها مكسوة بالكتب، ولم يكن بها غير بضع قطع من الأثاث، والمنضدة الكبيرة التي كانت قد كُسِر أحد جوانبها، ولوحة بالحجم الطبيعي، دون إطار، فيها صورة ڤوشريل، القتيل نفسه. كان الرسم رديئًا للغاية، فبدت اللوحة كما لو كانت صُنِعت بأيدي رسام مغمور. وعلى الأرض رسمٌ بالطبشور لجثة القتيل، بالحجم الطبيعي.

عاد القاضي ليقول:

- جودو، ألم ترَ السيد ليبوك من جديد عندما دلفت إلى المنزل؟

- كلا، لكننا سمعنا أنينًا ينبعث من هنا، فأسرعنا على الفور.

- كان السيد ڤوشريل على قيد الحياة..

- كان في حالة مزرية بالطبع.. راقدًا على صدره ومطعونًا بالسكين بين كتفَيه.. جثونا بجواره وكان المسكين يهمهم ببعض الكلمات..

- هل تبينتم ما قال؟

- لم ينبس إلا بكلمة واحدة، أخذ يرددها أكثر من مرة.. قال: «ليبوك»، ثم مات وهو يتلوى.. ركضنا حينها في كل اتجاه، لكننا لم نعثر للسيد ليبوك على أثر قط، ولا شك أنه هرب من نافذة المطبخ، فقد وجدناها مفتوحة، ولا شك أنه سلك بعد ذلك الطريق الضيق الذي يكسوه الحصى حتى وصل إلى بيته. فتوجهنا حينها نحن الثلاث إلى قسم الشرطة وروينا ما حدث.

طرح القاضي عليهم بضعة أسئلة أخرى وأشار من جديد إلى فحوى التهمة التي يوجهها أبناء العم الثلاثة إلى ليبوك، ثم نظر إلى هذا الأخير.

كان السيد ليبوك يصغي إليهم دون أن يقاطعهم، ودون أن يعتريه أي قلق، بل على العكس، بدت له أقوال أبناء العم جودو عارية من الصحة، فلم يُعِرها أي اهتمام، وظن أنها لم تؤثر على رجال العدالة أيضًا، فلا يمكن أن يتفاعل أحد مع مثل هذه الادعاءات الباطلة.

سأله القاضي:

- أليس لديك ما تقوله يا سيد ليبوك؟

- ليس لديَّ ما أضيفه.

- أما زلت مصممًا على موقفك؟

- نعم، ما زلت مصممًا على الحقيقة التي تعرفونها مثلي يا سيدي القاضي، وهي أن أهل بلدة فونتين الذين استجوبتموهم أجمعوا على أنني «لا أبرح بيتي في أثناء النهار أبدًا». فوقت الظهيرة يجلب لي أهل البلدة الطعام من الحانة، ومن الواحدة ظهرًا حتى الرابعة عصرًا أقضي وقتي في القراءة أمام نافذتي، مدخنًا غليونًا. وفي الحقيقة كان الجو جميلًا في هذا اليوم وكانت نافذتي مفتوحة، وقد رآني خمسة أشخاص.. رآني خمسة أشخاص يا سيدي، كما يرونني كل يوم عبر سور حديقتي.

- لقد استدعيتهم بالفعل لاستجوابهم رسميًّا مساء اليوم.

- حسنًا، سيؤكدون أقوالهم التي سبق وأن أدلوا بها، فمن غير المعقول أن أكون في بيتي وفي الكوخ في آنٍ واحد. وسوف تتأكد بنفسك -يا سيدي- أنهم لم يرونني وأنا أخرج من الكوخ قط، وأن صديقي ڤوشريل لا يمكن أن يكون قد

نطق باسمي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأن أبناء العم جودو أوغاد.

- هل تُوجِّه إليهم تهمة القتل؟

- هذا مجرد افتراض..

- وما قولك في أن الأم دنيز، وهي امرأة مسنة تجمع الحطب، تقول إنها كانت تتحدث مع أبناء العم الثلاثة في اللحظة التي ارتُكِبت فيها الجريمة وعلت فيها صرخات القتيل.

- لا يا سيدي، إنها كانت تتحدث مع اثنين منهم فقط، فأين كان الثالث؟

رد القاضي:

- كان متأخرًا عنهم قليلًا..

سأله ليبوك:

- وهل رأته هي بعينيها؟

- إنها ليست متأكدة، لكنها تظن ذلك.

- وما أدرانا أن ابن العم الثالث كان خلفهم فعلًا، وأنه لم يكن هنا يرتكب جريمته الشنيعة؟ وما أدرانا أن الاثنين الآخرين وثبا من فوق السور لنجدة القتيل حقًّا، وليس لكتم صوته والإجهاز عليه؟

- وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي يدفعهم لاتهامك أنت خاصةً دون غيرك؟

- إنني أملك أرضًا صغيرة للصيد وأبناء آل جودو لصوص صيد محترفون، وقد أُلقِي القبض عليهم مرتين في حالة تلبُّس.. واليوم ينتقمون مني بتوجيه التهمة لي؛ حتى لا تُنسَب إليهم هذه الجريمة.

- هذا افتراض قد يشرح الدافع وراء اتهامهم لك أنت بالتحديد، لكن ما الذي قد يدفعهم لقتل السيد ڤوشريل؟

- لا أدري.

- هل تعرف ما الذي سُرِق من الدرج؟

- كلا يا سيدي القاضي، إن صديقي ڤوشريل لم يكن ثريًّا كما يُقال عنه، وكان قد أودع مدخراته في أحد المصارف، ولم يكن يحتفظ بشيء في بيته.

- ألم يكن يحتفظ بأي شيء ثمين؟

- كلا.

- وماذا عن كتبه ومجلداته؟

- ليست لها أي قيمة على الإطلاق، وسوف تتأكد من ذلك بنفسك، وقد أسف

ڤوشريل على ذلك كثيرًا، وود لو امتلك أي كتب نادرة أو أي مجلدات قديمة، لكن -للأسف- لم تسمح حالته المادية بذلك.

- ألم يحدثك عن أبناء آل جودو قط؟

- أبدًا.. ورغم رغبتي العارمة في الثأر لصديقي المسكين، فإنني لا أريد أن أتفوه بأي شيء قد يبعدنا عن الحقيقة.

استمر الاستجواب، وقام قاضي التحقيقات بتضييق الخناق على أولاد العم جودو دون جدوى. وبعد أن توصل رجال التحقيق إلى بعض المعلومات الثانوية، انتقلوا إلى بلدة فونتين.

كان بيت السيد ليبوك يقع في أطراف المدينة، مهمشًا كالكوخ تمامًا، وكانت الحديقة محاطة بسور مرتفع، والباب العمومي مكونًا من قضبان حديدية تكشف عما وراءها، وتكشف عن بيت من طوب مطلي باللون الأبيض بُنِي على بقعة أرض مستديرة، بينه وبين الباب العمومي ما يقرب من خمسة عشر مترًا، تمامًا كالكوخ الذي سكن فيه السيد ڤوشريل.

طلب القاضي من السيد ليبوك أن يجلس في نفس المكان الذي كان يجلس فيه يوم الجريمة، فجلس أمام نافذته ووضع كتابًا فوق ركبتيه، ووضع غليونه بين شفتيه. لم يكن هناك مجال للخطأ، فأي عابر يمر أمام الباب ويلقي نظرة باتجاه بيت السيد ليبوك، كان سيرى ليبوك بكل وضوح. أكد الفلاحون الخمسة أقوالهم بخصوص رؤيتهم للسيد ليبوك في عصر ذلك اليوم، وأصبحت معلومة وجود السيد ليبوك في بيته بين الواحدة ظهرًا والرابعة عصرًا، معلومة قاطعة لا ريب فيها، تمامًا كوجوده بشخصه أمام قاضي التحقيقات في تلك اللحظة.

لم يُخفِ رجال الشرطة تحيُّرهم عن قاضي التحقيقات ووكيل النيابة، وانتهز بيشو الفرصة وقدَّم لوكيل النيابة صديقه بارنيت على أنه مخبر سري على قدر كبير من الذكاء والفطنة. فنظر القاضي إليه مليًّا، ثم قال:

- هذه قضية معقدة سيدي، ما رأيك فيها؟

قال بيشو وهو يشير لبارنيت بإيماءة صغيرة ليُذكِّره بأن يحافظ على لباقته:

- نعم، ما رأيك يا بارنيت؟

وجد جيم بارنيت نفسه متورطًا في التحقيقات دون أن ينبس ببنت شفة.

سأله بيشو عن رأيه أكثر من مرة، لكنه كان يكتفي بهز رأسه، وكان يتمتم ببضع كلمات غير واضحة، ثم أجاب أخيرًا في هدوء:

- إنها قضية معقدة جدًّا يا سيدي القاضي.

- نعم، ألا توافقني الرأي؟ والواقع أن موقف كل طرف في هذه القضية متساوٍ؛ فلدينا من ناحية دليل قاطع على أن السيد ليبوك لم يبرح بيته في عصر ذلك اليوم، ولدينا من ناحية أخرى رواية من أبناء العم الثلاثة لا تشوبها شائبة.

- نعم، أقوالهم تبدو منطقية، لكن لا بد وأن هناك ثغرة في رواية أحد الطرفين، لكننا لم نتبين مكانها بعد. فسواء كان الجاني هو السيد ليبوك، أو أبناء العم الثلاثة، فهناك حتمًا ثغرة أو خلل في إحدى الروايتين. فإذا كان أبناء العم الثلاثة، اللصوص الأشرار ذوو الوجوه الشرسة والملامح الضارية، هم الأبرياء، ففي هذه الحالة سيكون الجاني هو السيد ليبوك البشوش، ذو الوجه الهادئ المتورد. أما إذا سلمنا بأن ملامح المتهمين تنم حقًّا عن طبيعتهم وعن شخصيتهم، ففي هذه الحالة ستكون البراءة من نصيب السيد ليبوك البشوش، وسيكون أبناء آل جودو، اللصوص، هم الجناة.

قال القاضي فورميري في ارتياح:

- أفهم من تحليلك أنك لم تتوصل إلى نتائج قاطعة بعد، أليس كذلك؟

قال بارنيت بثقة:

- بلى، في الحقيقة أملك معلومات إضافية.

استشاط القاضي غضبًا وعض على شفتَيه، وقال له:

- ولم لا تطلعنا على ما توصلت إليه؟

- سأخبرك بكل شيء في الوقت المناسب، لكن دعني أطلب منك يا سيدي القاضي أن تستدعي شاهدًا جديدًا اليوم من فضلك.

- شاهد جديد؟

- نعم.

سأله في حيرة شديدة:

- وما اسمه؟ وما عنوانه؟

- لا أعرف.

سأله في دهشة:

- ماذا تقول؟!

ارتبك السيد فورميري وظن أن هذا المخبر السري الخارق يسخر منه، أما بيشو فقد ساوره القلق من تصرفات بارنيت، لكن سرعان ما انحنى جيم بارنيت نحو القاضي فورميري، وأشار بإصبعه إلى السيد ليبوك الذي كان واقفًا على بعد عشر خطوات يدخن غليونه في هدوء، فأسر بارنيت للقاضي قائلًا:

- في الجيب السري بحافظة نقود السيد ليبوك هناك بطاقة عمل، بها أربعة ثقوب وعليها اسم الشاهد وعنوانه.

أسرع المفتش بيشو للحصول على محفظة السيد ليبوك، دون أدنى مبرر، وفتحها، فأخرج منها بطاقة بها أربعة ثقوب متباعدة، وتحمل هذا الاسم

«الآنسة إليزابيث لوڤيندال» وعنوانًا مكتوبًا بالقلم الأزرق «فندق ڤيندوم بباريس».

نظر قاضي التحقيق ووكيل النيابة إلى بارنيت في دهشة وتعجب، وتوهج وجه بيشو، في حين صاح ليبوك، دون أن يبدو عليه أدنى توتر:

- يا إلهي! لكم بحثت أنا وصديقي المسكين ڤوشريل عن هذه البطاقة!

- ولماذا كان يبحث عنها؟

- لا أدري يا سيدي القاضي، لعله كان بحاجة للعنوان المدون عليها.

- وهذه الثقوب الأربعة، ما معناها؟

- ذات مرة كنا نلعب دورًا من ألعاب الورق، واضطررنا لقطع الدور في منتصفه، وكنت أنا الرابح.. فثقبت البطاقة بهذه الثقوب الأربعة؛ لكي أتذكر النقاط الأربع التي حققتها عندما نستكمل اللعب، ولا بد أنني احتفظت بهذه البطاقة سهوًا في محفظتي.

بدا تفسير الرجل معقولًا ومنطقيًّا تمامًا للسيد فورميري، ولكن بقي هناك تساؤل وحيد يشغل له ذهنه، وهو كيف استطاع جيم باريت أن يعرف بوجود هذه البطاقة في الجيب السري بحافظة نقود رجل لم يرَه من قبل؟! لم يوضح بارنيت هذه النقطة أبدًا، وإنما تبسم بلطف، ثم طلب استدعاء إليزابيث لوڤيندال، وهو الطلب الذي استجابت له السلطات على الفور.

لم تكن الآنسة لوڤيندال موجودة في باريس، وللأسف لم تأتِ إلا بعد ثمانية أيام، ولم يتطور التحقيق خلال ذلك الأسبوع مطلقًا، رغم أن السيد فورميري تابع تحقيقاته بإصرار وعزيمة؛ حتى لا يضطر للاستعانة بجيم بارنيت من جديد.

التقى بيشو بجيم بارنيت، وقال له:

- لقد أثرت سخط السيد فورميري، في ذلك اليوم الذي اجتمعنا فيه في الكوخ، وأظن أنه قرر أن يستغني عن خدماتك.

رد عليه بارنيت:

- هل عليَّ أن أنسحب من هذه القضية؟

- كلا، هناك جديد.

- ماذا تقصد؟

- أعتقد أنه حسم أمره بشأن المتهمين.

- يا لهِ من خبر جيد! أظنه سيتخذ القرار الخاطئ بلا شك، كم سيكون ذلك مضحكًا!

- أرجوك يا بارنيت حافِظْ على لباقتك.

- سأحافظ على لباقتي وعلى نزاهتي أيضًا.. أعدك بذلك يا بيشو، إن وكالة بارنيت تعمل بالمجان، ولن أقبل أن تتشوه سمعة وكالتي، لكن صديقك السيد فورميري يثير أعصابي.

بعد مرور ثمانية أيام، حضر السيد ليبوك إلى وكالة بارنيت.. انتظر نصف ساعة حتى هبطت الآنسة لوڤيندال من السيارة، ثم أقبل السيد فورميري وهو مفعم بالنشاط والحماس، وهتف على الفور قائلًا:

- صباح الخير يا سيد بارنيت، هل لديك أنباء جديدة؟

- ربما يا سيدي القاضي.

- حسنًا، وأنا أيضًا لديَّ أنباء جديدة، ولكن يجب أن نفرغ أولًا من استجواب شاهدتك وفي أسرع وقت ممكن؛ لأنها في كل الأحوال لن تضيف لنا جديدًا، وكل هذا مضيعة للوقت.

كانت إليزابيث لوڤيندال فتاة متقدمة في السن، كسى الشيب شعرها، وتدل ثيابها على أنها لا تعبأ بمظهرها كثيرًا.. تتكلم الفرنسية كما لو كانت فرنسية المولد والنشأة، وتتحدث بفصاحة وبطلاقة شديدة تجعل من الصعب على المتلقي فهمها. فما إن دخلت حتى قالت دون أي مقدمات:

- مسكين السيد ڤوشريل.. قُتِل.. كان رجلًا طيبًا وغريب الأطوار. تريد أن تعرف إذا كنت أعرفه.. في الحقيقة لا أعرفه بشكل كافٍ. التقيت به مرة واحدة فقط. كنت قد أتيت لأعقد معه صفقة، وأردت أن أشتري منه شيئًا لكننا لم نتفق على السعر؛ فوعدته أنني سأعود إليه بردٍّ، بعد استشارة إخوتي، وهم أناس معروفون وأصحاب متاجر بقالة مشهورة في لندن.

حاول السيد فورميري أن يوقف هذا السيل الجارف من الحديث، فقاطعها بسؤاله:

- وما الذي كنتِ تريدين شراءه من السيد ڤوشريل يا آنسة؟

- كنت أريد أن أشتري منه ورقة صغيرة جدًّا، وقديمة وبالية، حتى إنها تبدو كورقة من أوراق البصل.

- وهل لهذه الرسالة أي قيمة؟

- نعم، لها قيمة كبيرة بالنسبة لي، وهذا هو الخطأ الذي وقعت فيه، وأنا نادمة على أنني أخبرته بذلك. فقد قلت له: «لك أن تعلم يا سيد ڤوشريل أن الملك جورج الرابع عشق أم جدتي دوروثي الجميلة)، وأنها احتفظت بالرسائل الغرامية التي تلقتها منه في ثمانية عشر مجلدًا من مجلدات مطبعة ريتشاردسون الإنجليزية.. احتفظت برسالة في كل مجلد. وعندما وافتها المنية، وجدت عائلتنا المجلدات فيما عدا المجلد الرابع عشر الذي اختفى

واختفت معه الرسالة الرابعة عشرة، وهي أكثر الرسائل أهمية؛ لأنها تثبت أن دوروثي الجميلة كانت على علاقة بالملك جورج، قبل مولد ابنها الأكبر بتسعة أشهر؛ لذلك سنكون في غاية السعادة إذا عثرنا على هذه الرسالة، فهذه الرسالة ستثبت أننا من سلالة الملك جورج ابن عم الملك الحالي، وستمنحنا المجد والألقاب الملكية».

تنهدت إليزابيث لوڤينداال، واستطردت في سرد محاولاتها مع السيد ڤوشريل، فتابعت:

- وقلت له: «بعد ثلاثين عامًا من البحث المستمر، علمنا أنه تم بيع بعض الكتب في مزادات عالمية، من بينها المجلد الرابع عشر من مجلدات مطبعة ريتشاردسون، وأسرعت حينها بالتوجه إلى المشتري، وهو صاحب دكان كتب على رصيف فولتير بباريس، فأرشدني إليك؛ لأنه باع لك المجلد أمس».

فقال لي السيد ڤوشريل المسكين: «هذا صحيح». وأراني الكتاب.

فقلت له:

- ستجد الرسالة الرابعة عشرة تحت الغلاف.

فحص الكتاب؛ فشحب وجهه، وقال:

- كم تدفعين مقابل هذه الرسالة؟

أدركت حينها أنني كنت حمقاء، فلو لم أنوه عن هذه الرسالة، لاستطعت الحصول على الكتاب مقابل خمسين فرنك فقط.. حينها عرضت عليه ألف فرنك، فراح يرتجف من فرط السعادة، ثم طلب مني عشرة آلاف (فرنك)، فقبلت ولكنه فقد عقله، وفقدت عقلي أنا الأخرى كما يحدث في المزادات. طلب مني عشرين ألفًا، ثم ثلاثين ألفًا، وأخيرًا طلب مني خمسين ألفًا. صاح يقول في جنون، وقد جحظت عيناه «أريد خمسين ألف فرنك لا ينقصون سنتيمًا واحدًا.. أريد أن أشتري كل الكتب التي أحتاج إليها.. لن أتنازل عن الخمسين ألف فرنك».

لقد أراد أن أحرر له شيكًا ليحصل على دفعة تحت الحساب على الفور، فوعدته أن أعود إليه بعد استشارة إخوتي. فألقى بالكتاب في درج المكتب وأغلقه بالمفتاح، وتركني وانصرف.

أتمت إليزابيث لوڤينداال قصتها، ولم يعبأ أحد بالتفاصيل التي روتها، ولكن هناك شيء لفت انتباه جيم بارنيت والمفتش بيشو، وهو أن القاضي فورميري ابتهج ابتهاجًا شديدًا وانفرجت أساريره من فرط السعادة، وهمس أخيرًا بعجرفة شديدة وبصوت خافت:

- أفهم من ذلك يا آنستي، أنكِ تبحثين عن المجلد الرابع عشر؟

صاحت السيدة الإنجليزية في حماس كبير:

- نعم.

- وها هو.

- أيُعقَل؟

- نعم سيدتي، إليكِ الكتاب.. ولكن رسالة الملك جورج الغرامية ليست داخله وإلا لوجدتها هي الأخرى، ولكني سوف أعثر عليها كما عثرت على الكتاب الذي تبحثون عنه منذ مئة عام، وبالطبع سارق الكتاب هو نفسه سارق الرسالة.

وراح السيد فورميري يتحرك جيئةً وذهابًا وهو يتباهى بانتصاره المدوي، وفجأة دق بأصابعه على المكتب برفق، ثم قال:

- لقد عرفنا أخيرًا الدافع وراء هذه الجريمة. هناك مَن كان يتلصص على حديث الآنسة لوڤيندال والسيد ڤوشريل، ورآه وهو يضع الكتاب في الدرج. وبعد بضعة أيام ارتكب ذلك الرجل الجريمة للحصول على الكتاب؛ لكي يبيع فيما بعد الرسالة رقم 14. فمَن كان ذلك الرجل؟ هذا هو السؤال.

إليكم الأمر، لقد كان واحدًا من أبناء العم جودو؛ كما خمنت منذ اللحظة الأولى.. وفي أثناء تفتيشي لبيتهم أمس لاحظت وجود فجوة بين أحجار المدفئة، فقمت بتوسيعها ووجدت كتابًا من الواضح أنه أحد كتب ڤوشريل. والمعلومات التي قدمتها لنا لوڤيندال، والتي لم نكن نتوقعها إطلاقًا، تؤكد شكوكي.

سأصدر الآن أمرًا بالقبض على أبناء العم الثلاثة بتهمة قتل السيد ڤوشريل وسرقته وتوجيه اتهام باطل للسيد ليبوك.

مد فورميري يده إلى السيد ليبوك في زهو وفخر، فشكره هذا الأخير بحرارة، ثم اصطحب الآنسة لوڤيندال إلى سيارتها بلطف، ثم عاد بعد ذلك إلى بيشو وبارنيت، وصاح يقول:

- أظن أن هذه القضية ستثير ضجة كبيرة، وستتيح لي، أنا السيد فورميري الطموح، الانتقال إلى باريس.

توجه الرجال نحو بيت أبناء العم جودو؛ حيث أصدر القاضي أمره بإلقاء القبض عليهم. كان الجو صحوًا، وراح السيد فورميري يتقدم الجمع، ويحيط به كل من السيد بيشو، وبارنيت، وليبوك.. وقد أطلق فورميري العنان لابتهاجه وزهوه، وقال في صوت ساخر:

- أرأيت يا عزيزي بارنيت؟ صارت القضية على أفضل نحو، وبطريقة مخالفة لكل توقعاتك؛ لأنك -والحق يُقال- كنت من الحزب المعادي للسيد ليبوك.

قال بارنيت:

- أعترف يا سيدي القاضي أن بطاقة العمل اللعينة قد ضللتني بعض الشيء. فلك أن تتخيل أنها كانت ملقاة فوق أرضية غرفة ڤوشريل، وأن السيد ليبوك

اقترب من موقعها وتعمد أن يضع قدمه اليمنى عليها بخفة، وعندما انصرف، التصقت هذه البطاقة بحذائه، فانتزعها في الخارج ووضعها في محفظته. وبعد أن انصرف، لاحظت أن كعب حذائه ترك على الأرض أثر أربعة ثقوب متباعدة. أظن أن السيد ليبوك عرف أنه نسي تلك البطاقة على الأرض ولم يُرد أن نعرف شيئًا لا عن اسم الآنسة لوڤيندال ولا عن عنوانها، فبفضل هذه البطاقة...

انفجر السيد فورميري ضاحكًا، وقاطعه قائلًا:

- هذا تحليل صبياني يا عزيزي، أنت تختلق ملابسات لا جدوى منها على الإطلاق.. كيف لمخبر مثلك أن يضل في تحقيقه هكذا؟ إن أول وأهم مبدأ أعتمد عليه في عملي يا بارنيت هو تجنُّب الاحتمالات والاكتفاء بالحقائق الثابتة التي أجدها جليةً أمامي، دون أن أحاول مواءمتها على الأفكار المسبقة التي تدور في ذهني.

كان الرجال يقتربون من بيت السيد ليبوك، في طريقهم إلى بيت أبناء العم جودو، فأمسك السيد فورميري بذراع السيد بارنيت، واستطرد في حديثه الودي عن إستراتيجياته وحيله البوليسية:

- إن خطأك الوحيد يا بارنيت هو أنك لم تُسلِّم بتلك الحقيقة البسيطة، وهي عدم إمكانية وجود نفس الشخص في مكانين مختلفين في الوقت نفسه.. الحقيقة كلها هنا.. لا يمكن للسيد ليبوك وهو جالس يدخن غليونه أمام نافذته أن يذهب في الوقت نفسه لقتل السيد ڤوشريل في بيته.. انظر وراءك، ستجد أن السيد ليبوك يسير خلفنا أليس كذلك؟ وها هو الباب الحديدي العمومي لبيته على بعد عشرة أمتار منا.. من المستحيل أن يكون السيد ليبوك خلفنا الآن وأن يكون في الوقت نفسه جالسًا أمام نافذته!

وفجأة توقف السيد فورميري مشدوهًا وشهق، فسأله بيشو:

- ما الخبر؟

أشار فورميري بيده إلى البيت، وقال:

- هناك، انظر هناك.

لقد رأى من خلال القضبان الحديدية لباب منزل ليبوك، على بعد عشرين مترًا، السيد ليبوك جالسًا على مقعده خلف نافذته يدخن غليونه، رغم أنه كان في الوقت نفسه واقفًا معهم على الرصيف.

يا له من مشهد مخيف يثير الفزع! يا له من شبح مخيف وتشابُه غريب! تُرَى مَن ذلك الرجل الذي يجلس هناك وراء النافذة؟ ومَن هذا الرجل الذي يمسك السيد فورميري بذراعه؟

دفع بيشو باب المنزل الحديدي، وراح يركض.. وانطلق السيد فورميري هو الآخر نحو هذه الصورة الشيطانية للسيد ليبوك، وهو يناديه ويهدده، لكن السيد

ليبوك الجالس وراء النافذة لم يحرك ساكنًا.. اقترب رجال التحقيق أكثر فأكثر، وتبينوا أن هذا الرجل ما هو إلا صورة مرسومة على لوح قماشي معلق خلف النافذة.. كانت اللوحة معلقة في إطار النافذة، رُسِم عليها السيد ليبوك وهو جالس يقرأ ويدخن غليونه، بالحجم الطبيعي.. تمامًا كلوحة السيد ڤوشريل التي وُجِدت في منزله.

استدار السيد فورميري، وكان السيد ليبوك البشوش متورد الوجنتين يقف خلفه، ولم يستطِع الصمود أمام هذه الضربة المفاجئة؛ فانهار أمام هذه الضربة التي قسمت له ظهره..

راح يبكي ويعترف بغباء شديد:

- فقدت عقلي وهويت عليه بالسكين دون وعي.. أردت أن أتقاسم معه المبلغ، ولكنه رفض، وعندئذٍ فقدت عقلي، وطعنته على غير إرادتي.

سكت ليبوك، وخلال لحظات الصمت التي اكتنفت ذلك المشهد، علا صوت جيم بارنيت حادًّا وساخرًا وقاسيًا:

- ما رأيك أنت الآن يا سيدي القاضي؟ يا له من رجل أبله! لقد أعد خطته بكل مهارة؛ فاستطاع أن يثبت للجميع أنه كان بعيدًا عن مسرح الجريمة. لم يكن ممكنًا أن يشك أحد فيه والجميع يشهد أنهم رأوه في منزله.. كيف لأحد أن يشك أنه لم يكن هو وإنما كانت صورة له بالحجم الطبيعي؟ إنني ارتبت في أمره منذ أول يوم، عندما رأيت لوحة ڤوشريل الرديئة.. قلت لنفسي: «أفلا يمكن أن يكون الرسام نفسه قد رسم صورة للسيد ليبوك هو الآخر؟».. لقد بحثت ولم يطل بحثي؛ لأن ليبوك كان واثقًا أننا أغبى من أن نهتدي للحقيقة، فلم يأخذ احتياطاته كافة.. وجدت الصورة ملفوفة في المخزن، وملقاة تحت أكوام من الأدوات المهملة. أسرعت بتعليقها أمام النافذة منذ قليل، بينما كان يمضي هو إلى لقائك يا سيدي القاضي.. هكذا أثبت هذا الرجل أنه يمكن أن يكون في مكانين في آنٍ واحد، في الكوخ وفي بيته أمام نافذته.

كان جيم بارنيت عنيفًا وصوته الحاد يثير حنق المسكين فورميري.. فتابع قائلًا:

- ماذا ارتكب في حياته من حماقات حتى يضعه القدر في طريقي؟! يا له من رجل محتال! سحب بطاقة العمل التي دوَّن عليها عنوان الآنسة لوڤيندال بحذائه، ثم دس الكتاب في مكتبة آل جودو.. لسوء حظه كنت أتعقبه عن كثب، وأظنه قد أرسل لك خطابًا دون توقيع يا سيد فورميري، قمت على إثره بتفتيش بيت آل جودو. لقد أضحكتني كثيرًا بوجهك البشوش البريء هذا يا ليبوك.. اللعنة عليك يا رجل!

بُهِت السيد فورميري، وحاول أن يتمالك نفسه، ونظر إلى ليبوك مليًّا، ثم قال أخَيرًا:

- لا يدهشني كل ذلك من شخص مثلك أيها الوغد! تتظاهر أنك حمل وديع

وأنت ذئب وضيع..

استطرد يقول وقد استشاط غضبًا:

- نعم، سأدخلك الحبس أيها الوغد المحتال، لكن أعطِني الرسالة الرابعة عشرة أولًا!

تمتم ليبوك وهو لا يستطيع الإفلات منهم:

- الرسالة موجودة في جوف الغليون المعلق على الحائط، بالغرفة الواقعة على اليسار. لم أُفرِغ الغليون من الرماد، والرسالة موجودة داخله.

أسرع الرجال بالدلوف إلى الغرفة، ووجد بيشو الغليون، وأفرغ الرماد منه، ولكنه لم يجد أي شيء داخله.. لم تكن هناك أي رسالة، وهو ما أثار دهشة السيد ليبوك وضاعف من غضب السيد فورميري الذي صاح:

- كذاب! محتال! نصاب وقاتل! سوف أجعلك تتكلم غدًا أيها الوغد، ولن أتركك حتى تعيد إليَّ هذه الرسالة.

في هذه اللحظة التقت عينا بيشو بعينَي بارنيت الذي تبسم على استحياء. قبض بيشو على يديه بعنف، وقد فهم الآن أن لمكتب بارنيت وشركاه طريقة خاصة للتعامل (مجانًا) مع العملاء، وعرف كيف يستطيع جيم بارنيت أن يحيا حياة مترفة، رغم أنه لا يطالب عملاءه بأي أتعاب نظير خدماته.

اقترب منه وهمس:

- إنك لبارع حقًّا وطريقتك هذه تُذكِّرني بطريقة أرسين لوبين..

- قال بارنيت في سذاجة:

- ماذا تقصد؟ أي طريقة؟

- أعني استيلاءك على الرسالة الرابعة عشرة خلسة.

- آه، هل تعتقد أني فعلت ذلك؟

- طبعًا.

- لا تخَف يا بيشو، إنني فقط أقوم بتجميع مخطوطات ملوك إنجلترا.

وبعد مرور ثلاثة أشهر على هذه الواقعة، استقبلت إليزابيث لوفيندال شابًّا وسيمًا ومهندمًا قال لها إنه يمكن أن يأتيها برسالة الملك جورج الرابع الغرامية، نظير مبلغ زهيد، مئة ألف فرنك.

كانت المفاوضات مضنية، واستشارت إليزابيث إخوتها، وهم أكبر تجار للبقالة في لندن، فماطلوا في البداية، ثم رفضوا، ثم وافقوا أخيرًا.

قبض بارنيت البارع المئة ألف فرنك، واستولى في الوقت نفسه على شاحنة

حافلة بأنواع البقالة كافة، لم يدرِ أحد كيف تمكّن من الاستيلاء عليها؟!

النادي النورماندي

عندما خرج چيم بارنيت من محطة القطار، كان المفتش بيشو في انتظاره.. جذبه من ذراعه وقال له:

- أسرِع، دعنا لا نضيع دقيقة واحدة، فقد يتفاقم الموقف في أي لحظة.

قال چيم بارنيت بتريث:

- المشكلة الحقيقية حتى الآن تكمن في أنك لم تخبرني بأي شيء على الإطلاق، لقد أتيت بناءً على البرقية التي أرسلتها لي، لكنك لم توضح فيها أي شيء.

قال المفتش:

- سأطلعك على كل شيء لاحقًا.

- ألم تعد تحذر مني يا بيشو؟

- بلى، ما زلت أتوخى حذري منك يا بارنيت، ومن أساليبك الملتوية في تسوية أمورك مع عملائك، ولكنك هذه المرة لن تحصل على شيء في كل الأحوال يا عزيزي، ولأول مرة ستعمل بالمجان حقًّا.

أخذ چيم بارنيت يصفر، وبدا أنه لم ينزعج من هذه الاحتمالية؛ فرمقه بيشو بنظرة متوجسة وقد اجتاحه القلق فجأة، فحدَّث نفسه قائلًا: «ليتني أستطيع الاستغناء عن خدماتك يا صديقي».

وصلا إلى الساحة، وكانت هناك سيارة تنتظرهما، فيها سيدة جالسة، كسى الحزن ملامحها، عيناها منتفخة، وشفتاها ترتجفان من فرط القلق. فتحت الباب على الفور وعرَّف بيشو نفسه، ثم قدَّم لها بارنيت، فقال:

- هذا هو چيم بارنيت الذي حدثتكِ عنه يا سيدتي، وهو الوحيد الذي يمكنه أن يساعدكِ.

ثم توجه لچيم بارنيت وعرَّفه إلى السيدة، فقال له:

- هذه هي السيدة فوجريه، زوجة المهندس فوجريه الذي يواجه تهمة قاسية.

- أي تهمة؟

- تهمة القتل.

همهم چيم بارنيت بكلام غير واضح وبشيء من التبلد، فقال بيشو باستياء شديد:

- أرجو أن تعذري صديقي بارنيت يا سيدتي، فكلما بدت له القضية خطيرة، تعامل على سجيته.

انطلق ثلاثتهم بالسيارة نحو أرصفة روين، ثم انعطفوا إلى اليسار وتوقفوا أمام بيت كبير، يضم الطابق الثالث منه النادي النورماندي.

قال بيشو:

- هنا يجتمع كبار التجار ورجال الصناعة بمدينة روين والمناطق المحيطة بها؛ لقراءة الجرائد ولعب البريدج أو البوكر، وبالأخص يوم الجمعة؛ لأنه آخر يوم عمل للبورصة. وبما أنه لا يوجد في هذه الساعة من الظهيرة سوى الخادمات، فدعني أروي لك المأساة التي وقعت في هدوء.

كان النادي النورماندي مكونًا من ثلاث قاعات كبيرة بطول الواجهة، مزودة بالأساس والسجاجيد الفاخرة، وكانت القاعة الثالثة تتصل بدورها بغرفة صغيرة، على هيئة قبة، تؤدي نافذتها الوحيدة إلى شرفة كبيرة تطل على أرصفة نهر السين.

فجلسا مع السيدة فوجريه على إحدى الطاولات، وقال بيشو:

- منذ بضعة أسابيع، في يوم جمعة بالتحديد، بعد أن تناول أربعة من أعضاء النادي العشاء، راحوا يلعبون القمار، وكانوا أربعة أصدقاء من كبار رجال صناعة النسيج بمدينة ماروم، وهي مركز صناعة الغزل والنسيج، وتقع على مقربة من روين..

ثلاثة منهم متزوجون ولديهم أولاد، وحاصلون على أوسمة من الدولة، وهم: ألفريد أوڤار، وراؤول دوبان، ولويس باتينيه. أما الرابع، فهو عزَب وهو أصغرهم سنًّا، ويُدعَى ماكسيم توليليه. ونحو منتصف الليل، انضم إليهم شاب آخر يُدعَى بول أرشتاين وهو شاب ثري ويعتمد على الإيراد الذي تدره عليه ثروته. كانت القاعة قد بدأت تخلو من روادها شيئًا فشيئًا، وبدأ الشباب الخمسة يلعبون لعبة الباكاراه. عُرِف بول أرشتاين بمهارته وبراعته في هذه اللعبة، فقام هو بتوزيع الورق.

أشار بيشو إلى إحدى النوافذ، وتابع:

- كانوا يلعبون هنا، على هذه المنضدة.. بدأ اللعب هادئًا وطبيعيًّا للغاية، لكنه سرعان ما اشتد واتخذ منحًى جديدًا، عندما أمر بول أرشتاين الخدم بإحضار زجاجتين من الشمبانيا. وبدءًا من هذه اللحظة بالتحديد، والاه الحظ بشكل مثير ومستفز. كان بول أرشتاين يوجه لهم الضربة تلو الأخرى بلا هوادة، فأخذ يربح في كل جولة، بينما يخسر الباقون، حتى ضاقوا به ذرعًا، فراحوا يضاعفون رهاناتهم دون جدوى. أسفرت هذه المواجهة الشرسة عن خسارة رجال الصناعة الأربعة خسارة فادحة، وسلبهم أرشتاين كل ما معهم بسبب هوسهم وتعنتهم. كانت الساعة الرابعة صباحًا، ففاض بهم الكيل لا سيما وأن أموالهم كانت مخصصة في الأساس لدفع أجور عمالهم. خرج ماكسيم توليليه من هذه اللعبة مدينًا لبول أرشتاين بمبلغ ثمانين ألف فرنك إضافية فوق

خسارته.

تنهد بيشو، ثم استأنف قصته وقال:

- وفجأة، وقع ما لم يكن في الحسبان؛ بسبب بول أرشتاين نفسه، وبسبب مجاملته ونزاهته المفرطة، فقد قسَّم إجمالي الأرباح التي تحصَّل عليها من اللاعبين الأربعة إلى أربعة أقسام متساوية، وقسَّم كل جزء منها إلى ثلاثة أقسام أخرى، بحيث يلعب كُلٌّ من اللاعبين الأربعة ثلاثة أدوار إضافية بهذه المبالغ التي أعادها لهم. وهنا انقلب السحر على الساحر، وخسر بول في هذه الأدوار الثلاثة كل ما كان قد ربحه منهم.. وبعد ليلة مشحونة بمنافسة ضارية، لم يعد هناك لا رابح ولا خاسر؛ لأن أرشتاين خسر كل ما ربحه، واسترد بقية اللاعبين ما كانوا قد خسروه. فنهض بول أرشتاين وهو يقول:

«هكذا أفضل يا أصدقائي، فرغم خسارتي وشعوري بالحرج؛ فإن هذا أسلم للجميع.. كانت لعبة مرهقة! أشعر بصداع شديد.. ألا يريد أحدكم أن يدخن سيجارًا معي في الشرفة؟».

مضى أرشتاين إلى الغرفة الصغيرة، وانقضى بضع دقائق، حيث ظل الأصدقاء الأربعة يسترجعون في مرح جولات اللعبة التي انتهت لتوها، ثم قرروا الرحيل واجتازوا القاعة الثانية، ثم القاعة الأولى، وقالوا للخادم الذي يحرس المكان، والذي كان يغفو حينها في البهو:

- لا يزال السيد أرشتاين هنا يا جوزيف، وسوف يغادر بعد قليل.

ثم خرجوا.. كانت الساعة حينها الرابعة والنصف وخمس دقائق. وكانت سيارة ألفريد أوڤار في انتظارهم، فعادت بهم إلى ماروم، كما يحدث كل جمعة.

انتظر الخادم جوزيف ساعة، ثم شعر بالإرهاق من مناوبته الليلية، فذهب إلى بول أرشتاين، فوجده جثة هامدة في الغرفة الصغيرة.

توقف بيشو عن سرد القصة مرة ثانية. وكانت السيدة فوجريه مطأطئة الرأس حتى هذه اللحظة. مضى چيم بارنيت مع المفتش إلى الغرفة الصغيرة، وفحصها، ثم سأل:

- وعلامَ تستند هذه القصة التي رويتها يا بيشو؟

- على أقوال الرجال الأربعة الذين كانوا يلعبون هنا.

- هل يمكن أن يكونوا قد أخطأوا في استرجاع أي تفاصيل؟

- كلا، إن أقوالهم متطابقة تمامًا، وهم من كبار رجال الصناعة، رجال متزنون، يعرفون ما يقولون، ويزنون أقوالهم جيدًا.

- حسنًا، دعنا ندخل في صلب الموضوع يا بيشو، عمَّ أسفرت التحقيقات؟

- تبيَّن أن بول أرشتاين تلقى ضربة عنيفة على صدغه بواسطة آلة حادة،

صرعته على الفور. لم يكن هناك أي أثر يدل على أي مقاومة، فيما عدا أن ساعة بول أرشتاين تحطمت عند الساعة الخامسة إلا خمس دقائق؛ أي بعد عشرين دقيقة من انصراف اللاعبين الأربعة. ولم يكن هناك أي أثر يدل على أن الجريمة تمت بدافع السرقة، فالخاتم كان موجودًا والعملات الورقية كذلك، ولا أثر للقاتل الذي لم يتمكن بالطبع من الدخول أو الخروج من البهو؛ لأن الحارس لم يبرح مكانه على الإطلاق.

- لا يوجد أي أدلة؟

تردد بيشو، ثم قال:

- بل هناك دليل صغير وخطير للغاية. ففي عصر ذلك اليوم قام أحد زملائي بإبلاغ قاضي التحقيقات بأن شرفة تلك الغرفة تقع على مسافة قريبة للغاية من شرفة بيت بالطابق الثالث ببناية مجاورة.. وانتقل رجال النيابة إلى ذلك البيت الذي يقيم فيه مهندس يُدعَى السيد فوجريه، كان متغيبًا في ذلك اليوم منذ الصباح. قادت السيدة فوجريه رجال التحقيق إلى غرفة زوجها، واتضح أن هذه الغرفة مجاورة وملاصقة للغرفة الصغيرة بالنادي.

اقترب بارنيت وقال:

- هذه الشرفة تقع على بُعد متر وعشرين سنتيمترًا تقريبًا.. من السهل عبور الشرفة، لكن لا شيء يثبت حدوث هذا الأمر.

- نعم، هناك دليل على ذلك. فبطول الدرابزين، هناك قوالب خشبية معدة لوضع الزهور، لا تزال تحتفظ بتربتها منذ الصيف الماضي.. وبتفتيشها، عُثِر فيها، تحت حفنة من التراب، على قبضة حديدية أمريكية. وقد تحقق الطبيب الشرعي من أن إصابة القتيل أُحدِثت بآلة مطابقة تمامًا لهذه القبضة. ولم يكن عليها آثار لأي بصمات؛ لأن المطر لم يتوقف عن الهطول منذ الصباح، فمُحِيت البصمات تمامًا. ولكن التهمة تبدو دامغة، ويُقال إن المهندس فوجريه رأى بول أرشتاين في الغرفة المضيئة، فاجتاز الشرفة وارتكب جريمته، ثم أخفى أداة الجريمة.

- لكن ما الدافع وراء هذه الجريمة؟ هل كان المهندس فوجريه يعرف بول أرشتاين؟

- كلا.

- إذن ما الدافع؟

لوَّح بيشو بيدَيه، وكانت السيدة فوجريه قد اقتربت وراحت تصغي إلى أسئلة بارنيت، وبدا أنها تبذل جهدًا كبيرًا لتحبس دموعها وتتمالك نفسها، لا سيما بعدما سهرت طويلًا في الليلة السابقة.

قالت السيدة في صوت متحشرج:

- سأجيبك أنا سيدي، باقتضاب وبصراحة تامة. وستفهم الأمر دون عناء.. كلا، لم يكن زوجي يعرف بول أرشتاين، ولكنني كنت أعرفه أنا. التقيت به مرارًا في باريس عند إحدى صديقاتي، وقد غازلني على الفور، لكني أُكِن لزوجي محبة كبيرة، فأنا زوجة مخلصة. ولذلك قاومت الانجذاب الذي شعرت به نحو بول أرشتاين. لكنني وافقت لاحقًا على مقابلته على فترات متباعدة في الضواحي والأرياف.

- وهل راسلتِه؟

- نعم..

- وهل وصلت هذه الخطابات لأسرة أرشتاين نفسه؟

- نعم، هي الآن مع والده.

- والده الذي يريد أن ينتقم لابنه بأي ثمن ويهددكِ بأن يسلم تلك الخطابات للشرطة.. أليس كذلك؟

- بلى، ولكن هذه الخطابات تثبت طبيعة علاقتنا البريئة، ولكنها تثبت أيضًا أنني كنت ألتقي به دون علم زوجي. وإحدى هذه الرسائل تحتوي على هذه العبارات: «أتوسل إليك يا بول أن تتعقل، فإن زوجي شديد الغيرة وعنيف للغاية، وإذا ارتاب في سلوكي فلن يتردد في فعل أي شيء».

هذا الخطاب سيعطي للقضية أبعادًا جديدة يا سيد بارنيت، وسوف تصبح الغيرة هي الدافع الذي تبحث عنه الشرطة، والدافع الذي يبرر هذه الجريمة التي عثرت الشرطة على سلاح ارتكابها أمام غرفة زوجي.

- لكن هل أنتِ واثقة يا سيدتي أن زوجكِ السيد فوجريه، لم يكن يشتبه في سلوككِ؟

- واثقة تمام الثقة.

- وهل تعتقدين أنه بريء؟

قالت على الفور:

- دون أدنى شك.

نظر بارنيت في عينيها مليًّا، وأدرك أن ثبات تلك المرأة على موقفها وقناعتها بأن زوجها بريء، أثَّرا على بيشو لدرجة أنه -رغم كل الحقائق والأدلة ورأي النيابة العامة، ورغم خبرته المهنية- اعتزم مساعدتها لإثبات براءة زوجها.

ألقى بارنيت عليها بضعة أسئلة أخرى، وبعد أن فكر طويلًا، قال:

- لا أستطيع أن أعطيكِ أي أمل يا سيدتي، فالمنطق يقول إن زوجكِ مذنب، ولكنني سأحاول أن أخالف هذا المنطق، وأن أبحر عكس التيار لمساعدتك.

- توسلت إليه المرأة قائلة:

- اذهب لرؤية زوجي أرجوك، فربما تسمح لك أقواله بـ...

- لا فائدة من ذلك يا سيدتي، لو لم أكن مقتنعًا تمام الاقتناع ببراءة زوجكِ، لما أقدمت على مساعدتكِ من الأساس، ولذلك لا أحتاج لزيارته ولا لسماع أقواله.

انتهى الحديث، وباشر بارنيت عمله على الفور، ومضى برفقة المفتش بيشو لمقابلة والد القتيل، أرشتاين.. قال له بارنيت صراحةً:

- يا سيدي، كلفتني السيدة فوجريه بمساعدتها.. أما زلت تعتزم تسليم الخطابات للنيابة؟

- بلى، سأفعل اليوم!

- هل تريد أن تؤذي المرأة التي أحبها ابنك أكثر من أي امرأة أخرى؟

- إذا كان زوج تلك المرأة هو الذي قتل ابني، فيؤسفني أني سأضطر لفعل ذلك. عليَّ أن أثأر لابني.

- انتظِرْ خمسة أيام أيها السيد، وسأزيح القناع عن القاتل الحقيقي.. أمهِلْني حتى الثلاثاء القادم.

استغل بارنيت هذه الأيام الخمسة بطريقة أذهلت المفتش بيشو، فقد استجوب وجنَّد الكثيرين من صغار الموظفين، وأنفق الكثير من المال، ومع ذلك لم يبدُ عليه أي ارتياح على الإطلاق. وكان -خلافًا لعادته- صامتًا وحاد المزاج.

وفي صباح يوم الثلاثاء، زار السيدة فوجريه، وقال لها:

- استطاع بيشو أن يحصل من النيابة على إذن بإعادة تمثيل ملابسات تلك الليلة. ولا بد من حضوركِ وحضور زوجكِ، فأرجو أن تتمالكي أعصابكِ مهما حدث وألا يثيركِ أي شيء.

تمتمت:

- هل هناك أي أمل؟

- أنا نفسي لا أعلم، إنني أحاول أنا وبيشو في كل الاتجاهات، كما سبق وقلت لكِ، بناءً على ثقتكِ في براءة زوجكِ السيد فوجريه. سنحاول إثبات هذه البراءة، استنادًا على فرضية ممكنة تدور في مخيلتنا، ولكن سيكون الأمر شاقًّا. وحتى إن وضعت يدي على الحقيقة، فقد تتبخر هذه الحقيقة من بين يدَيَّ في آخر لحظة.. أليس كذلك يا بيشو؟

في الواقع، كان وكيل النيابة وقاضي التحقيقات رجلين دقيقين للغاية، يستندون في آرائهم وفرضياتهم على الحقائق الملموسة، ولا يحاولون تفسيرها بناءً على أي آراء مسبقة.

فقال بيشو بشيء من القلق:

- إنني أخشى أن تدخل معهما في نزاع يا بارنيت، وأن تسخر منهما كعادتك، فقد منحني هذان الرجلان صلاحيات لكي أتصرف كما يحلو لي، أو بالأحرى كما يحلو لك، فأرجوك ألا تنسى ذلك وألا نسيء استخدام هذه الصلاحيات، أرجوك.

أجابه بارنيت:

- أنا لا أسخر من أحد أيها المفتش إلا عندما أكون واثقًا من الانتصار، وليس هذا حالي اليوم.

كانت القاعة الثالثة مزدحمة، وراح رجال العدالة يتبادلون الحديث بينهم على عتبة الغرفة الصغيرة. دخلوا ثم خرجوا منها ثانيةً بعد لحظات. ورجال الصناعة الأربعة ينتظرون ورجال الشرطة يروحون ويغدون، والسيد أرشتاين، والد القتيل يقف وحده، وكذلك الخادم جوزيف.

وقف السيد فوجريه وزوجته في أحد الأركان. كان هو عابس الوجه، ووجهه يشي بالاضطراب، وكانت هي أشد شحوبًا عما كانت في السابق، فقد أصبح معلومًا أنه تقرر القبض على زوجها المهندس.

خاطب أحد رجال التحقيقات الرجال الأربعة، فقال لهم:

- ستشرع النيابة -أيها السادة- في إعادة تمثيل ما حدث يوم الجمعة، فليتكرم كُلٌّ منكم بالجلوس حول طاولة البكاراه في نفس المكان الذي كان يجلس فيه تلك الليلة. وستقوم أنت يا سيد بيشو بدور القتيل، السيد بول أرشتاين.

- هل طلبت من هؤلاء السادة إحضار نفس حجم النقود الورقية التي كانت معهم في ذلك اليوم؟

رد عليه بيشو بالإيجاب، وجلس في منتصف المنضدة، وعلى يساره ألفريد أوڤار، وراؤول دوبان، وعلى يمينه لويس باتينيه، ومكسيم تويليه.

كانت هناك ست مجموعات من أوراق اللعب، وقسَّم بيشو الورق وقام بتوزيعه كما فعل أرشتاين في ذلك اليوم. وحدث شيء عجيب، فقد حالف الحظ اللاعب الموزع كما حدث في ليلة الجريمة. وربح بيشو بكل سهولة كما فعل أرشتاين في تلك الليلة. فكان يوجه لهم الضربة تلو الأخرى، حتى خسر بقية اللاعبون بالجولة الأولى. وظل الأمر كذلك حتى انتهى الدور الأول. استمرت اللعبة على هذا المنوال وبدا وكأن هناك شيئًا غامضًا، وهو ما أثار دهشة الجميع، وخاصة أن الأحداث التي تحدث أمام رجال النيابة كانت تكرارًا طبق الأصل من تفاصيل تلك الليلة المروعة.

ارتبك مكسيم وأخطأ مرتين. نفد صبر بارنيت وأخذ مكانه عنوة، وجلس على يمين بيشو. وبعد ست دقائق، بدأت الأحداث تتسارع، وأغلب الأوراق المالية التي أخرجها اللاعبون الأربعة من محافظهم، ملأت المفرش الأخضر أمام

بيشو، وبدا أن بارنيت، الذي يلعب دور مكسيم توليه، سيخرج بدَيْن إضافي أيضًا، كما حدث سابقًا تمامًا. تسارع إيقاع اللعبة وبلغ اللعب ذروته. وفجأة فعل بيشو كما فعل بول أرشتاين، فقسَّم أرباحه لأربعة أقسام متساوية، ووزعها على اللاعبين الأربعة، ومنحهم فرصة جديدة للعب ثانيةً والمجازفة بكل شيء من جديد..

تابعه خصومه ببصرهم وقد اضطربوا إثر استرجاعهم لذكرى تلك الليلة المفجعة. وزع بيشو الورق ثلاث مرات وانقلبت اللعبة رأسًا على عقب.. فبدلًا من أن يخسر بيشو في ثلاث جولات متتالية؛ كما خسر أرشتاين في تلك الليلة في آخر ثلاث جولات، أخذ يربح جولات هذا الدور الواحدة تلو الأخرى.

سرت الدهشة بين الحضور.. لماذا لا يزال الحظ محالفًا له؟! وإذا كان الحظ لا يزال محالفًا له، على عكس ما حدث مع بول أرشتاين، فهل يعني ذلك أن بول أرشتاين يمكن أن يكون قد فاز هو الآخر في تلك الليلة وأن خصومه هم مَن غيروا من سير الأحداث في أقوالهم؟ وهل يتعمد بيشو وبارنيت تمثيل الأحداث على النحو الذي سارت عليه اللعبة الحقيقية بين اللاعبين الخمسة ليلة الجريمة؟ تُرَى، هل السيناريو الساري في هذه اللحظة والذي خرج منه بيشو رابحًا، هو ذاته السيناريو الذي حدث في تلك الليلة المشئومة؟ هل انتهت اللعبة الحقيقية بفوز أرشتاين؟

نهض بيشو كما سبق أن نهض أرشتاين، وطبقًا للدور الذي يقوم به، وضع في جيبه رزم النقود الأربعة، ثم اشتكى من صداع؛ كما فعل أرشتاين حينها، ومضى إلى الشرفة وهو يشعل سيجارته. رآه زملاؤه من بعيد عبر باب الغرفة الصغيرة، وبقي اللاعبون الأربعة؛ أي: أوڤار، ودوبان، وباتينيه، وچيم بارنيت الذي حل محل مكسيم توليه، جامدين لا يُحرَك لهم ساكن، ويعتريهم القلق.

نهض چيم بارنيت بدوره، وقد نجح في تقمص دور مكسيم توليه الذي أضناه اللعب وأرهقته الخسارة. وقام بدوره على أكمل وجه.

كان مكسيم شابًّا في الثلاثين من عمره، يرتدي بدلة ضيقة، ذقنه جرداء، ويرتدي نظارة ذهبية على أنفه، ويبدو عليه المرض والقلق، وهكذا بدا چيم بارنيت. تقدَّم بارنيت إلى الغرفة الصغيرة في بطء، بخطوات آلية متثاقلة، وارتسمت على وجهه تارةً تعبيرات قاسية وشرسة، وتارةً أخرى تردُّد وخوف. امتزجت على وجهه تعبيرات رجل قد يشرع في تنفيذ فعلة شنيعة، أو قد يهرب قبل أن يُنفِّذ ما ينوي عليه من شدة جبنه.

لم يرَ اللاعبون وجهه، ولكن رآه رجال التحقيق، ونسوا للحظة أنه چيم بارنيت، وكادوا أن يصدقوا أنه مكسيم توليه اللاعب الخاسر الذي يمضي لملاقاة غريمه الرابح. تُرَى بأي نية يقترب منه؟ كان وجهه يشي باضطراب شديد.. هل سيتوسل غريمه، أو سيكلمه بلهجة آمرة، أو سيهدده؟ دلف إلى الغرفة الصغيرة بهدوء شديد وأغلق الباب خلفه.

إعادة تمثيل الجريمة، سواء بشكل مشابه للواقع أو بشكل مغاير، كانت مثيرة للغاية، لدرجة أن الجميع بقي صامتًا. انتظر اللاعبون الثلاثة في ترقب، وأعينهم معلقة على الباب المغلق الذي يدور خلفه ما دار في ليلة الجريمة، بين چيم بارنيت والمفتش بيشو، اللذين يقومان بدور القاتل والقتيل؛ أي مكسيم تويليه وبول أرشتاين.

بعد دقائق قليلة، خرج القاتل من الغرفة.. لا يمكن أن نطلق عليه غير هذا اللقب، ألم يكن بارنيت في هذه اللحظة متقمصًا لدور القاتل، مكسيم تويليه؟

عاد بارنيت، أو تويليه، إلى أصدقائه وهو يترنح والذعر ينضح من عينيه. وكانت رزم النقود الأربع في يده، فألقى واحدة منها فوق المنضدة وأعاد الرزم الثلاث الأخرى إلى جيوب الرجال الثلاثة الآخرين، وهو يقول لهم:

- تفاهمت مع بول أرشتاين، وكلفني بأن أعيد لكم هذه النقود، فهو لا يريدها، فهيا بنا ننصرف.

انتهت فقرة إعادة تمثيل الجريمة، واعتدل چيم بارنيت وعلى بُعد أربع خطوات منه، كان مكسيم تويليه الحقيقي يجلس على ظهر مقعد وقد اصفر لونه وتجهم وجهه. قال له چيم بارنيت:

- هكذا حدث الأمر يا مكسيم تويليه، أليس كذلك؟ لقد أعدنا تمثيل الجريمة بكل تفاصيلها، وأظنني أجدت القيام بالدور الذي قمت أنت به في تلك الليلة، أليس كذلك؟ ألم تقع الجريمة هكذا؟ جريمتك أنت!

بدا كأن مكسيم تويليه فقد سمعه، فقد أطرق برأسه وارتخت يداه، وتجمد كتمثال يمكن أن يتهاوى في أي وقت، وترنح كما يترنح الرجل الثمل وتهالك فوق مقعده، وعندئذ انقض چيم بارنيت عليه، وأمسك بتلابيبه، وقال:

- أفهم من ذلك أنك تعترف بفعلتك، أليس كذلك؟ لا يمكن أن يكون الأمر قد سار بطريقة مختلفة. ومهما يكن فأنا أملك كل الأدلة، وأستطيع أن أثبت أنك كنت دائمًا تحمل تلك القبضة الحديدية، ثم إن خسارتك في اللعب أفلستك تمامًا.. نعم، إن تحرياتي أثبتت أن أعمالك كانت على شفا جرف هارٍ، وأنك لم تكن قادرًا على سداد ديونك في تواريخ استحقاقها، وكان هذا يعني أنك ستعلن إفلاسك عن قريب. وعندئذٍ ضربت ضربتك، ولم تعرف ماذا تفعل بالقبضة؛ فوثبت إلى الشرفة المجاورة وأخفيتها في أحد الصناديق.

لم يكن بارنيت بحاجة لكل ذلك الجهد، فمكسيم تويليه لم يُبدِ أي مقاومة، وانهار من هول الجريمة التي ارتكبها، والتي يحمل ذنبها على عاتقه منذ أسابيع، وراح يتمتم رغمًا عنه ودون أي وعي؛ كمريض يهذي.

امتلأت القاعة بالضجيج، وانحنى قاضي التحقيقات فوق الجاني، وراح يسجل هذا الاعتراف التلقائي، وأراد والد بول أرشتاين أن ينقض على القاتل، وراح المهندس فوجريه يصرخ غضبًا، ولكن أصدقاء مكسيم كانوا هم الأكثر غضبًا،

وخصوصًا أكبرهم سنًّا وأكثرهم شهرة، وهو ألفريد أوقار، فراح يرميه بأفظع الكلمات:

- ما أنت إلا مجرم، جعلتنا نظن أن ذلك المسكين رد لنا أموالنا في حين أنك سرقتها بعد أن قتلته!

ورمى أوقار بربطة النقود في وجه مكسيم تويليه، واستولى السخط على الاثنين الآخرين، وراحا يدهسان الأوراق المالية.

عاد الهدوء للقاعة شيئًا فشيئًا، وتم نقل مكسيم تويليه إلى غرفة أخرى وهو مغشي عليه تقريبًا. والتقط بارنيت العملات الورقية، وأعطاها للمحققين، وسمح هؤلاء المحققون للسيد فوجريه وزوجته وكذلك والد بول أرشتاين بالانصراف.

هنأ الجميع چيم بارنيت على ذكائه وبصيرته، وقال بارنيت:

- انهيار مكسيم تويليه، ما هو إلا المشهد المعتاد والمتوقع في مثل هذه الجرائم، لكن هذه الجريمة اكتسبت غموضها بسبب شيء آخر تمامًا.. عفوًا، أنا أعرف أنني لست منوطًا بهذا الدور، لكن اسمحوا لي أن أستكمل تحقيقي.

تحول چيم بارنيت إلى رجال الصناعة الثلاثة الذين كانوا يتهامسون، واقترب منهم وربَّت على كتف السيد أوقار برفق، وقال له:

- هل تسمح لي بكلمة يا سيدي؟

- بخصوص ماذا؟

- بخصوص الدور الذي قمت به أنت وصديقاك.

- ولكننا لم نقم بأي دور على الإطلاق..

- لم يكن دورًا فعالًا بالطبع، لكن هناك بعض التناقضات المزعجة التي استوقفتني في أقوالكم، دعني أشير إليها أرجوك.. لقد أعلنتم في صباح يوم الجريمة أن لعبة البكاراه انتهت في النهاية لصالحكم، وهو ما جبر خسارتكم وجعلكم تقررون الانصراف بهدوء، ولكن هذا الاعتراف يناقض الأدلة التي تثبت أن اللعبة انتهت بخسارتكم، وهذا ما أكدتموه بسخطكم على تويليه واستنكاركم لكذبه.

هز السيد أوقار رأسه، وقال:

- الواقع أن هناك سوء فهم، والحقيقة أن الأدوار الثلاثة الأخيرة ضاعفت من الخسائر التي تكبدناها فعلًا، فقد نهض بول أرشتاين وتبعه مكسيم تويليه وهو يبدو رابط الجأش إلى الغرفة الصغيرة؛ لكي يدخن سيجارة، في حين بقينا نحن الثلاثة نتبادل الحديث، وعندما عاد، ربما بعد سبع أو ثماني دقائق، قال لنا إن بول لم يكن يأخذ هذه اللعبة على محمل الجد، وإنما كان يشرب الشمبانيا ويلعب لمجرد اللهو والتسلية، وأنه مصمم على أن يعيد إلينا نقودنا، شريطة ألا

يعرف أحد بذلك، ولذلك اتفقنا على أننا لو اضطررنا إلى رواية تفاصيل اللعبة، سنقول إن نهاية اللعبة جبرت خسارتنا وأننا لم نخرج منها خاسرين.

صاح بارنيت:

- وهل قبلتم بمثل ذلك العرض؟ هذا عرض ليس له أي مبرر.. ألم يستوقفكم قط؟ وعندما قبلتم بهذه الهدية، لماذا لم تذهبوا لتشكروا بول أرشتاين على كرم أخلاقه، وهو المعروف بأنه مقامر محنك وأنه معتاد على الربح والخسارة؟ كيف له أن يتنازل عن حظه بكل سهولة؟ يا لها من تفاصيل غير معقولة وغير منطقية!

رد عليه السيد أوڤار:

- كنا في الساعة الرابعة صباحًا، وأرهقنا اللعب، ولم يترك مكسيم تويليه لنا متسعًا من الوقت للتبين من صحة كلامه، ثم لِم لا نصدقه؟ نحن لم نكن نعلم أنه قتل وسرق، فلماذا لا نصدقه؟

- ولكنكم عرفتم في صباح اليوم التالي أن أرشتاين قُتِل، ألم تشتبهوا في صديقكم تويليه؟

- هذا صحيح، ولكننا عرفنا من التحقيقات أنه قُتِل بعد رحيلنا، وهو الأمر الذي لم يغير شيئًا من اتفاقه وإرادته التي عبَّر لمكسيم تويليه عنها.

- ألم ترتابوا في مكسيم تويليه ولو للحظة واحدة؟

- وبأي حق نرتاب فيه؟ إنه واحد منا ووالده كان صديقي، وأعرفه منذ أن كنا صغارًا.. بلى، إننا لم نشتبه في شيء.

- هل أنت على يقين من ذلك؟

لم يمنح بارنيت لأوڤار فرصة للرد، بل تابع هجومه على الفور، فقال في هدوء:

- الواقع هو أنكم تراهنون على حسن سمعتكم، وتحاولون الاستناد في أقوالكم على ثقتكم في بعضكم البعض. لم تكن الجريمة لتقع حقًّا إلا من طرف خارجي أو من طرف داخلي، لكن التحقيقات اتجهت على الفور إلى الأطراف الخارجية؛ لسبب جوهري، وهو أنه لا يمكن الاشتباه في مجموعة الشرف والنزاهة التي يتكون منها رجال الصناعة الأربعة الأثرياء، الحاصلون على الأوسمة، والمعروفون بالسمعة الطيبة. لو كان مكسيم تويليه لعب القمار بمفرده مع بول أرشتاين لارتقت إليه الشبهة بلا ريب، ولكنكم أربعة لاعبين.. لقد نجا مكسيم من أي شبهة بسبب صمت أصدقائه الثلاثة. لم يتصور أحد أن ثلاثة رجال محترمين ولهم مكانتهم المرموقة يمكن أن يكونوا شركاء، ومع ذلك هذا ما حدث، وهذا ما خمنته أنا على الفور.

انفعل ألفريد أوڤار، وقال:

- لكنك مجنون يا سيدي.. كيف نكون شركاء في الجريمة؟

- إنني لم أقل ذلك، وأعلم أنكم كنتم تجهلون بالطبع ما كان ينوي مكسيم تويليه أن يُقدِم عليه في الغرفة الصغيرة عندما تبع بول أرشتاين، ولكنكم لاحظتم بالتأكيد أنه ماضٍ إليه وهو في حالة ذهنية غير متزنة، وعندما خرج عرفتم أن شيئًا ما قد حدث..

- لم نكن نعرف شيئًا.

- بل كنتم تعرفون أن شيئًا شنيعًا قد حدث، لا بد وأنكم خمنتم على الأقل أن النقاش لم يكن في كل الأحوال نقاشًا وديًّا.. لا بد وأنكم عرفتم أنه أخذ الأموال من أرشتاين عنوة، بطريقة ما.

- ما هذا الهراء؟!

- شخص جبان كصديقكم هذا، لا يمكن أن يقتل دون أن تفضحه ملامح وجهه وتشي بفعلته، ومن المؤكد أنكم لاحظتم عليه علامات قلق وانهيار عصبي.

- أؤكد لك أننا لم نرَ شيئًا.

- بل أغمضتم أعينكم عن الحقيقة.

- ولِم؟

- لأنه أعاد إليكم المبالغ التي خسرتموها.. إنني أعرف أنكم أثرياء أنتم الثلاثة، ولكن لعبة البكاراه أفقدتكم عقلكم، ومثل جميع المقامرين اعتراكم شعور بأنه سلبكم نقودكم، وعندما أُعِيدت إليكم تلك النقود قبلتموها دون أن تكترثوا للطريقة التي رُدَّت بها إليكم.. آثرتم الصمت، وعلمت من مصادر مقربة منكم، أنكم لم تتفوهوا بكلمة واحدة ليلة هذه الجريمة وأنتم عائدون إلى مدينة ماروم، رغم أنه كان عليكم أن تتفقوا -على الأقل- على الرواية التي ستسردونها في حال تم استجوابكم، لكن من فرط ذعركم فضلتم ألا تتحدثوا، وظللتم لأيام وأيام تتحاشون رؤية بعضكم البعض.. هذا ما عرفته من سائقكم.

- هذه مجرد افتراضات.

- بل يقين قاطع، تأكدت منه، بتحقيق دقيق، قمت به بين محيطكم، فإن اتهامكم لصديقكم كان سيفضح ضعفكم ويلفت الأنظار إليكم وإلى عائلاتكم، ويفسد ماضيكم وسمعتكم المشرفة التي لم تشُبها شائبة حتى تلك اللحظة.. لو تورطتم في هذه القضية لجلبتم لأنفسكم الفضيحة، ولذلك لزمتم الصمت وضللتم العدالة وأبعدتم صديقكم عن أي تهمة.

ألقى بارنيت الاتهام ببرودة أعصاب، فأخذت الجريمة بُعدًا أليمًا.. اضطرب السيد أوڤار، ولكن چيم بارنيت غيَّر مجرى الحديث فجأة، فراح يضحك، ثم قال:

- اهدأ سيدي، لقد نجحت في كشف غموض القضية، وفي فضح السيد مكسيم؛ لأنه رجل ضعيف وجبان، يعتصره الندم.. لقد تلاعبت بأوراق اللعب حتى يظل السيد بيشو الذي تقمص دور القتيل أرشتاين يفوز في كل جولة،

وبذلك أعدنا تمثيل هذا المشهد كما تم حقًّا، وليس كما رويتموه أنتم.. لقد جعلت مكسيم يشهد جريمته من جديد ويسترجع كل تفصيلة فيها؛ حتى أحطم نفسيته، لكنني لم أملك أي أدلة ضده، كما أنني لا أملك أي أدلة ضدكم، وأنتم لستم من أولئك الناس الذين ينهارون بسهولة، خاصة وإنني أقول من جديد إن تورُّطكم في الجريمة غير مباشر، وغير مرئي، ولذلك تتمالكون أعصابكم حتى هذه اللحظة.

اقترب بارنيت من السيد أوڤار، ووقف أمامه مباشرةً، وقال:

- حتى وإن كنت لا أملك أي دليل ضدكم، فيكفيني أنني -على الأقل- لن أجعلكم تنعمون بالأمان وراحة الضمير.. يكفيني أنكم تعرفون الآن أنكم لستم بمنأى عن الشبهات.. من فرط تمسككم بالصمت والحذر بلغ بكم الأمر أنكم اجترأتم على أنفسكم الشكوك، ونسيتم أنكم متورطون في هذه الجريمة. يجب أن تدركوا في قرارة أنفسكم أنكم مذنبون، وأنكم لو منعتم صديقكم من اللحاق ببول أرشتاين إلى الغرفة الصغيرة، لما مات أرشتاين، ولما واجه صديقكم المذنب توبليه المصير المرعب الذي ينتظره.. سأدعكم تتدبرون أمركم مع العدالة أيها السادة، وظني أنها ستكون متساهلة معكم، لكنني -على الأقل- أتممت مهمتي.. طاب مساؤكم.

أخذ چيم بارنيت قبعته، وقال لقاضي التحقيقات دون أن يكترث لاحتجاج المتهمين:

- كنت قد وعدت السيدة فوجريه بإنقاذ زوجها، كما وعدت والد بول أرشتاين بكشف القناع عن الجاني الحقيقي، وها أنا قد وفيت بوعدي وأنجزت مهمتي.

شد رجال التحقيق على يد چيم بارنيت بشيء من التبلد؛ لأن مرافعته لم ترُق لهم كثيرًا، لا سيما وأنهم لم يكونوا على استعداد لمجاراته في هذا الاتجاه، أما بيشو فقد لحق ببارنيت على عتبة الباب، فقال له بارنيت:

- إن الرجال الثلاثة يتمتعون بحصانة كبيرة، وأظن أن رجال العدالة لن يجرءوا حتى على استجوابهم؛ فهم من كبار البرجوازيين المعروفين بسمعتهم الطيبة وثرائهم الفاحش، ثم إنهم من نخبة المجتمع ويحظون بدعم شعبي كبير، وللأسف لا أملك ضدهم غير شكوكي واستنتاجاتي.. أظن أن العدالة لن تجرؤ على المساس بهم، ولكنني -على الأقل- أتممت مهمتي على أكمل وجه.

وافقه بيشو قائلًا:

- وأتممتها بكل نزاهة.

- بكل نزاهة؟

- أجل، فقد كان بوسعك أن تلتقط الأوراق المالية خلسةً بكل سهولة، وأعترف لك أنني خشيت للحظة أن تفعل ذلك.

قال بارنيت في وقار:

- مَن تظنني يا بيشو؟!

ثم خرج من البيت ومضى إلى البيت المجاور؛ حيث شكره الزوجان فوجريه بحرارة كبيرة.

وبكل ترفُّع رفض المبلغ الذي قدماه له نظير عمله، وترفَّع في الوقت ذاته عن المبلغ الذي عرضه عليه والد بول أرشتاين، وأكد لهم:

- إن مكتب بارنيت يعمل بالمجان، وهذا ما يميزه عن غيره.. إننا نعمل من أجل المجد.

سدد چيم بارنيت حسابه في الفندق، وأصدر أوامره بأن يتم نقل حقيبته إلى محطة القطار، وكان من المفترض أن يعود بيشو معه إلى باريس، فعاد بارنيت إلى النادي النورماندي ليلقاه، لكنه توقف فجأة في الطابق الأول عندما رأى بيشو يهبط مسرعًا. صاح بيشو في وجه بارنيت، وقد استشاط غضبًا وقفز عدة درجات، ثم أمسك بتلابيبه قائلًا:

- ماذا فعلت بالعملات الورقية؟

رد عليه بارنيت ببراءة شديدة:

- أيُّ عملات؟

- العملات التي استوليت عليها في نادي اللعب، عندما كنت تتقمص دور مكسيم تويليه.

- ماذا تقول؟! لقد أعدت رزم الأموال الأربع إلى مكانها، وأنت رأيتني أفعل ذلك وهنأتني منذ قليل يا صديقي على نزاهتي وشرفي!

- لم أكن أعرف شيئًا!

- وماذا تعرف الآن؟

- عرفت أن الأموال التي أعدتها مزورة.

انفجر بيشو غضبًا، ثم صاح في وجه بارنيت:

- أنت محتال! أتظنني سأتركك تهرب بفعلتك؟ ستعيد الأموال الحقيقية على الفور! أنت تعرف جيدًا أنك أعدت أموالًا مزورة وليست حقيقية يا نصاب!

تحشرج صوت بيشو، وأخذ يهز بارنيت بكل ما أُوتِي من قوة، بينما انفجر الآخر ضحكًا، وتمتم:

- يا لهم من لصوص أوغاد! هذا متوقع من رجال مثلهم.. إذن، عندما أمرهم رجال العدالة بإحضار النقود لتمثيل الجريمة من جديد، جاءوا بأموال مزيفة؟ يا لهم من أوغاد! إذن النقود التي ألقوها في وجه مكسيم تويليه ودعسوها

بأقدامهم كانت نقودًا مزيفة؟ يا لهم من محتالين!

رد عليه بيشو:

- يبدو أنك لا تعي الأمر.. هذه الأموال ملك لورثة بول أرشتاين، يجب عليك أن تعيد هذه الأموال لمستحقيها!

ابتهج بارنيت كثيرًا، وقال:

- يا للهول! لقد خسر اللاعبون أموالهم.. خسروا مرتين..

ثار عليه بيشو:

- أنت الذي سرقتهم! أنت مَن بدلت الأموال يا محتال، يا وغد!

عندما خرج رجال العدالة من النادي، رأوا بيشو يُلوِّح بيدَيه، دون أن يصدر أي صوت، ورأوا بارنيت متكئًا على الجدار، يمسك بضلوعه، ولا يتمالك نفسه من فرط الضحك حتى اغرورقت عيناه.

ذو الأسنان الذهبية

رفع چيم بارنيت ستار النافذة التي تطل على الشارع بوكالته (بارنيت وشركاه)، وراح يضحك في صمت، واضطر أن يجلس لأن ساقَيه لم تعُد تحملانه من فرط الضحك. قال لنفسه: «يا للعجب! لم أتوقع هذا أبدًا.. بيشو قادم لزيارتي؟! هذا غريب والله!».

سأله بيشو بمجرد أن دلف:

- وما الغريب؟

وراح يتأمل ذلك الرجل الذي لا يزال يضحك ويتمتم بكلمات غير واضحة، وهو يلهث، فعاد يقول له:

- ما الغريب يا بارنيت؟

- زيارتك لي طبعًا.. كيف تجرؤ، بعد قضية النادي النورماندي بمدينة روين، على الحضور ثانيةً إلى هنا؟! عجيب أمرك يا بيشو!

بدا بيشو في قمة ارتباكه، وحاول بارنيت أن يتمالك نفسه أمامه، لكنه لم يستطِع، فراح يضحك في مرح، وهو يسعل سعالًا كاد أن يخنقه. قال له:

- معذرةً يا صديقي العزيز بيشو، فإن الأمر غريب جدًّا.. رجل العدالة يأتيني بعصفور جديد؛ لكي أنتزع ريشه؟ مَن الضحية هذه المرة؟ هل هو مليونير؟ أو وزير؟ ما أكرمك يا صديقي العزيز! اعذرني، أنا أتحدث معك على سجيتي؛ كما فعلت أنت معي آخر مرة. لا تعبس هكذا يا صديقي. قل لي ما قصتك هذه المرة؟ وما الذي أتى بك إلى هنا؟ هل هناك مَن يحتاج لمساعدتي؟

حاول بيشو أن يستعيد رباطة جأشه وصرامته من جديد، فرد عليه قائلًا:

- نعم، قسيس كريم من ضواحي باريس.

- وما جريمة قسيسك الكريم؟ مَن قتل يا تُرَى؟ أقتل أحدًا من إخوته في الكنيسة؟

- كلا، على العكس.

- إذن هل هو القتيل يا بيشو؟ مَن قتله؟ وإذا كان هو القتيل، كيف يمكن لي أن أساعده؟

- لا، الأمر ليس كذلك.

- ماذا أصابك؟ لماذا لا تتحدث بوضوح اليوم؟ لماذا تراوغني يا بيشو؟ فليكن، دعنا إذن من هذه التفاصيل، وامضِ بي إلى حيث يقيم قسيسك الكريم. إن حقيبتي جاهزة دائمًا، وأنا على أتم استعداد لمرافقتك.

تقع قرية ڤانوي الصغيرة في جزء متطرف، وتمتد على منحدرات ثلاثة تلال تحيط بالكنيسة الرومانية القديمة بمزارعها الخضراء. وتقع جوار هذه الكنيسة مقبرة ريفية جميلة يحدها يمينًا سور مزرعة كبيرة يقع داخلها قصر صغير، ويسارًا جدار بيت القسيس، فبيت القسيس والكنيسة والقصر الصغير كانت متجاورة.

اصطحب بيشو چيم بارنيت إلى غرفة الطعام ببيت القسيس، وقدَّمه للقسيس ديسول على أنه مخبر سري لا يعرف المستحيل، والواقع أن القسيس ديسول كان رجلًا خلوقًا، أنيقًا، بدينًا للغاية، ومتورد الوجه. كان متوسط السن، وكان وجهه الوديع ينم عن أنه يحمل على عاتقه همًّا كبيرًا لم يكن في حسبانه ولم يُخلَق له.

لاحظ چيم بارنيت يدَيه وراحتَيه المنتفختين، وبطنه البارز الذي كاد أن يقسم رداءه الكهنوتي إلى نصفين.

قال له بارنيت:

- سيدي القسيس، أنا لا أعرف شيئًا عما يدور هنا؛ لأن صديقي المفتش بيشو لم يخبرني بشيء أكثر من أنه سبق وأن التقى بك آنفًا، فهل لك الآن أن تزودني ببعض المعلومات الإضافية دون الإسهاب في تفاصيل لا طائل منها؟

لا ريب أن القس ديسول كان قد أعد حديثه مسبقًا؛ حيث تكلم على الفور، فقال بصوت خافت ومتواضع:

- أريدك أن تعلم يا سيد بارنيت، أن خدم هذه الكنيسة يضطلعون بدورهم الكهنوتي ويحرسون في الوقت نفسه كنزًا وثروة مقدسة، ورثته كنيستنا منذ القرن الثامن عشر من أصحاب قصر ڤانوي.. هذا الكنز عبارة عن وعائين من الذهب، وصليبين، وبضعة شمعدانات، وخزانتين ذهبيتين، وهناك أيضًا، أو بالأحرى كان هناك أيضًا للأسف، تسع قطع قيمة كان الناس يتوافدون لرؤيتها من كل حدب وصوب. ومن ناحيتي أنا...

جفف القسيس ديسول جبينه الذي يتصبب عرقًا، واستطرد:

- من ناحيتي أنا، أعترف بأن حراسة هذا الكنز لطالما كانت مهمة محفوفة بالمخاطر، وكنت أقوم بهذه المهمة بكل عناية وحرص، وبنزاهة ورهبة شديدة في الوقت نفسه. ويمكنك أن ترى عبر هذه النافذة، الكنيسة وغرفة ملابس القداس ذات الجدران السميكة، فهناك نحفظ المقتنيات المقدسة، ولهذه الغرفة باب واحد مصنوع من خشب البلوط، يؤدي إلى المحراب، وأنا وحدي من أملك مفتاحها الضخم. وكذلك معي مفتاح الخزنة التي نحتفظ فيها بالكنز، وأنا أيضًا مَن يتولى مهمة مرافقة الزوار لزيارة هذه التحف والمقتنيات. وبما أن نافذة غرفتي لا تبعد عن القبة المحاطة بالقضبان والتي تنير غرفة المقدسات من أعلى، فربطت سرًّا حبلًا في آخره جرس صغير، يوقظني إذا حاول أحدهم اقتحام الغرفة. ثم إنني، زيادةً في الحرص، اعتدت أن أنقل إلى غرفتي كل ليلة

أثمن هذه القطع، وهي تحفة مرصعة بالماس، إلا أنني في هذه الليلة...

مرر القس ديسول منديله فوق جبينه من جديد، وكان يزداد تعرقًا كلما تعمق في سرد مأساته المفجعة. فعاد ليقول:

- إلا أن في هذه الليلة، قرابة الساعة الواحدة، لم يكن الجرس هو ما أيقظني، ولكن أيقظني صوت ارتطام شيء على الأرض، فصحوت مفزوعًا وأنا أترنح وسط العتمة.. خُيِّل لي على الفور أن أحدهم حاول سرقة التحفة المرصعة؛ فصرخت:

«من هنا؟». ولم يرد عليَّ أحد، ولكنني كنت واثقًا أن هناك شخصًا أمامي أو بجواري، كما كنت واثقًا من أنه وثب من النافذة؛ لأنني أحسست بهواء بارد يجتاح الغرفة فجأةً.. أمسكت بكشافي الكهربائي بسرعة شديدة وأضأته وأنا أرفع ذراعي، وعندئذٍ رأيت للحظة وجهًا متجهمًا يرتدي قبعة رمادية مطوية الحواف، وطية قميصه بنية ومرفوعة، ولمحت في فم هذا الرجل الذي انفرجت شفتاه قليلًا سنتين ذهبيتين على اليسار. ضربني الرجل ضربة شديدة على يدي؛ فوقع الكشاف الكهربائي، واندفعت نحو الرجل، لكني لم أعد أدري أين ذهب. خُيِّل إليَّ أنني درت حول نفسي، فاصطدمت برخام المدفئة أمام النافذة، وعندما استطعت العثور على عيدان الثقاب، اكتشفت أن الغرفة خالية. رأيت على حافة النافذة سلمًا، كان قد أخذه الرجل حتمًا من المخزن، ولم أجد التحفة مكانها؛ فسارعت نحو غرفة المقدسات بالكنيسة، فوجدت أن بقية الكنز اختفى هو الآخر.

وللمرة الثالثة، جفف القسيس ديسول وجهه. كان يتصبب عرقًا وقطرات عرقه تسيل على وجهه كشلالات مياه.

قال بارنيت:

- وبالطبع كان السارق قد اقتحم غرفة المقدسات، وقطع حبل الإنذار، وهو ما يثبت أن هذه العملية نُفِّذت من قِبَل رجل يعرف المكان جيدًا، كما يعرف طقوسك أيضًا.. وبالطبع قمت أنت يا سيدي القسيس بمطاردته.. أليس كذلك؟

- بل إنني أخطأت، وصحت أولًا: «هناك لص! هناك لص!».. أخطأت في ذلك؛ لأن رؤسائي لا يحبون الفضيحة، ووجهوا لي اللوم على الضجة التي أثرتها حينها، لكن لحسن الحظ لم ينتبه أحد ولم يسمعني أحد سوى جاري البارون دي جراڤيير، الذي يستصلح المزرعة المجاورة للمقابر من الناحية الأخرى منذ عشرين عامًا. وقد اتفق معي على أنه يتعين علينا أولًا أن نعثر على المفقودات، قبل أن نبلغ الشرطة، وبما أنه يمتلك سيارة، فقد رجوته أن يذهب إلى باريس، وأن يأتي بالمفتش بيشو.

رد بيشو، وقد انفرجت أساريره من فرط زهوه بنفسه:

- أتيت هنا في الثامنة، وفي الحادية عشرة كنت قد فرغت من كل شيء.

صاح بارنيت:

- ماذا تقصد؟ هل ألقيت القبض على الجاني؟

أشار بيشو بإصبعه نحو السطح في زهو، وقال:

- نعم، هو في الأعلى، وقد حبسته في مخزن الغلال، وهو الآن تحت حراسة البارون دي جراڤيير.

- عظيم! يا لها من ضربة سديدة يا بيشو! وماذا حدث بعد ذلك؟

رد عليه بيشو وهو ينتظر أن يسمع من بارنيت بعض الإطراءات:

- الأمر في غاية البساطة، بدأ الأمر بتحقيق سريع، توصلنا من خلاله إلى بعض المعطيات؛ أولًا: عثرنا على آثار أقدام كثيرة على الأرض الطينية المبتلة بين الكنيسة وبيت القسيس. ثانيًا: من فحصنا لهذه الآثار تأكدنا أنها لأقدام رجل واحد فقط، وأنه نقل المقتنيات الثمينة لمكان بعيد أولًا، ثم عاد ليتسلق الدرج الذي جعله يدلف إلى غرفة القسيس. ثالثًا: هذه المحاولة الأخيرة التي شرع فيها والتي ولم تكتمل، جعلته يفر هربًا بالغنائم التي حصل عليها، فهرب بذلك من الطريق الرئيس، لكننا فقدنا أثره على مقربة من حانة هيبوليت.

قال بارنيت لبيشو:

وبالطبع استجوبت صاحب الحانة على الفور، أليس كذلك؟

استطرد بيشو قائلًا:

- بلى، وصاحب الحانة أكد لي أنه رأى رجلًا يرتدي قبعة رمادية ومعطفًا بنيًّا، وله سنتان ذهبيتان، وقال لنا إنه السيد ڤرنيسون، البائع المتجول، الذي يسمونه بـ(الرابع من مارس)؛ لأنه يأتي إلى مدينة ڤانوي في الرابع من مارس من كل عام. لقد جاء أمس، وتوقف بعربته وتناول غداءه، ثم غادر لزيارة عملائه.

- ومتى عاد؟

- عاد نحو الساعة الثانية صباحًا كعادته.

- وهل رحل؟

- نعم، كان قد رحل منذ أربعين دقيقة، من طريق شانتيي.

سأله بارنيت:

- وهل تعقبته؟

- نعم، اصطحبني البارون في سيارته، ولحقنا بالسيد ڤرنيسون، وأجبرناه على العودة رغم مقاومته واعتراضه.

قال بارنيت:

- معنى ذلك أنه لم يعترف، أليس كذلك؟

- بلى، لقد اعترف ضمنيًّا.. فقال: لا تقولوا شيئًا لزوجتي.. لا تقولوا لها شيئًا..

- والكنز؟

- لم نجد شيئًا في العربة..

رد بارنيت:

- لكن الأدلة دامغة، أليس كذلك؟

- بلى، فأثر حذائه يتطابق تمامًا مع الآثار التي رُفِعت حول منطقة المقابر، وبالإضافة لذلك، فإن السيد القسيس يؤكد أنه التقى بالرجل ذاته، في آخر نهار هذا اليوم، في المقابر؛ لذلك ليس هناك أدنى شك في أنه هو الجاني، كل الأدلة مطابقة له.

- أين المشكلة إذن؟ لماذا طلبتم مساعدتي؟

قال بيشو في استياء:

- استدعيناك بناءً على طلب القسيس، فهناك نقطة فرعية اختلف معه فيها.

أوضح القسيس ديسول وهو يتصبب عرقًا:

- بل أنت الذي تزعم أنها مسألة ثانوية وفرعية، أما أنا فأراها مسألة جوهرية.

سأله بارنيت:

- ما الأمر إذن يا سيدي القسيس؟

- طلبنا مساعدتك بسبب...

- بسبب ماذا؟

- بسبب السنتين الذهبيتين؛ فإن السيد ڤرنيسون له سنتان ذهبيتان، ولكنهما على الناحية اليمنى من أسنانه، أما السنتان الذهبيتان اللتان رأيتهما في فك ذلك الرجل، في تلك الليلة، فكانتا تقعان على الناحية اليسرى.

لم يتمالك چيم بارنيت نفسه، فانفجر ضاحكًا، ونظر إليه القسيس ديسول مبهوت الوجه، فصاح بارنيت:

- في الناحية اليمنى من فكه؟ يا لها من كارثة! لكن هل أنت واثق أنك غير مخطئ؟

- إنني أُشهِد الرب على ذلك.

- ومع ذلك، لقد التقيت بذلك الرجل، أليس كذلك؟

- بلى، في المقابر، وهو نفس الرجل، ولكن لا يمكن أن يكون نفس الرجل الذي رأيته ليلًا؛ لأن السنتين كانتا على اليسار، في حين أن سنتَي السيد ڤرنيسون على اليمين.

قال بارنيت وهو لا يتمالك نفسه من الضحك:

- لعله غيَّر مكانهما.. أحضِرْ لنا هذا الرجل يا بيشو.

بعد مرور دقيقتين، دخل السيد ڤرنيسون، وهو في حالة يُرثَى لها، محني الظهر، متجهم الوجه، متهدل الشارب، وكان يرافقه البارون دي جراڤيير، وهو من نبلاء الريف الفرنسي، قوي البنيان، عريض المنكبين، يمسك في يديه مسدسًا.. بدا السيد ڤرنيسون مذهولًا، فراح يتأوه على الفور ويقول:

- إنني لا أفهم شيئًا من كل هذا العبث. مقتنيات ثمينة، وقفل محطم، ما معنى هذا؟!

صرخ بيشو في وجهه:

- يجدر بك أن تعترف بدلًا من هذه المماطلة!

- إنني سأعترف بكل ما تريد، بشرط ألا تخبروا زوجتي.. عليَّ أن ألحق بها في بيتنا في مدينة أراس، الأسبوع المقبل. يجب أن أكون هناك، ولا يجب أن تعرف شيئًا.

كان يرتجف من فرط الخوف، وفمه مشدوه، حتى بدت سنتاه الذهبيتان.. اقترب بارنيت منه وأدخل إصبعَيه في فمه، ثم قال في حسم:

- إنهما لا تتحركان، وتقعان على يمين فكه بالفعل. السيد القسيس رأى السنتين على اليسار.

قال بيشو في غضب:

- هذا لا يغير من الأمر شيئًا، إن السارق بين أيدينا، وهو يتردد على القرية منذ سنوات؛ لكي يرسم خطته.. إنه هو، وأنا متأكد أن القسيس أخطأ.

بسط القسيس ذراعَيه في ورع إلى الأمام، وقال:

- إنني أُشهِد الرب على أن السنتين اللتين رأيتهما ليلة وقوع الحادث كانتا على اليسار.

رد عليه بيشو:

- بل على اليمين.

- بل على اليسار!

قال بارنيت وقد ضاق به ذرعًا:

- لا داعي لهذا الجدل.. خلاصة القول، ماذا تريد يا سيدي القسيس؟

- أريد تفسيرًا أطمئن له تمامًا.

- وإلا؟

- وإلا لجأت للقضاء كما كان عليَّ أن أفعل منذ البداية. إذا لم يكن هذا الرجل مذنبًا، فلا يحق لنا احتجازه واستجوابه، وإنني أعود وأكرر أن سنتَي اللص الذي سرقني كانتا على اليسار.

صاح بيشو:

- بل على اليمين!

عاد القسيس يقول في إصرار:

- بل على اليسار!

قال بارنيت، وهو في غاية السخرية:

- لا على اليمين ولا على اليسار، لا هذا ولا ذاك.. سأسلمك الجاني غدًا في الساعة التاسعة صباحًا، هنا يا سيدي القسيس، وسيعترف لك هو بنفسه أين أخفى المقتنيات الثمينة، لكنك ستقضي الليلة هنا على هذا المقعد، والبارون على ذلك المقعد، والسيد ڤرنيسون على هذا المقعد الثالث، موثق اليدين. وسوف توقظني يا بيشو في الساعة التاسعة إلا ربع، وأرجو أن يكون الإفطار جاهزًا: خبز محمص، وشكولاتة، وبيض برشت.

شُوهِد چيم بارنيت في أصيل ذلك اليوم في كل مكان في القرية.. وهو يعاين المدافن قبرًا تلو الآخر، وهو يفحص غرفة القسيس، وفي مكتب البريد حيث كان يُجرِي اتصالات هاتفية، وفي حانة هيبوليت الذي تناول فيها العشاء مع صاحب الحانة، وشُوهِد أيضًا على الطرقات وفي الحقول. ولم يعد إلا في الساعة الثانية صباحًا.

كان البارون والمفتش بيشو يغطان في نوم عميق، ملتصقين بالرجل ذي الأسنان الذهبية، يعلو صوت شخيرهم. وما إن سمع السيد ڤرنيسون صوت بارنيت، راح يتأوه، ويردد: «لا تخبروا زوجتي». وارتمى چيم بارنيت على الأرض وغفى على الفور.

أيقظه بيشو في التاسعة إلا ربع كما اتفقا، وأحضر له طعام الإفطار، والتهم بارنيت أربع شرائح من التوست والشوكولاتة والبيض، ثم جمع مستمعيه حوله، وقال:

- سيدي القسيس، إنني أفي بالوعد الذي قطعته على نفسي أمس، وفي الساعة التي حددتها، وسأريك أنت يا بيشو كيف أن كل الأدلة التقليدية؛ كالبصمات، وأعقاب السجائر، والتفاهات الأخرى التي رحت تجمعها، لا وزن لها تقريبًا أمام المعلومات القاطعة التي توصل لها عقلي النابغ مع سرعة

بديهتي.. وسأبدأ بالسيد ڤرنيسون.

تمتم السيد ڤرنيسون وبدا أنه على شفا الانهيار؛ من فرط القلق والخوف والأرق:

- لك أن ترميني بكل الموبقات وبأي تهمة شئت، لكن أرجوك لا تخبر زوجتي.

قال چيم بارنيت:

- منذ ثمانية عشر عامًا، التقى السيد ألكسندر ڤرنيسون، وكان يعمل حينها سمسارًا لإحدى الشركات بمدينة فانوي، بالآنسة أنجليكا الحيَّاكة. أُغرِم كُلٌّ منهم بالآخر من أول نظرة.. تفرغ لها ڤرنيسون بضعة أسابيع، فظل يطَاردها ويغازلها، حتى استولى على قلبها.. عشقته هي الأخرى فدللته وأسعدته حتى ماتت بعد عامين من زواجهما. ولم ينسَها السيد ڤرنيسون. ورغم أنه استسلم بعد ذلك لإغراء الآنسة هونورين، وتزوجها، ظلت ذكرى الآنسة أنجليكا حية في ذهنه. أما السيدة هونورين فكانت عنيفة للغاية وشديدة الغيرة، ولم تكف أبدًا عن لومه على تلك العلاقة التي كشفتها لها الصدفة.. أليس كذلك يا سيد ڤرنيسون؟

- بلى، كل ما تريد بشرط ألا...

تابع بارنيت:

- وعلى ذلك، دبر السيد ڤرنيسون أمره، لكي يمر كل عام بعربته إلى فانوي دون أن تعلم زوجته، فيجثو عند قبر أنجليكا في ذكرى وفاتها؛ أي في الرابع من مارس من كل عام، ويزور الأماكن التي ارتاداها معًا منذ لقائهما، ولا يعود إلى الحانة، إلا في الساعة التي عاد فيها في ذلك اليوم. يمكن أن نفهم الآن لماذا يخشى السيد ڤرنيسون أن تعرف زوجته أن زوجها غير الوفي متهم بالسرقة بسبب حبيبته الراحلة. ويمكن أن تتحققوا مما أقول من هذه الورقة التي تحمل صليبًا كتب السيد ألكسندر ڤرنيسون على أطرافه الأربعة هذه العبارات:

«هنا ترقد

أنجليكا

تُوفِّيت في الرابع من مارس

ألكسندر يحبها ويرثيها».

كان السيد ڤرنيسون يبكي وهو يتخيل كيف ستنتقم منه زوجته إذا ما عرفت قدومه إلى فانوي.. كان هذا وحده سببًا كافيًا يبرر حالة الذعر التي أصابته، ولم يعبأ بغير ذلك.

وراح بيشو والبارون دي جراڤيير والقسيس ديسول يصغون في اهتمام شديد إلى استنتاجات بارنيت. واستأنف بارنيت قصته، فقال:

- عرفنا الآن أحد أسباب التي تقف وراء قدوم السيد ڤرنيسون إلى فانوي بانتظام، وهذا السبب يقودنا مباشرةً إلى الكشف عن سر الكنز، فالعلاقة بين هاتين النقطتين وثيقة، ولا شك أن كنزًا بهذه الضخامة، لا بد أن يثير الأطماع. ولا بد أن فكرة السرقة راودت الكثير من الزوار أو من أهالي البلد، وهي فكرة صعبة التنفيذ؛ بسبب الاحتياطات التي اتخذها السيد القسيس، ولكنها ليست صعبة لمَن يعرف بتلك الاحتياطات ويدرس المكان منذ سنوات، ويرسم خطة محكمة تبعده عن دائرة الاتهام. هنا يكمن مربط الفرس. حرص الجاني على ألا يتعرض لأدنى اتهام، وخير وسيلة لذلك هي تحويل الاتهام لرجل آخر، أو بالتحديد إلى ذلك الرجل الذي يأتي خلسة إلى المدافن في يوم محدد ويختفي ثانيةً، عندئذٍ دبَّر الجاني خطته في صبر وتأنٍّ: قبعة رمادية، ومعطف بني، وبصمات حذاء، وسنتان ذهبيتان، ورسم خطته بكل إتقان بحيث تقع التهمة على ذلك الغريب، وليس على السارق الحقيقي، أعني به ذلك الذي أخذ يدبر خطته ويُحكِمها عامًا بعد عام.

لزم بارنيت الصمت لحظة، وقد بدأ يكشف عن جزء من الحقيقة، ويُلمِّح إلى أن السيد ڤرنيسون ضحية وليس جانيًا. مد بارنيت يده، وقال:

- لن تشتبه السيدة ڤرنيسون في سبب قدومك إلى هذه البلدة يا ڤرنيسون، وأرجو ألا تغضب بسبب الخطأ الذي وقع منذ يومين، وأرجو أن تلتمس لي العذر إذا كنت قد فتشت عربتك تلك الليلة، واكتشفت في المخبأ السري بخزائنك، رسائل الآنسة أنجليكا ومذكراتك الخاصة. أنت حر طليق الآن، ولك أن تنصرف يا سيد ڤرنيسون.

نهض ڤرنيسون، ولكن بيشو صرخ في استياء:

- لحظة واحدة.

- تكلم يا بيشو.

صاح المفتش:

- والسنتان الذهبيتان؟ لا يجب أن يغيب عن أذهاننا أن السيد القسيس رأى سنتين ذهبيتين في فم اللص. والسيد ڤرنيسون له سنتان ذهبيتان في الناحية اليمنى من فمه.

قال القسيس مصححًا المعلومة:

- لكن السنتين اللتين رأيتهما كانتا في الجهة اليسرى من فكه.

- أو لعلهما كانتا في الجهة اليمنى يا سيدي القسيس.

- بل في الجهة اليسرى.

راح چيم بارنيت يضحك من جديد، وقال:

- أرجوكما أن تلزما الصمت! إنكما تتجادلان في توافه الأمور.. كيف يمكن أن

تتملكك الحيرة لهذا الحد يا بيشو أمام تفصيلة صغيرة كهذه؟ إنها مسألة لن يعجز أمامها عقل تلميذ صغير! أعتقد يا سيدي القسيس أن هذه الغرفة مطابقة تمامًا لغرفتك، أليس كذلك؟

- بلى، وغرفتي في الطابق العلوي.

- أغلِق النوافذ يا سيدي القسيس وأسدِل الستائر، أما أنت يا سيد ڤرنيسون، فأعِرني قبعتك ومعطفك من فضلك.

ارتدى بارنيت القبعة ذات الحواف المطوية، والمعطف البني اللون، ذا الطية المرفوعة، وعندما ساد الظلام في الغرفة تمامًا، أخرج من جيبه كشافًا كهربائيًّا، وصوب شعاع الكشاف على فمه المفتوح، فصاح القسيس وهو ينظر إليه:

- الرجل! الرجل ذو السنتين الذهبيتين.

- في أي جهة من وجهي هاتان السنتان يا سيدي القسيس؟

- في الجهة اليمنى.. والسنتان اللتان رأيتهما كانتا في الجهة اليسرى.

أطفأ چيم بارنيت كشافه، وأمسك بالقسيس من كتفيه، وجعله يلف حول نفسه مرارًا وتكرارًا كالنحلة، ثم أضاء مصباحه فجأة، وهو يأمره:

- انظر أمامك الآن، أمامك تمامًا، في أي جهة ترى السنتين الذهبيتين؟

أجاب القسيس مندهشًا:

- رأيتهما الآن في الجهة اليسرى.

رفع چيم بارنيت الستائر، وفتح النوافذ، وقال:

- في الجهة اليمنى، أو في الجهة اليسرى، أنت غير متأكد، أليس كذلك يا سيدي؟ هذا ما حدث في الليلة الماضية. عندما نهضت مذعورًا وذهنك مشتت وتملكك الرعب، لم تدرِ أنك تولي ظهرك للنافذة، وأنك كنت أمام المدفئة، وأن السارق لم يكن واقفًا أمامك، بل إلى جوارك.. وإنك عندما أضأت المصباح، لم تعكس نوره عليه هو، بل سلطته على صورته المعكوسة في المرآة، وهذه هي نفس الظاهرة التي أحدثتها أنا لتوي بعد أن جعلتك تلف حول نفسك مرارًا.

- هل فهمت الآن؟ وهل يجب أن أنبهك أن المرآة حين تعكس لك صورة ما، فإنها تعكس الاتجاهات، فأي شيء على اليسار سيصبح على اليمين، وأي شيء على اليمين سيصبح على اليسار؟ يتبين لنا إذن أنك رأيت السنتين على جهة اليسار، لكنهما في الحقيقة كانتا على الجهة اليمنى.

صاح المفتش بيشو وقد انتفخت أوداجه:

- نعم، ولكن هذا لا يمنع أنني كنت محقًّا إذن! وأن السيد القسيس لم يكن

مخطئًا هو الآخر عندما أكد أنه رأى سنتين ذهبيتين، ولذلك نطلب منك أن تقدم لنا جانيًا آخر له سنتان ذهبيتان، غير السيد ڤرنيسون.

- لا داعي لذلك.

- ولكن السارق كانت له سنتان ذهبيتان.

قال بارنيت:

- ولي أنا سنتان ذهبيتان أيضًا، وأخرج من فمه قطعة من الورق المذهب لا تزال تحتفظ بشكل سنتين ذهبيتين. هل هذا هو الدليل؟ دليل مقنع أليس كذلك؟ بصمات الحذاء، والمعطف البني، والسنتين الذهبيتين، كلها تفاصيل صنعت صورة طبق الأصل من السيد ڤرنيسون، وما أسهل ذلك! لتحصل على سنتين ذهبيتين يا بيشو؛ يكفيك أن تبتاع قطعة من ورق ذهبي كهذه التي اشتريتها أنا، وقد أتيت بها من المتجر نفسه الذي اشترى منه البارون دي جراڤيير قطعة من الورق الذهبي منذ ثلاثة أشهر.

ألقى بارنيت بهذه العبارة الأخيرة فكانت كقنبلة مدوية بددت الصمت. والواقع أن بيشو، وقد قادته مرافعة بارنيت شيئًا فشيئًا نحو الهدف، لم يندهش أبدًا.

أما القسيس فبدا كأنه يختنق، ورمق البارون بنظرات غاضبة، ولزم البارون دي جراڤيير الصمت، وقد احمر وجهه من فرط الخجل. وأعاد بارنيت القبعة والمعطف للسيد ڤرنيسون، وانصرف هذا الأخير وهو يتمتم:

- هل تعدني بأن زوجتي لن تعرف شيئًا؟ سيكون أمرًا فظيعًا لو عرفت شيئًا.

اصطحبه بارنيت حتى الخارج، ثم عاد وهو يفرك يدَيه، وقال:

- يا له من عمل رائع! لقد أنجزته بسرعة البرق.. أشعر بشيء من الزهو. أرأيت كيف يكون التحقيق يا بيشو؟ دائمًا ما تتبع الطريقة نفسها التي تتبعها في القضايا الأخرى التي أنجزناها معًا.. دعني أعلمك شيئًا.. لا يجب علينا أن نبدأ في اتهام أول شخص نشتبه فيه أبدًا، ولا أن نطلب منه أي تفسير ولا أي إيضاح، ولا يجب أن نوليه أدنى اهتمام من الأساس، ولكن كل ما علينا فعله هو أن نعيد تمثيل ملابسات الجريمة أمامه؛ حتى يرى أمام عينَيه كل ما أقدم عليه وظن أنه يخفيه عن أعين الجميع. يجب أن يعرف أنه وقع في الفخ، وأنه لا نجاة له.. عليك أن تجمع ضده كل الأدلة الدامغة، بحيث تتلف أعصابه فلا يعود قادرًا على الدفاع عن نفسه أو حتى على إبداء أي مقاومة.. وهذا ما فعلته مع البارون.. أليس كذلك يا سيدي البارون؟ أعتقد أنني لم أعد بحاجة للكشف لك عن أدلتي؛ لأن ما ذكرته يكفي، أليس كذلك؟

لا شك أن هذه الإستراتيجية نجحت مع البارون دي جراڤيير؛ لأنه لم يحاول المقاومة، أو إخفاء ما انتابه من إحباط وخزي. سلوكه الآن أشبه بمَن أُلقِي القبض عليه متلبسًا بجريمته.. اقترب بارنيت منه وطمأنه برفق كبير:

- ليس هناك ما تخشاه يا سيدي البارون، فإن القسيس ديسول لا يريد سوى تجنُّب الفضيحة، ويطلب منك بكل بساطة أن تعيد إليه المفقودات الثمينة، وبذلك لن تتعرض لأي اتهام.

رفع البارون رأسه، وتأمل خصمه المخيف لحظة، ثم تمتم وهو تحت تأثير نظرة بارنيت الصارمة:

- ألن أتعرض لأي اتهام حقًّا؟ ألن يتداول أحد هذه الجريمة؟ هل يتعهد السيد القسيس بذلك؟

قال القسيس ديسول:

- لن أذكر شيئًا، أعدك بذلك، سأنسى كل شيء بمجرد أن يعود الكنز مكانه، ولكن هل هذا ممكن يا سيدي البارون؟ أنت؟ أنت مَن ارتكب مثل هذا الجرم؟ أنت الذي وضعت فيك كل ثقتي، أحد أبناء رعيتي المخلصين؟

همس البارون دي جراڤيير في ذل وإذعان كبير؛ كطفل يعترف بذنب ارتكبه:

- كان الأمر أقوى مني يا سيدي القسيس، لم أستطِع مقاومة الفكرة.. كنت أفكر طيلة الوقت في ذلك الكنز الموجود في متناول يدي، ثم دبرت الأمر رغمًا عني.

عاد القسيس يقول في صوت حزين:

- أهذا ممكن؟ أيُعقَل؟

- نعم، فقد خسرت أموالي في المضاربات، فكيف لي أن أعيش؟ ومنذ شهرين جمعت في المخزن كل قطع الأثاث الأثرية القديمة، والساعات الثمينة، والسجاجيد، وكنت أريد بيعها؛ حتى أنجو من الفقر. ولكن قلبي كان ينفطر، ثم اقترب يوم الرابع من مارس، ولم أصمد أمام فكرة المخطط الذي دبرته، واستسلمت لهذه المغريات.. اغفر لي ذلتي.

قال القسيس ديسول:

- إنني أغفر لك، وسأصلي لكي لا يعاقبك الرب.

نهض البارون، وقال في لهجة حاسمة:

- هلموا بنا وأرجو أن تتبعوني.

مضوا عبر الطريق الطويل كأناس يتنزهون، وكان القسيس ديسول يجفف وجهه من العرق، والبارون يمشي بخطى متثاقلة، محني الظهر، أما بيشو فقد عصف به القلق، فلم يكن واثقًا إذا ما كان بارنيت، الذي كشف الحقيقة بتلك البراعة، منع نفسه من اختلاس المفقودات الثمينة.

وكان چيم بارنيت يمشي جواره وهو يقول في ارتياح تام:

- كيف لم تكتشف الحقيقة بحق السماء؟ هل أنت أعمى يا بيشو؟ لقد أدركت على الفور أن السيد ڤرنيسون لم يستطِع أن يقوم بذلك العمل؛ نظرًا لأنه كان يأتي مرة واحدة كل عام، وأن مرتكب السرقة لا بد وأن يكون من الأهالي أو من الجيران المقربين. ومَن يمكن أن يكون الجاني غير البارون الذي يقع قصره أمام الكنيسة، ويعرف -بالإضافة لكل ذلك- كل الاحتياطات التي يتخذها القسيس ديسول وكل الرحلات التي يقوم بها السيد ڤرنيسون في الوقت نفسه؟

لم يكن بيشو يصغي إليه؛ لأنه كان غارقًا في مخاوفه التي راحت تزداد شيئًا فشيئًا، وداعبه بارنيت قائلًا:

- عندئذٍ تأكدت من الأمر ورميته باتهامي دون أن يكون لديَّ أيُّ دليل. ولكنني لمحت وجهه يصفر، وهو يصغي إليَّ ولم يستطِع أن يتمالك نفسه. آه يا بيشو، إنني لم أستمتع في حياتي كما استمتعت اليوم، وها أنت ترى النتيجة يا بيشو.

قال بيشو وهو متوقع المفاجأة:

- نعم، إنني أراها، بل إنني سأراها.

وكان البارون دي جراڤيير قد سلك بهم طريقًا مختصرًا مكسوًّا بالأعشاب، وبعد ثلاثمئة متر، وبعد مرورهم بغابة من أشجار البلوط، توقف وقال في ارتباك:

- هنا، وسط هذا الحقل، في الطاحونة.

شهق بيشو، وسارع في فحص الطاحونة بسرعة حتى يفرغ من هذا الأمر، وتبعه الآخرون. وكانت الطاحونة ضيقة، وقد فرغ من تفتيشها في دقيقة واحدة، فوقعت أكوام من التبن.. أطلق بيشو شهقة انتصار، وقال:

- ها هو الكنز! وعاءان ذهبيان، وشمعدانات، ومشعل.. ها هي المقتنيات الستة.. السبعة!

صاح القسيس:

- يجب أن يكون عددها تسعة.

- تسعة؟ حمدًا لله، كلها موجودة.. لقد أفزعتني يا بارنيت! آه منك يا بارنيت!

وكاد القسيس أن ينهار من فرط الفرح، وراح يضم المقتنيات إلى صدره وهو يتمتم:

إنني أشكرك كثيرًا يا سيد بارنيت، سيجازيك الرب خير الجزاء يا بني.

لم يخطئ المفتش بيشو عندما توجس من بارنيت خيفة، فالمفاجأة الحقيقية وقعت بعد ذلك بقليل.

ففي أثناء عودة الجميع وبينما كان البارون دي جراڤيير ورفاقه يقتربون من القصر، سمعوا صياحًا صادرًا من الحديقة، فأسرع البارون إلى المخزن.. كان

يقف أمامه ثلاثة من الخدم ووصيف، يتحركون جميعًا جيئةً وذهابًا. خمَّن البارون طبيعة الكارثة التي حلت به على الفور، وتحقق منها.. فقد كانت هناك غرفة صغيرة ملحقة بالمخزن تم اقتحامها عنوة، واختفت منها كل قطع الأثاث الأثرية والساعات والسجاجيد التي كانت بها، والتي كانت تُمثِّل آخر مورد رزق للبارون.

تمتم البارون متلعثمًا:

- متى سرقوا كل ذلك؟

قال أحد الخدم:

- هذه الليلة، قرابة الحادية عشرة مساءً، عندما نبحت الكلاب.

ولكن كيف استطاعوا فعل ذلك؟

- بسيارة، سيدي البارون.

- بسيارتي؟ هل سُرِقت هي الأخرى؟

تهالك البارون وانهار بين ذراعَي القسيس الذي واساه، وهو يقول برفق:

- لم يتأخر القصاص يا صديقي المسكين، فتقبله نادمًا.

شد بيشو على قبضتَيه وسار نحو چيم بارنيت، وقد استجمع قواه لكي ينقض على بارنيت وقال في حنق:

- قدِّم بلاغًا يا سيدي البارون وأنا أضمن لك أن مفروشاتك لن تضيع.

قال بارنيت، وهو يبتسم خلسة:

- إنها لن تضيع طبعًا، ولكن تقديم البلاغ قد يُشكِّل خطرًا على السيد البارون.

راح بيشو يتقدم نحوه أكثر فأكثر مهددًا، ولكن بارنيت أسرع وشده نحوه وهو يقول:

- أتعرف ماذا كان سيحدث لولايَ؟ ما كان السيد القسيس ليجد كنزه، ولكان ڤرنيسون البريء خلف القضبان الآن، ولعرفت زوجته بالسر الذي يخفيه عنها.. خلاصة القول، لما كان أمامك عندئذٍ إلا الانتحار.

تهالك بيشو فوق جزع شجرة وهو يكاد يختنق من فرط الغضب، فصاح بارنيت:

أسرِعْ يا سيدي القسيس، أحضِرْ لنا مشروبًا منعشًا، أرجوك، فالمفتش بيشو ليس على ما يرام.

أمر البارون دي جراڤيير الخدم بإحضار زجاجة من النبيذ المعتق. تجرع منها بيشو كأسًا والقسيس كأسًا هو الآخر وأفرغ البارون بقيتها في جوفه.

سندات بيشو

كان أول ما عُنِي به السيد جاسير عندما استيقظ من نومه، هو التأكد من أن ربطة السندات التي أحضرها مساء اليوم السابق لا تزال موجودة على الطاولة الصغيرة جوار فراشه؛ حيث وضعها أمس.. بعدما اطمأن من وجودها نهض ليغسل وجهه.

كان نيكولاس جاسير رجلًا قصير القامة، بدين الجسم ونحيل الوجه، وكان يعمل في حي الـ(إنفاليد) رجل أعمال، وكان يتعامل مع مجموعة من العملاء الجادين الذين يعهدون إليه بمدخراتهم، ليضارب بهذه المدخرات في البورصة ويوظفها في بعض المعاملات الربوية، فيُدِر عليهم أرباحًا طائلة. كان يقطن بشقة في الطابق الأول من بيت عتيق يمتلكه، وتتكون شقته هذه من بهو وغرفة نوم، وغرفة لاستقبال الضيوف وغرفة طعام يستخدمها لاستقبال عملائه وتقديم استشاراته لهم، بالإضافة إلى غرفة يعمل بها ثلاثة موظفين، تُفضِي بدورها إلى المطبخ.

كان رجلًا مقتصدًا للغاية، ولم يكن لديه أي خادمة لمساعدته، كان يعتمد فقط على مساعدة حارسة العقار التي تجلب له في كل صباح الخطابات من صندوق بريده بحماس وحيوية، وتقوم على أعمال بيته، وتُقدِّم له على مكتبه الكرواسون وفنجان القهوة على الفطور.

في ذلك الصباح، انصرفت هذه السيدة من بيته في الثامنة والنصف، وكعادته أخذ يتناول فطوره بهدوء، في انتظار قدوم موظفيه، ثم فض الخطابات، وتصفح جريدته، لكنه في التاسعة إلا خمس دقائق بالضبط خُيِّل له أنه سمع صوت حركة قادم من غرفته الخاصة. صُعِق عندما تذكر ربطة السندات التي وضعها على طاولته في اليوم السابق؛ فانتفض نحو غرفته.. لم يجد ربطة السندات في مكانها.. سمع في تلك اللحظة نفسها باب الصالة يغلق بعنف شديد. حاول أن يفتحه على الفور، ولكن هذا الباب بالتحديد لا يفتح قفله إلا بالمفتاح، وللأسف كان قد ترك هذا المفتاح على مكتبه.

قال محدثًا نفسه: إذا ذهبت لإحضار المفتاح، سيفر السارق دون أن أراه.

فتح السيد جاسير نافذة الصالة، والتي تطل على الشارع مباشرةً. وعلميًّا وعمليًّا، لم يكن هناك أي متسع من الوقت لأي شخص للخروج من البناية.. وكان الشارع خاليًا من أي مارة، ومن هول المفاجأة لم يطلب السيد جاسير النجدة من أي أحد، لكنه سرعان ما لمح أحد موظفيه يدلف إلى الشارع باتجاه البناية، فمال من النافذة، وأشار إليه على الفور، وقال له:

- أسرِعْ أسرِعْ يا سارلونا! ادخل وأغلِق الباب وراءك واحرص على ألا يخرج أحد أبدًا! لَقد سرقني أحدهم.

ما إن اطمأن لدخول موظفه إلى البناية، حتى نزل مسرعًا، وهو يلهث حتى

كاد ينقطع نفسه، ثم قال لموظفه:

- ألم تصادف أحدًا أمامك يا سارلونا؟

- لا أحد يا سيد جاسير.

أسرع جاسير متجهًا نحو حارسة العقار، التي كانت تقيم في غرفة صغيرة بين الدرج وفناء صغير مظلم. كانت تكنس الأرض، فقال لها:

- لقد سرقني أحدهم يا سيدة آلان! ألم يختبئ أي أحد هنا؟

قالت له في هلع شديد:

- لا يا سيدي!

سألها:

- أين تضعين مفتاح بيتي إذن؟

- هنا يا سيدي خلف ساعة الحائط، لكن من المستحيل أن يكون قد سرقه أحدهم، فأنا لم أبرح مكاني منذ نصف ساعة.

- لقد فر السارق إذن من أعلى.. صعد السلم بدلًا من أن يهبط لأسفل.. هذا شيء مريع!

عاد السيد نيكولاس جاسير إلى بهو بيته، وكان الموظفان الآخران قد وصلا لتوهما. شرح لهما الموقف سريعًا في بضع جمل مقتضبة، وأعطاهم التعليمات اللازمة بألا يدخل أو يخرج أي أحد حتى يعود لاحقًا. توجه لسارلونا قائلًا:

- هل فهمتِ يا سارلونا؟

ارتقى السلم مسرعًا ودلف إلى بيته. أمسك بسماعة هاتفه، وقال:

- آلو.. إدارة الأمن؟ أنا لم أطلب منك التحدث إلى إدارة الأمن، أريد أن أتحدث إلى مقهى يُسمَّى بـ(الإدارة).. الرقم؟ لا أعرفه، أسرِعي واسألِي الاستعلامات، أسرِعي يا آنسة.

أفلح أخيرًا في الاتصال بصاحب المقهى، وقال له:

- هل المفتش بيشو موجود؟ دعه يُحدِّثني حالًا. أسرِع، إنه أحد عملائي، لا يجب أن نضيع دقيقة واحدة..

آلو.. المفتش بيشو؟ معك السيد جاسير.. نعم يا بيشو، صحتي على ما يرام، أو بمعنى أصح، كلا، لقد سرقت مني ربطة السندات.. أنا في انتظارك.. ماذا؟ مستحيل! سترحل في عطلة؟ لا شأن لي بذلك، أسرِعْ بالمجيء يا بيشو. إن سنداتك الاثني عشر الخاصة بحقول المناجم الأفريقية من بين السندات التي سُرِقت.

سمع السيد جاسير في آخر المحادثة كلمة «اللعنة!». فاطمأن أن المفتش بيشو سيسرع بالقدوم.

أقبل بيشو بعد خمس عشرة دقيقة، متجهم الوجه، وانقض على رجل الأعمال قائلًا:

- سنداتي الاثنا عشر! كل مدخراتي! أين هي؟

- سُرِقت ومعها سندات عملائي، وسنداتي أنا أيضًا.

- سُرِقت؟

- نعم، من غرفتي، منذ نصف ساعة.

- اللعنة! وماذا كانت تفعل سنداتي في غرفتك؟!

- سحبتها أمس من بنك كريدي ليونيه؛ لكي أودعها بأحد المصارف الأخرى، فقد رأيت أن هذا أفضل، ولكنني أخطأت.

أمسك بيشو بكتف الرجل بقوة، وقال له:

- أنت المسئول يا جاسير، وسوف تسدد لي ثمنها.

- من أين؟ إنني أفلست!

- أفلست؟! وهذا البيت؟!

- هذا البيت مرهون..

راح الرجلان يتشاجران ويصرخان الواحد في وجه الآخر، وتفلت أعصاب الحارسة والموظفين الثلاثة. سد بيشو وجاسير الطريق أمام فتاتين يقطنان بالطابق الثالث كانتا يريدان أن تخرجا من البيت. صاح بيشو وقد فقد أعصابه:

- لن يخرج أحد قبل أن نعثر على سنداتي الاثني عشر!

اقترح جاسير قائلًا:

- أظننا سنحتاج إلى بعض العون، فلم لا نستعين بالجزار والبقال؟

قال بيشو:

- لا أريد أحدًا منهما. إذا كان لا بد لنا من مساعدة فسأتصل تليفونيًّا بوكالة (بارنيت) بشارع دي لابورد، ثم سنقدم بلاغًا، ولكن دعنا لا نضيع أي دقيقة، علينا أن نتحرك على الفور.

حاول بيشو أن يتماسك وأن يتحلى بالهدوء كما ينبغي له، ولكن حركاته العصبية ورجفة فمه كشفت عن اضطرابه وخوفه الشديد.

قال لجاسير:

- تماسك يا جاسير. لم نفقد كل شيء بعد، فلم يخرج أحد من البناية، ولا بد إذن أن تعثر على سنداتي الاثني عشر قبل أن يفر السارق بها من البيت، وهذا هو المهم.

بدأ بيشو باستجواب الفتاتين. كانت إحداهما تعمل على الآلة الكاتبة وتنسخ بعض النشرات والتقارير في بيتها، والأخرى تعطي دروسًا في العزف على الناي في بيتها أيضًا.. وكانت كُلٌّ منهما تريد أن تخرج لشراء لوازمها لإعداد الغداء. قال بيشو في حدة:

- آسف، ولكن سيبقى باب البيت مغلقًا هذا الصباح، ليحرسه رجلان من رجالك يا سيد جاسير. أما الثالث فسيقوم بشراء لوازم السكان، ويستطيع هؤلاء الناس الخروج ظهرًا، ولكن بإذن مني. وسنقوم بتفتيش كل طرد وكل رزمة ورق، وكل سلة، تفتيشًا دقيقًا. هذه هي الأوامر يا سيد جاسير.

أما نحن فهيا بنا إلى العمل، وسوف ترشدنا الحارسة.

سهَّل شكل المنزل من عملية البحث، فهو مكون من ثلاثة طوابق في كل طابق شقة واحدة؛ أي أربعة طوابق، بالإضافة للطابق الأرضي الذي لم يكن مسكونًا في ذلك الوقت. ففي الطابق الأول كان يسكن السيد جاسير، وفي الطابق الثاني كان يقيم السيد توفيمون، النائب البرلماني والوزير السابق، أما الطابق الثالث، فكان مقسمًا إلى قسمين، تقيم في أحدهما الآنسة ليجوفييه الكاتبة على الآلة الكاتبة، وفي القسم الآخر الآنسة هاقلين، معلمة الناي.

كان السيد توفيمون، النائب بالبرلمان، قد خرج في الساعة الثامنة والنصف من صباح ذلك اليوم متجهًا إلى المجلس، حيث كان يرأس إحدى اللجان، ولم تكن الخادمة التي تقوم على أمور بيته تأتي إلا ساعة الظهيرة في أثناء الغداء. انتظر الجميع عودته. أجرى المفتش في هذا الوقت تفتيشًا دقيقًا في مسكن الآنستين، ثم فحص جميع أركان السطح وزواياه، ثم الفناء الصغير، ثم أخيرًا، مسكن السيد جاسير نفسه.. لم يتوصل لشيء، وراح بيشو يتذكر سنداته الاثني عشر في حسرة ومرارة.

عاد السيد توفيمون ظهرًا.. كان رجلًا وقورًا، يحمل حقيبته في يده، وكان معروفًا عنه أنه رجل نشيط ومجتهد، يحظى باحترام كل الأحزاب. وكانت استجواباته في المجلس نادرة، ولكنها كانت حاسمة، وتثير الضجة بين أعضاء الحكومة.

مضى بخطى ثابتة، وأخذ رسائله من حارسة العقار، وهناك لحق به جاسير وأخبره بالسرقة التي تعرَّض لها. أصغى النائب توفيمون إليه في اهتمام شديد، ووعده بمساعدته إذا أراد تقديم بلاغ، وأصر على أن يقوم بيشو بتفتيش مسكنه قائلًا:

- مَن يدري؟ لعل أحدهم دخل بيتي بمفتاح مزيف.

لم يسفر التفتيش عن أي نتيجة، وبدأت التحقيقات تتعثر شيئًا فشيئًا. راح كُلٌّ

من الرجلين يواسي الآخر ببعض العبارات التحفيزية التي بدت مصطنعة بعض الشيء. وفي النهاية قرر بيشو وجاسير أن يتناولا الطعام في مقهى صغير يقع أمام البيت، بحيث لا تغيب البناية عن نظرهما. لم يكن بيشو جائعًا، فضياع سنداته الاثني عشر سد شهيته عن الطعام.

وشعر جاسير بدوار شديد، ثم أعاد كُلٌّ منهما سرد الأحداث على الآخر؛ على أمل اكتشاف دوافع لهذه الجريمة.

قال بيشو:

- الأمر بسيط جدًّا.. دخل أحدهم مسكنك وسرق السندات، ونظرًا لأنه لم يستطِع الخروج من البناية، فهذا يعني أنه لا يزال بالبيت.

وافقه جاسير قائلًا:

- طبعًا!

- وإذا كان لا يزال بالبيت؛ فمعنى ذلك أن سنداتي الاثني عشر في هذا البيت هي الأخرى، فهذه السندات لا يمكن أن تجتاز الجدران والأسقف بمفردها.

قال نيكولاس جاسير:

- لا يمكن أن تختفي الربطة بأكملها من تلقاء نفسها.

استكمل بيشو:

- يمكن إذن أن نصل إلى حقيقة واحدة قاطعة، وهي أن...

ولم يفرغ بيشو من عبارته، حتى لاح في عينيه ذعر مفاجئ. كان ينظر إلى الجهة الأخرى من الشارع، حيث كان هناك رجل يتقدم نحو البيت بمرح، فتمتم بيشو:

- بارنيت؟ أيُعقَل؟ ومَن الذي أخبره؟

اعترف جاسير قائلًا في شيء من الارتباك:

- إنك حدثتني عنه وعن وكالة بارنيت الواقعة بشارع دي لابورد، فخطر لي في هذه الظروف العصيبة أن أكلمه، لعل الأمر يكون مجديًا.

تأفف بيشو قائلًا:

- ولكن هذا تصرُّف أحمق وأهوج! قل لي: مَن يدير هذا التحقيق، أنا أم أنت؟ لا داعي لدخول بارنيت في هذه المسألة إنه رجل خبيث يجب الحذر منه.. كلا، لا أريد مساعدة من بارنيت!

بدت له مساعدة بارنيت وتدخُّله في القضية أكثر الأشياء خطورة على الإطلاق. چيم بارنيت في البيت، يتابع هذه القضية.. هذا يعني أن التحقيقات ستنتهي سريعًا، باختفاء السندات، لا سيما باختفاء سندات بيشو الاثني

عشر.

عبر بيشو الشارع غاضبًا، وإذ ببارنيت يطرق باب البناية. اعترض بيشو طريقه، وقال في صوت خافت ومنكسر:

- انصرِفْ، لا حاجة لنا بك! تم استدعاؤك بالخطأ.. انصرِفْ حالًا ودعنا وشأننا!

نظر بارنيت إليه في دهشة، وقال:

- يا بيشو يا عزيزي، ماذا بك؟ يبدو أنك لست على ما يُرام.

- عُد أدراجك يا بارنيت.

- يبدو أن الأمر في غاية الخطورة، كما قيل لي في الهاتف، هل سرقوا مدخراتك؟ ألا تريد مساعدة بسيطة حقًّا؟

قال بيشو متذمرًا:

- انصرِفْ، لا حاجة لي بمساعدتك البسيطة هذه. مساعدتك لي تعني أنك ستسطو على أموال الآخرين يا بارنيت.

- هل أنت خائف على سنداتك؟

- نعم، إذا تدخلت أنت في الموضوع، سأكون خائفًا.

- لا داعي للكلام إذن، وتدبر أمرك..

- هل سترحل؟

- لا، أبدًا! لقد أتيت إلى هنا خصيصًا، لكن لأمر مختلف تمامًا.

وكان جاسير قد اقترب منهما وفتح الباب، فقال له بارنيت:

- عفوًا يا سيدي، هل تقيم الآنسة ڤاڤلين معلمة الناي الحائزة على جائزة معهد الموسيقى هنا؟

احتد بيشو، وقال:

- أنت تسأل عنها لأنك رأيت بالفعل عنوانها على هذه اللافتة، أليس كذلك؟

قال بارنيت:

- ماذا بك؟ ألا يحق لي أن آخذ دروسًا في العزف على الناي؟

- ليس هنا.

- أنا آسف، ولكنني شغوف بالعزف على الناي.

- إنني أعترض على هذه التصرفات.

- لا شأن لي باعتراضك.

مر بارنيت عنوة دون أن يجرؤ أحد على اعتراضه، ورآه بيشو وهو في غاية القلق يصعد السلم، وبعد عشر دقائق، كان قد اتفق مع الآنسة هاڤلين وبدأ أولى حصصه في تعلُّم عزف الناي، فقد علا صوت العزف على الناي، من الطابق الثالث. تمتم بيشو وقد ازداد قلقه على سنداته الاثني عشر:

- يا له من وغد! ماذا نفعل مع هذا الحيوان؟!

استأنف العمل في غضب شديد.. قام بتفتيش الطابق الأرضي غير المسكون، وكذلك غرفة الحارسة، التي يمكن أن يكون السارق قد تخلص من ربطة السندات فيها، ولكن جهوده باءت بالفشل.

ومع ذلك، فقد استمر العزف على الناي في الطابق العلوي، وقد أثار هذا العزف أعصاب بيشو وشتت أفكاره، وأخيرًا، قرابة الساعة السادسة، ظهر بارنيت وفي يده عبوة كبيرة من الكارتون.

أطلق بيشو صيحة سخط وأمسك بالعبوة وانتزع غطاءها.. كان داخلها قبعات قديمة، وفرو متآكل. قال بارنيت بلهجة جادة ممزوجة بالسخرية:

- بما أن الآنسة هاڤلين لا يحق لها الخروج الآن، فقد طلبت مني أن ألقي بكل هذا في سلة القمامة. إن الآنسة هاڤلين جميلة جدًّا كما تعلم، وهي بارعة في العزف على الناي، وترى أن لديَّ استعدادًا عجيبًا للتعلم، وأنني إذا واصلت التدريب، فقد أقف على باب إحدى الكنائس وأنجح في التسول من عزفي.

ظل جاسير وبيشو يحرسان المبنى طيلة الليل، أحدهما بالخارج والآخر بالداخل؛ حتى لا يقوم السارق بإلقاء ربطة السندات من النافذة إلى شريكه المحتمل.. استأنفا عملهما صباح اليوم التالي، ولكن دون جدوى، فسندات بيشو الاثنا عشر وبقية السندات لم يُرَ لها أي أثر.

وفي الساعة الثالثة أقبل چيم بارنيت من جديد، والعلبة الفارغة في يده، وبعد أن ألقى تحيته الساخرة عليهم، صعد إلى الطابق الثالث، كما لو كان ماضيًا إلى شيء يستحوذ على كل اهتمامه. بدأ درس العزف على الناي، وأخذ يعزف مقطوعات قصيرة ويصدر نغمات موسيقية عشوائية وغير سليمة، ثم توقف هذا الصوت لمدة طويلة، وهو ما أثار حيرة بيشو إلى حد كبير. تساءل: «ماذا يفعل بحق السماء؟». أخذ يتخيل السيناريوهات العديدة التي يرسمها بارنيت والتي قد تفضي إلى نتائج مذهلة.

صعد بيشو الطوابق الثلاثة، وأرهف سمعه، لكنه لم يسمع أي صوت يتنامى من شقة معلمة الناي، ولكنه سمع صوت رجل عند جارتها، الآنسة ليجوفييه، الكاتبة على الآلة الكاتبة.

قال بيشو وهو يُحدِّث نفسه وقد تملَّكه الفضول:

- هذا صوته!

لم يستطِع أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك، فطرق الباب..

قال بارنيت:

- مَن الطارق؟ تفضل.. المفتاح في الباب.

دخل بيشو وكانت الآنسة ليجوفييه، وهي امرأة سمراء جميلة جالسة أمام الآلة الكاتبة، تكتب على بعض الأوراق المتفرقة عبارات يمليها عليها بارنيت.

قال بارنيت:

- هل أتيت لإجراء أي تفتيش يا بيشو؟ ليس لدى الآنسة ما تخفيه، وأنا كذلك. إنني أملي عليها مذكراتي، هل تسمح لنا باستكمال عملنا؟

كان بيشو يلقي نظرات خاطفة تحت قطع الأثاث، فقال بارنيت للآنسة ليجوفييه:

- وفي ذلك اليوم، وجدني المفتش بيشو لدى الآنسة ليجوفييه اللطيفة، بعد أن أوصتها عازفة الناي بأن تهتم بي، وراح يبحث عن سنداته الاثني عشر التي تأبى الظهور، ووجد بعض الغبار تحت الأريكة وفردة حذاء تحت خزانة الملابس، فالمفتش بيشو لا يغفل عن أي شيء. يا لها من مهنة صعبة!

نهض بيشو ولوَّح بيدَيه نحو بارنيت، وسبه. وتابع بارنيت إملاءه للكاتبة، فلم يسع بيشو إلا أن ينصرف. وبعد وقت قليل، هبط بارنيت ومعه علبة.. كان بيشو هو الذي يقوم بحراسة البناية، فتردد في اعتراض طريق بارنيت، ولكن من فرط قلقه قرر فتح العلبة. لم يكن بها غير أوراق قديمة، وبعض قصاصات القماش.

لم يعُد لبيشو قِبَل بهذا الوضع؛ لأن وجود چيم بارنيت وسخريته وألاعيبه، كانت تجعله يستشيط غضبًا. كان بارنيت يعود كل يوم، ليأخذ درس الناي، أو ليقوم بإملاء مذكراته لكاتبة الآلة الكاتبة، ثم يخرج بعلبته.. فماذا كان يفعل؟

كان بيشو على يقين أن هذه حيلة جديدة من حيل بارنيت، ولكن ماذا لو قرر في إحدى هذه المرات التي يخرج فيها أن يُهرِّب تلك السندات في إحدى هذه العلب، ويفر بها؟ ماذا لو كان ينتظر فقط الفرصة السانحة لنقل غنيمته؟ هكذا راح يفتش بيشو بدقة متناهية كل المقتنيات التي ينقلها بارنيت، رغم غرابتها. فكان ينقل قطع أقمشة ممزقة، وأقمشة بالية، وأقلامًا بلا حبر، ومكانس مكسورة، ورماد مدافئ، وقشور جزر. في كل مرة كان بارنيت ينفجر ضاحكًا، فيقول:

- السندات هنا! السندات ليست هنا! سيجدها بيشو.. للأسف لم يجدها! يا له من مسكين! مسكين بيشو!

واستمر هذا الحال أسبوعًا كاملًا.

أهدر بيشو خلال هذه المعركة غير المتكافئة كل أيام عطلاته، فضلًا عن أنه بدا مثيرًا للضحك والسخرية في الحي كله. فلا هو ولا جاسير استطاعا منع

السكان، رغم تفتيشهم لهم، من الذهاب إلى عملهم، ولا من تهكّمهم عليهم.

كان لمغامرة جاسير المزعجة هذه وقع وتأثير لا يُستهان به على عملائه الذين فزعوا من هذه السرقة، فحاصروا مكتبه، وطالبوه بأموالهم.

أما النائب توفيمون، الوزير السابق، فقد اعتاد الخروج من بيته والعودة إليه أربع مرات كل يوم. أزعجته هذه الفوضى العارمة، وحث نيكولاس جاسير على إبلاغ الشرطة، فلم يكن ممكنًا أن يستمر هذا الوضع لفترة أطول.

وقع حادث مفاجئ قلب الأوضاع رأسًا على عقب، ففي أصيل أحد الأيام، سمع بيشو وجاسير عراكًا عنيفًا في الطابق الثالث، صراخ وصياح نساء. كان الأمر يبدو خطيرًا.. صعدا الطوابق الثلاثة سريعًا.. كانت الآنستان هاڤلين ولوجوفييه مشتبكتين، وتتعاركان في عنف، وقد حاول بارنيت أن يفصل بينهما، رغم أن الأمر كان يروق له، لكنه لم يفلح في ذلك، فقد تهدل شعر كُلٍّ منهما، وتمزق ثوبهما، وراحتا تتقاذفان بألفاظ السباب من كل ناحية. فصلَ بيشو بينهما وأُصِيبت الكاتبة بنوبة عصبية، فاضطر بارنيت أن يحملها إلى مسكنها، بينما أعربت معلمة الناي عن غضبها، قائلة وهي تكاد تصرخ:

- إنني داهمتهما وهو يُقبِّلها، رغم أنه بدأ بمغازلتي أنا. إن بارنيت هذا رجل غريب الأطوار، يجب أن تسأله يا سيد بيشو عما يفعله هنا منذ ثمانية أيام، ولماذا يقضي وقته في استجوابنا وفي التفتيش في كل مكان؟ وإليك الأمر كله..

أستطيع أن أجزم أنه يعرف مَن السارق. إنها حارسة العقار! نعم السيدة آلان! لا أعرف لماذا منعني من إبلاغك بذلك رغم أنه يعرف الحقيقة بخصوص السندات؟ والدليل على ذلك هو أنه قال لي: «السندات في البيت دون أن تكون فيه، وهي ليست في البيت مع إنها فيه». توخَّ حذرك منه يا سيد بيشو.

وكان چيم بارنيت قد فرغ من الكاتبة، وأمسك بالآنسة هاڤلين ودفعها نحو غرفتها في حزم قائلًا:

- أيتها الأستاذة العزيزة، كُفِّي عن ترويج الإشاعات وعن الثرثرة، ولا تتحدثي فيما لا يعنيك.. لا تتحدثي سوى عن الناي!

لم ينتظر بيشو عودته؛ لأن أقوال الآنسة هاڤلين عن بارنيت أزاحت الستار عن غموض القضية.. نعم، كانت السيدة آلان حارسة العقار هي حتمًا المتهمة، فكيف لم يفكر في ذلك من قبل؟!

هبط السلم مسرعًا وقد أغضبه هذا الاعتقاد، وكان يتبعه نيكولاس جاسير، وأسرع إلى غرفة الحارسة. وقال لها:

- أين سنداتي؟ أنتِ التي سرقتِها.

وصل نيكولاس جاسير بدوره، وصاح فيها:

- سنداتي، ماذا فعلتِ بها أيتها السارقة؟!

وراح كُلٌّ منهما يهز المرأة الضخمة وكُلٌّ منهما يجذبها من إحدى ذراعيها ويلاحقانها بالأسئلة والسباب، لكنها لم ترد، فقد بدت مذهولة. كانت ليلة مريعة بالنسبة لها، تبعها يومان لا يقلان عنها قسوة.. لم يشعر بيشو لحظة واحدة أن چيم بارنيت قد يكون أخطأ، ثم إن الحقائق بدت منطقية في ضوء ذلك الاتهام. فلا شك أن الحارسة وهي تقوم بعملها لاحظت وجود ربطة السندات فوق الطاولة، جوار الفراش، وهي وحدها التي تملك مفتاح الشقة، فاستطاعت -طبقًا لمعرفتها بعادات السيد جاسير- أن تأخذ الربطة، وأن تسرع إلى غرفتها أسفل الدرج، حيث وجدها جاسير في ذلك اليوم عندما هبط مسرعًا.

هبطت همته، وراح يقول:

- نعم، هذه المرأة الخبيثة هي التي سرقت السندات، ولكن اللغز لا يزال غامضًا، ولا يهمني إن كانت الحارسة هي السارقة أو أي أحد غيرها، كل ما يهمني هو العثور على سنداتي الاثني عشر. فإذا فرضنا أنها هي التي أخذتها إلى غرفتها، كيف خرجت السندات بين التاسعة وبين الساعة التي فتشنا فيها غرفتها؟

رفضت المرأة الإدلاء بأي أقوال، رغم التهديدات ورغم الأضرار المعنوية التي وقعت عليها. فقد أنكرت كل شيء، وقالت إنها لم ترَ شيئًا، وأنها لا تعرف شيئًا. ورغم أنه لم يكن هناك أدنى شك في ارتكابها هي لهذه الجريمة، فقد بقيت هذه المرأة صامدة وعنيدة.

وقال جاسير ذات يوم لبيشو: «يجب أن نفرغ من هذه المسألة.. عرفت أن النائب توفيمون تسبب في إقالة الوزارة مساء أمس، وسيأتي الصحفيون لمقابلته هنا، فهل سنستطيع تفتيشهم جميعهم؟».

اعترف بيشو أن الأمر صعب، وقال في تأكيد:

- أمهِلني ثلاث ساعات وسأعرف كل شيء.

وبعد ظهر ذلك اليوم، ذهب بيشو إلى وكالة بارنيت وطرق الباب.. قال له بارنيت:

- كنت في انتظارك يا بيشو، فماذا تريد؟

- أحتاج لمساعدتك، فلم أعد أفهم شيئًا.

كان الرد صريحًا وسريعًا، واعترف فيه بيشو ضمنيًّا بفشله.

أسرع بارنيت إليه وأمسكه من كتفَيه في مودة ولين، وربَّت على يدَيه برفق ليخفف عنه مرارة الشعور بالفشل. ولم يعد الحديث يأخذ طابعًا عدائيًّا، بل صار

أكثر لطفًا.. قال له بارنيت:

- الحق يا عزيزي بيشو أن سوء التفاهم البسيط الذي وقع بيننا أزعجني كثيرًا.. أيُعقَل أن يصبح زميلان مثلنا عدوين؟ إنه لأمر محزن للغاية، وقد جافاني النوم بسبب هذه الفرقة.

عقد بيشو حاجبَيه، وتجهم وجهه بعض الشيء، فقد كان يلوم نفسه على أنه سمح لنفسه أن تتوطد علاقته ببارنيت إلى هذا الحد، وآسف على أن القدر فرض عليه أن يتعاون مع هذا الرجل الذي يعتبره نصابًا ولصًّا. ولكن للأسف حتى أشرف الرجال وأكثرهم نزاهةً يضعفون أحيانًا أمام بعض الظروف. وخسارة السندات الاثني عشر من بين تلك الظروف القهرية.

وتمتم وهو يغالب وخز ضميره:

- هل حارسة العقار هي السارقة؟

رد عليه بارنيت:

- نعم، هي بالفعل.. وذلك لسبب وجيه، وهو أنه ليس هناك مَن يمكن الاشتباه فيه غيرها.

سأله بيشو:

- ولكن كيف يمكن لهذه المرأة الوقورة أن تُقدِّم على ارتكاب هذه الفعلة؟

أجابه بارنيت في سخرية:

- لو أنك اتخذت الاحتياطات المبدئية واستعلمت عنها، لعرفت أن تلك المرأة المسكينة قد ابتُلِيت بابن وغد، يبتزها ويأخذ كل أموالها، وقد استسلمت للمغريات من أجله.

ارتجف بيشو، وقال مرتبكًا:

- وهل أفلحت في تسليمه سنداتي؟

طمأنه بارنيت:

- كلا، لم تفلح، في ذلك.. ما كنت لأسمح بذلك.

- أين هي إذن؟

- في جيبك؟

- لا تمزح معي!

- أنا لا أمزح يا بيشو عندما يتعلق الأمر بمثل هذه الأمور الخطيرة.. تحقق بنفسك.

دس بيشو يده في جيبه الذي أشار إليه بارنيت، في شيء من الخجل،

ولمسه وأخرج منه مظروفًا ضخمًا عليه هذه الكلمات:

«إلى صديقي بيشو».

فض المظروف، ثم تهاوى. أحضر له بارنيت زجاجة عطر ليشمها ويستفيق، وقال له:

- استنشِقْ يا بيشو، ولا تدع الإغماء يتغلب عليك.

لم يفقد بيشو وعيه، ولكنه جفف بضع دمعات سالت على خده، وشعر أنه يختنق من فرط الاغتباط. لم يشك أن بارنيت دس المظروف في جيبه بمجرد وصوله إلى المكتب، ولكن السندات الاثنا عشر أصبحت بين يدَيه المرتجفتين الآن، وتأكد حينها أن بارنيت ليس نصابًا، وأنه لم يطمع في سنداته.

استعاد قواه فجأة، وراح يرقص رقصات إسبانية على إيقاعات وهمية، ويقول:

- لقد استعدتها، ها هي سنداتي الاثنا عشر! آه يا بارنيت، إنك لرجل بارع! إنك لرجل عظيم! لا يُوجَد في العالم مثيل لك! لا يُوجَد إلا بارنيت واحد فقط! أنت منقذي! لكن كيف فعلتها بحق السماء؟

اندهش بيشو من الطريقة التي فرغ بها بارنيت من القضية، وسأله بدافع الفضول:

- كيف فعلتها يا بارنيت؟ كيف اكتشفت كل ذلك؟ أين كانت الربطة؟ ألم تقل إنها كانت في البيت دون أن تكون فيه؟ ماذا قصدت؟

- قصدت أن السندات كانت داخل المنزل وخارج المنزل في آنٍ واحد.

أثارت دعابة بارنيت فضول بيشو، فتوسل إليه قائلًا:

- تكلم يا بارنيت أرجوك!

- وهل تعترف بفشلك أولًا؟

- بالطبع، كما تريد.

- وستتوقف عن انتقاد طريقتي الساخرة التي أدير بها تحقيقاتي؟ لأن انتقادك المستمر لي يا بيشو يجعلني أحيانًا أشعر أنني أحيد عن الطريق.

- تكلم يا بارنيت.

صاح بارنيت:

- آه، سأحكي لك، إنها قصة ظريفة للغاية، لكن تفاصيلها شديدة الغرابة، ودعني أُطمئِنك أنني لن أخذلك أبدًا؛ لأنني لم أقابل في حياتي كلها قضية أجمل وأغرب وأدهى من هذه القضية. فرغم بساطتها لم تفهم فيها شيئًا يا بيشو، رغم خبرتك.

قال بيشو وقد تملّكه الاستياء:

- تكلم، كيف خرجت ربطة السندات من البيت؟

- خرجت أمام عينَيك يا عزيزي بيشو، وتحت نظرك، ولم تخرج من البيت فحسب وإنما عادت إليه وراحت تخرج مرتين وتدخل مرتين، كل يوم. تخرج وتدخل أمام نظرك، وأنت تنحني أمامها بكل احترام على مدار عشرة أيام.. كانت تمر أمامك بكل بساطة.

صاح بيشو:

- ما هذا الهراء؟! هذا عبث! لقد كنا نفتش كل شيء!

- كنت تفتش كل شيء إلا الشيء المناسب. كنت تفتش الطرود والعبوات، وحقائب اليد، والجيوب والقبعات، والمعلبات.. أتدري؟ في المطارات أيضًا يفتشون كل المسافرين، ولكنهم لا يفتشون الحقائب الدبلوماسية. وهكذا، فتشت أنت كل شيء إلا حقيبة ذلك الرجل الذي انحنيت له كل يوم كلما رأيته.

صاح بيشو وقد نفد صبره:

- ماذا تعني؟!

- أراهنك أنك لم تخمن الأمر بعد.

- تكلم بحق السماء!

- حقيبة الوزير الأسبق ونائب البرلمان.

- وثب بيشو من مقعده، وقال:

- ماذا تقول يا بارنيت؟ هل تتهم النائب توفيمون؟ هل جُنِنت؟ هل أستطيع أن أسمح لنفسي أن أتهم النائب؟ أولًا، النائب والوزير الأسبق، فوق مستوى الشبهات، ومن بين جميع النواب وكل الوزراء السابقين، أعتبر أن السيد توفيمون، أبعدهم كلهم عن دائرة الاشتباه.

قال بارنيت:

- ولكن هذا لا يمنع أنه أخفى مسروقات السيدة آلان.

- أتقصد أنه شريك لها؟ أيكون النائب شريكًا لها في جريمتها؟

- لا، لم أقل ذلك.

- مَن تتهم إذن؟

- مَن أتهم؟

- نعم.

- أتهم حقيبته.

واصل بارنيت حديثه في مرح وفي صوت هادئ:

- إن حقيبة الوزير يا بيشو مهمة للغاية، فلدينا في هذا العالم السيد توفيمون وحقيبته، وهما لا يفترقان عن بعضهما البعض. كُلٌّ منهما مرتبط بالآخر ارتباطًا وثيقًا. فلا يمكنك أن تتصور السيد توفيمون دون حقيبته، ولا أن تتصور حقيبته من دونه. ولكن أحيانًا يضع السيد توفيمون حقيبته بجواره؛ لكي يأكل مثلًا، أو لكي ينام، أو لكي يمارس حياته بشكل اعتيادي..

في تلك اللحظات، تتخذ حقيبة السيد توفيمون كينونة خاصة، ويمكن أن تتورط في أحداث لا شأن للسيد توفيمون فيها، وهذا ما حدث صباح ذلك اليوم.

نظر بيشو إلى بارنيت وهو يتساءل عن المغزى من كل هذه المقدمة؟

عاد بارنيت يقول:

- هذا ما حدث في صباح اليوم الذي اختفت فيه سنداتك الاثنا عشر، فقد استولى الذعر على الحارسة؛ بسبب السرقة التي ارتكبتها، وأرعبها الخطر الذي صار يحدث بها، ولم تدرِ كيف تتخلص من الغنيمة التي يمكن أن تتسبب في هلاكها، فرأت فجأة فوق مدفأتها حقيبة السيد توفيمون، وكأن القدر قد أرسلها إليها.. كان السيد توفيمون قد دخل غرفتها لكي يأخذ رسائله، وألقى حقيبته فوق المدفأة، وراح يفض جواباته في الوقت نفسه، بينما ذهبت أنت يا بيشو ومعك نيكولاس جاسير تبلغانه باختفاء السندات.. وعندئذٍ خطرت فكرة عظيمة للسيدة آلان، فقد كانت رزمة السندات هي الأخرى فوق المدفأة بجوار الحقيبة، تحت بعض الجرائد، ولم تكن الغرفة قد فُتِّشت بعد.. ولكنكم كنتم على وشك تفتيشها، وكنتم ستعثرون على السندات حتمًا. فأدارت ظهرها على الفور وفتحت الحقيبة وأفرغت إحدى جانبَيها من أوراقها ودست فيها ربطة السندات، ولم يرَ أحد شيئًا ولم يشتبه فيها أي أحد. وعندما انصرف السيد توفيمون وحقيبته تحت إبطه، انصرفت سنداتك الاثنا عشر وكل سندات جاسير.

لم يُبدِ بيشو أي اعتراض على أقوال بارنيت، فهو يثق به ويعرف أن أقواله دامغة.. فقال له:

- أتذكر أنني رأيت في ذلك اليوم حزمة من الأوراق والتقارير ولم أُعِرها أي اهتمام، لا شك أن هذه هي الأوراق التي أخرجتها الحارسة من حافظته، لتضع مكانها السندات.. لكن لا ريب أنها اضطرت لإعادة تلك الأوراق للسيد توفيمون لاحقًا، أليس كذلك؟

- لا أعتقد ذلك، أظنها كانت ستفضل أن تحرق هذا الورق عن أن ترده للسيد توفيمون وتلفت إليها الأنظار.

- ألم يطالبها هو بالورق؟

- نعم.

- كيف ذلك؟ ألم يكتشف اختفاء تلك الأوراق من حافظته؟

- نعم، ولم يكتشف وجود ربطة السندات من الأساس..

- ألم يلاحظها عندما فتح حافظته؟

- إنه لم يفتحها، ولا يفتحها أبدًا. إن حقيبته ما هي إلا صورة تعطي له هيبة، وتضفي عليه شيئًا من الوقار، حاله كحال غيره من السياسيين.. ما الحقائب الوزارية إلا رمز للنظام السياسي. لو أنه فتحها، لطالب بمستنداته ولأعاد السندات، ولكنه لم يطالب بشيء ولم يُرِد أي شيء.

- ألا يستخدم حافظته في أثناء العمل؟

- إنه لا يعمل يا بيشو، وليس مضطرًّا للعمل من الأساس. يكفي أن تكون معه حقيبة وزير سابق حتى يُعفَى من أي عمل، فالحقيبة بالنسبة لهؤلا الرجال بديل عن العمل، ورمز للسلطة والنفوذ والمعرفة. وعندما ذهب السيد توفيمون أمس إلى مجلس النواب، وقد حضرت بنفسي تلك الجلسة، وضع حافظته على المنصة، وتاه في رزمة الأوراق التي أمامه، فحقيبة أي نائب قوي لا بد أن تكون مليئة بمستندات دامغة، وأرقام، وإحصاءات.. فتحها توفيمون، ولكنه لم يُخرِج من جانبَيها المنتفخين شيئًا. وراح من وقت لآخر يتحسس الحقيبة وهو يتكلَم كأنما يقول لبقية النواب: «كل شيء معي هنا!». ولكن لم يكن هناك أي شيء فيها سوى سنداتك أنت يا بيشو. سنداتك الاثنا عشر وسندات جاسير وأوراق قديمة.. لم يكن في الحقيبة أي شيء آخر، ومع ذلك فقد تسبب في إقالة الحكومة.

سأله بيشو متعجبًا:

- ولكن كيف عرفت كل ذلك؟

- عند خروجه من مجلس النواب في الواحدة صباحًا، وبينما كان عائدًا إلى بيته على قدميه، مترجلًا.. اصطدم به رجل، وأوقعه أرضًا، وأسرع رجل آخر شريك للرجل الأول والتقط الحقيبة، وأسرع في حشوها بأوراق قديمة، فأخذ السندات واستبدلها ببعض الأوراق القديمة.. هل أنا بحاجة لأن أكشف لك اسم ذلك الرجل الثاني؟

ضحك بيشو من طرف خفي، فقد راقت له القصة، كما راقت له قصة توفيمون، خاصةً بعد أن أصبحت سنداته الاثنا عشر في جيبه.

دار بارنيت حول نفسه في مرح، وقال:

- هنا يكمن مربط الفرس يا صديقي العزيز.. ولكي أكتشف كل هذه الحقائق الغريبة، وكي أستنشق هواء البيت وأتزود بالمعلومات اللازمة؛ أمليت مذكراتي وأخذت دروسًا في العزف على الناي، وكان أسبوعًا ظريفًا مليئًا

بالغزل في الطابق الثالث، وبالمرح في الطابق الأرضي، مع جاسير وبيشو وتوفيمون. كنتم عرائس صغيرة، رحت أحرك خيوطها كما يحلو لي. ولكن الأمر الذي أزعجني حقًّا هو أن السيد توفيمون كان يجهل تحركات حقيبته، فصار يتأبطها دون أن يدري وهي تحتوي على سنداتك. حيرتني هذه النقطة، وفكرت أيضًا في الحارسة، لا بد أنها ظنت أن السيد توفيمون مختلس هو الآخر، وأنه استغل الموقف واستولى هو على السندات كلها.. مسكين السيد توفيمون!

سأله بيشو:

- هل يجب أن أخبره؟

- وما الجدوى؟ دعه يحمل معه تلك الجرائد القديمة، لا داعي من إحراجه.. ولا تخبر أحدًا بهذه القصة يا بيشو.

قال بيشو:

- فيما عدا السيد جاسير.. يجب أن أطلعه على الحقيقة وأرد له سنداته.

قال بارنيت:

- أيُّ سندات؟

- السندات التي تخصه والتي وجدتها أنت في حقيبة توفيمون..

- هل جُنِنت يا بيشو؟ هل تتصور أن السيد جاسير سيسترد سنداته؟

- طبعًا.

هوى بارنيت بقبضته فوق المنضدة وقد تملكه الاستياء فجأة، وقال:

- هل تعرف حقيقة صاحبك نيكولاس جاسير هذا؟ إنه وغد كابن الحارسة تمامًا.. نعم، وغد! كان يسرق عملاءه ويستحل أموالهم، بل والأسوأ من كل ذلك هو أنه كان يستعد لسرقتهم، وها هي التذكرة التي حجزها في الدرجة الأولى إلى بروكسل، بتاريخ نفس اليوم الذي سحب فيه السندات من خزانة بنك كريدي ليونيه.. لم يفعل ذلك كي يُودِعها بأحد البنوك الأخرى كما زعم، وإنما لكي يهرب بها.. ما رأيك الآن في صديقك نيكولاس جاسير؟!

لم يتفوه بيشو بكلمة، فمنذ أن سُرِقت سنداته، كانت ثقته بجاسير قد تزعزت كثيرًا، ومع ذلك قال له:

- إن عملاءه كلهم رجال شرفاء، فهل تقبل عليهم أن يفلسوا جميعًا؟

- إن ذلك لن يحدث طبعًا، وأنا لا أقبل أن يقع عليهم مثل هذا الظلم..

- حسنًا.

- إن جاسير رجل ثري.

قال بيشو:

- إنه لم يعد يملك شيئًا.

- هذا خطأ، فطبقًا لمعلوماتي الأكيدة، لديه ما يتيح له السداد لعملائه، وسيتبقى له الكثير بعد ذلك. ولمعلوماتك، إن لم يُقدِم على تقديم بلاغ منذ اليوم الأول؛ فذلك حتى لا تتدخل الشرطة وتكشف مخططاته الوضيعة وتُدخِله السجن، وسوف ترى أنه سيتدبر أمره. لا يملك شيئًا؟ إن صاحبك نيكولاس جاسير مليونير، ولا بد أن يدفع ثمن ما اقترفت يداه من أخطاء.

- أفهم من كلامك أنه في نيتك الاحتفاظ بـ....

- الاحتفاظ بالسندات؟ إطلاقًا، إنني بعتها..

- ولكنك تحتفظ بقيمتها.

أبدى بارنيت حركة استياء، وقال:

- أنا لا أحتفظ بشيء.

- وماذا فعلت بها إذن؟

- إنني تبرعت بها.

- لمَن؟

- لأصدقاء يعانون من العوز، ولجمعيات خيرية أقوم بإعانتها.. لا تخف يا بيشو، إن أموال نيكولاس جاسير ستُستخدَم لأغراض صالحة.

لم يشك بيشو في ذلك، وانتهت المغامرة هذه المرة أيضًا باستيلاء بارنيت على الغنيمة. إنه يعاقب المجرمين، فيصوب لهم ضربة قاضية، ويثأر للأبرياء، لكنه لا ينسى أن يكافئ نفسه أبدًا.. فدائمًا ما يدبر أمره؛ حتى ينال حظه من الغنيمة في نهاية المطاف، ولا بد للمحسن وفاعل الخير أن يبدأ بنفسه.

احمر وجه المفتش بيشو؛ فعدم احتجاجه على سرقة بارنيت لسندات العملاء وبيعها يعني اشتراكه الضمني في هذه الفعلة، ولكنه تذكر من ناحية أخرى أن سنداته في جيبه، وأدرك أنه لولا تدخُّل بارنيت لضاعت عليه هذه السندات، ولذلك لم تكن اللحظة مناسبة لأي غضب أو أي انفعال.. سأله بارنيت:

- ماذا بك؟ ألست مسرورًا؟

قال بيشو بكل ثقة:

- بلى، بلى.. بالتأكيد.

ابتسم إذن ما دام كل شيء على ما يرام..

ابتسم بيشو، فصاح بارنيت:

- يسرني أنني أسديت لك معروفًا، وأشكرك على إعطائي هذه الفرصة.. لنفترق الآن يا صاحبي، فلا شك أنك مشغول جدًّا.. وأنا أنتظر زيارة من سيدة..
قال بيشو وهو يمضي نحو الباب:

- الوداع.

رد بارنيت عليه قائلًا:

- بل إلى اللقاء.

خرج بيشو مسرورًا كما قال، ولكن ضميره ظل يؤنبه، وعزم على ألا يلتقي بذلك الرجل ثانيةً أبدًا. وعندما خرج من وكالته، لمح عند منعطف الشارع الكاتبة الجميلة مقبلة، وأدرك أنها السيدة التي ينتظرها بارنيت. وبعد مرور يومين لمح بارنيت الوغد صدفة في صالة السينما برفقة الآنسة الأخرى، عازفة الناي، الآنسة هاڤلين.

الصدفة تصنع المعجزات

تلقى المفتش بيشو تكليفًا بتولي قضية القصر القديم، وبعد أن أُحِيط علمًا بالمعلومات الأساسية، استقل القطار في المساء باتجاه وسط فرنسا؛ حيث ترجل عن القطار في قرية (جيريه)، ونقلته سيارة في صباح اليوم التالي إلى بلدة (مازوريك).

بدأ بزيارة القصر وقد كان سكنًا واسعًا وعتيقًا مُشيَّدًا على جرف محاط بأرض دائرية تحيط بنهر كروز، ويقطنه السيد چورچ كازيفون. كان رجلًا ثريًّا يعمل بالصناعة ورئيس المجلس العام للبلدية ومعروفًا بعلاقاته السياسية، ولا يتجاوز عمره الأربعين عامًا بأي حال من الأحوال. كان رجلًا أنيقًا، ذا ملامح صارمة وحاسمة، تشي أحيانًا بشيء من الجرأة، وهو ما حمل الناس على احترامه، وبما أن القصر كان جزءًا من دائرة أملاكه فقد أراد اقتياد بيشو إليه على الفور.

كان عليهم المرور أولًا بحديقة جميلة مزروعة بأشجار الكستناء قبل الوصول إلى أنقاض برج كان آخر ما تبقى لمازوريك من عصورها الوسطى. كان البرج شاهقًا يعانق السماء، ويطل على نهر كروز وأكوام من الصخور المتحطمة.

أما الضفة المقابلة للقصر، فكانت ملكًا لعائلة أليسكار، وتحتوي على جدار يمتد بطول اثني عشر مترًا مصنوعًا من الحجارة التي تلمع بفعل الرطوبة، وكان هذا الجدار بمثابة سد منيع يفصل بين ضفة آل كازيفون من ناحية، وضفة آل أليسكار من ناحية أخرى. وعلى ارتفاع خمسة أو ستة أمتار، هناك شرفة يحدها درابزين، تطل بدورها على زقاق يفضي إلى الحديقة.. بدا المكان موحشًا.

عرف بيشو أنه في ذلك المكان بالتحديد ومنذ عشرة أيام في الساعة السادسة صباحًا، تم العثور على جثة الكونت الشاب جان أليسكار ملقاة فوق صخرة ضخمة. لم يكن في الجثة أي إصابات سوى الإصابة التي قد تحدث في العموم لأي رجل يسقط على صخرة كتلك، إلا أنه بين فروع الأشجار المتدلية في الفناء المقابل، كان هناك غصن يتدلى حتى جزع الشجرة، وبدا وكأن هذا الغصن انكسر حديثًا. هذا الغصن المتدلي جعل الشرطة تتوقع أن الكونت أليسكار كان يستند على الشجرة، وبينما هو واقف كاد أن يسقط؛ فتشبث بهذا الفرع، لكنه هوى. بدا الأمر إذن كأنه حادث عرضي وصدر تصريح الدفن.

سأل بيشو السيد چورچ كازيفون:

- ولكن ما الذي كان يفعله الكونت عند هذه الشجرة بحق السماء؟

فرد چورچ كازيفون قائلًا:

- كان يشاهد الزنزانة من مكان أعلى وعن قرب، فهذا القصر القديم الذي أقطن

أنا فيه حاليًّا كان ملكًا لعائلته في السابق.

واستطرد بسرعة قائلًا:

- سأكتفي بهذا القدر من الحديث، سيدي المحقق. لا يخفى عليك أن قسم الشرطة قد كلفك بتولي التحقيق في هذه القضية بناءً على طلبي، وهناك بالفعل شائعات مغرضة تدور حولي ووشايات تصيبني بضرر مباشر، وأرغب في وضع حد لكل ذلك. باشِر التحقيقات يا سيدي. قم باستجواباتك، واحرِص على أن تقرع باب منزل الآنسة الكونتيسة أليسكار، أخت الضحية وآخر مَن تبقى من عائلة أليسكار، وعندما تنتهي من عملك وتقرر الرحيل، دعني أسلم عليك.

لم يهدر بيشو أي وقت، ألقى نظرة على أسفل البرج المتهالك ودلف إلى الداخل، فوجد بقايا الأحجار المتراكمة بفعل انهيار الأرضيات والدَرج. عاد بيشو بعد ذلك إلى البلدة وشرع في استجواباته، فزار الكاهن والعمدة، ثم تناول طعامه في الفندق.

ونحو الساعة الثانية توجه بيشو نحو الضفة المقابلة، عند آل أليسكار، فمر بالحديقة الضيقة التي كانت تفضي إلى الشرفة المقابلة لقصر السيد كازيفون، والتي بني في منتصفها بناية صغيرة متهالكة لا شكل لها تُسمَّى بـ(العزبة).

وطلب بيشو من خادمة عجوز إبلاغ الآنسة أليسكار بوصوله، فتم استقباله على الفور في غرفة الضيوف التي احتوت على أثاث متواضع. كانت السيدة الشابة تتحدث في هذه الغرفة إلى رجل.

نهضت الآنسة، وكذلك فعل الرجل.. تعرَّفه بيشو على الفور، إنه چيم بارنيت.

صاح چيم بارنيت بسعادة، ومد يده قائلًا:

- أخيرًا وصلت يا صديقي العزيز! ما إن وقعت عيناي على خبر نُشِر في جريدة اليوم، يفيد بقدومك إلى إقليم نهر كروز، حتى استقللت سيارتي الـ(40) حصانًا لألحق بك وأعاونك على الفور.. كنت بانتظارك. آنستي، اسمحي لي أن أقدم لكِ المفتش بيشو، المبعوث الخاص للشرطة. لا داعي للقلق في وجوده على الإطلاق، إنه محقق قدير وأراهن على أنه قد حل القضية برمتها قبل حتى أن يلتقي بكِ. لا أعرف محققًا أكثر مهارةً منه. إنه بارع بكل ما تحمله الكلمة من معنى. تحدَّث يا بيشو، ماذا بك؟

لم ينبس بيشو ببنت شفة، وبدا مشوشًا ومضطربًا، فلم يتوقع قدوم بارنيت على الإطلاق، واستشاط غضبًا من فكرة أنه سيضطر للتعامل مع چيم بارنيت الذي يثير حنقه.. بارنيت مجددًا! بارنيت من جديد! أدرك أنه عليه أن يتعامل معه ويتحمل أساليبه الملتوية البغيضة، كيف يفعل بعدما أيقن أن بارنيت لا يعمل إلا بالخداع والاحتيال؟

لم يعرف ماذا يقول للآنسة أليسكار بعدما قدَّمه چيم بارنيت بهذه الطريقة الباهرة، فهو حتى الآن لم يفعل شيئًا سوى أنه تجول في أزقة البلدة، ولم يتمكن من النيل بأصغر اكتشاف.

وأمام صمت بيشو، قال بارنيت:

- حسنًا آنستي، إن المفتش بيشو أخذ وقته حتمًا في التحقق من الفرضيات التي تدور في رأسه، وينتظر منكِ الآن أن تؤكدي له الاستنتاجات التي توصل إليها. وبما أننا لم نتبادل سوى بضع كلمات أنا وأنتِ، فهل يمكن أن تتفضلي بإخبار المفتش بما تعرفينه عن هذه المأساة التي ذهب ضحيتها أخوكِ الكونت، سليل عائلة أليسكار؟

كانت إليزابيث أليسكار ترتدي ثوب الحداد، وهي طويلة القامة، فائقة الجمال، شاحبة الوجه وصارمة الملامح. ارتجف وجهها من الدموع التي تحبسها. وقالت:

- كنت أود لو التزمت الصمت دون أن أتهم أحدًا، ولكن تلبيةً مني لطلبكم؛ فإنني على استعداد للرد يا سيدي.

استطرد بارنيت قائلًا:

- يرغب صديقي المفتش بيشو في معرفة الساعة التي رأيتِ فيها أخاكِ لآخر مرة.

- في العاشرة مساءً، بينما كنا نتناول العشاء وسط أجواء سعيدة كالعادة. كنت أعشق جان الذي يصغرني ببضعة أعوام، وأنا التي ربيته تقريبًا.. سعدنا بحياتنا كثيرًا..

- وهل خرج ليلًا؟

- لا، لم يخرج إلا قبل الفجر بقليل، قرابة الثالثة والنصف صباحًا.. سمعته مربيتنا العجوز.

- هل تعرفين إلى أين كان ذاهبًا؟

- لقد أخبرني في اليوم السابق أنه كان سيذهب لصيد الأسماك من النهر الذي تطل عليه الشرفة. كان الصيد متعته التي شُغِف بها.

- إذن لا تعرفين أي تفاصيل عما حدث بين الساعة الثالثة والنصف صباحًا، والساعة التي عُثِر فيها على جثته؟

- بلى، في السادسة والربع سمعت صوت إطلاق نار.

أكد بارنيت أقوالها، وأردف:

- نعم، أخبرني بعض الأشخاص أنهم سمعوا الصوت نفسه، ولكن ربما كان صوت صياد آخر..

- هذا ما تبادر إلى ذهني، ولكن انتابني القلق فنهضت وارتديت ملابسي. عندما وصلت إلى الشرفة، كان هناك بالفعل أشخاص في الجهة المقابلة يحملونه نحو حديقة القلعة، فالمنحدر صعب للغاية.

سألها بارنيت:

لكن صوت الطلقات هذا لا يمكن أن يكون له علاقة بوفاة أخيكِ، أليس كذلك؟ وإلا لكان الطب الشرعي عثر في جثته على إصابة بعيار ناري، أليس كذلك؟

أمام تردُّد الآنسة إليزابيث، باغتها بارنيت قائلًا:

- أجيبي من فضلك.

فصرحت قائلة:

- لا أعبأ بتقارير الطب الشرعي، ففي رأيي أنا، هناك صلة بين هذا الصوت وسقوط أخي.

- لماذا؟

- لأنني لا أرى تفسيرًا آخر.

فسألها بارنيت:

- ألم يكن حادثًا عرضيًّا إذن؟

- كلا، كان جان رشيقًا وحذرًا للغاية. لم يكن ليتشبث بهذا الغصن الرفيع.

- ورغمًا عن ذلك فقد انكسر هذا الغصن.

- لا شيء يدل على أن الفرع قد انكسر بسببه، أو أنه انكسر في تلك الليلة من الأساس.

حسم بارنيت النقاش، وقال لها:

- إذن فأنتِ تظنين أن هناك جريمة قد وقعت، أليس كذلك؟

- بلى.

- وقد اشتبهتِ في الفاعل، أمام بعض الشهود.

- نعم.

- وعلى أي دليل استندتِ؟ المفتش بيشو يحتاج منكِ إلى توضيح.

ظلت إليزابيث تفكر لبضع ثوانٍ، فاسترجاعها لتلك الذكريات الأليمة كان يفطر قلبها ويعصف بها.. خرجت عن صمتها أخيرًا، وقالت:

- سأتكلم إذن، لكن دعوني أسرد لكم حدثًا يعود إلى أربعة وعشرين عامًا.. في ذلك الوقت كان والدي على وشك الإفلاس بسبب فرار المحاسب الذي يعمل

عنده بمبالغ مالية ضخمة، وحتى يتمكن من رد ديونه؛ اضطر للتعامل مع أحد أغنياء بلدتنا. أقرض رجل الأعمال هذا أبي مئتَي ألف فرنك؛ شريطة أن تؤول إليه ملكية القصر القديم والبرج، وكل أراضينا في مازوريك إن لم يسدد الدين في غضون خمس سنوات.

- هل رجل الأعمال هذا هو والد چورچ كازيفون؟

- نعم.

- هل كان يطمع في هذه العزبة؟

- نعم، وحاول شراءها المرة تلو الأخرى؛ لذلك، بعد أربع سنوات وأحد عشر شهرًا، عندما تُوفِّي والدي بسكتة دماغية، أخبرنا عمنا والوصي علينا أنه أمامنا شهر لتسديد هذه الديون. لم يكن أبي قد ترك شيئًا لنا. استحوذ كازيفون على القصر القديم والبرج، وطردنا أنا وأخي من القصر، فاستقبلنا عمي الذي كان يسكن هذه العزبة، ولكن لم يملك موارد مالية وفيرة. بعد فترة قصيرة، تُوفِّي عمي وكذلك السيد كازيفون والد چورچ كازيفون.

أنصت كُلٌّ من بارنيت وبيشو باهتمام بالغ، ثم أردف بارنيت قائلًا:

- يعجز صديقي المفتش بيشو عن فهم العلاقة بين كل ما سردتِه من أحداث وبين واقعة ذلك اليوم.

رمقت الآنسة أليسكار المفتش بيشو بنظرة يشوبها السخرية والاستخفاف، واستطردت دون أن تعبأ به:

- وهكذا عشت أنا وأخي جان بمفردنا في هذه البلدة الصغيرة بمواجهة القصر القديم والبرج الشاهق اللذين ورثهما چورچ كازيفون عن أبيه، واللذين كانا ملك لأسلافنا في الماضي. أُصِيب أخي جان بحسرة ومرارة بالغة كانت تتضاعف مع الأيام وتزداد حدةً طرديًّا مع احتداد ذكائه وحساسيته في مرحلة المراهقة.

لقد عانى حقًّا من واقعة طرده من القصر الذي كان يعُدُّه ملكًا له. وبينما كان يشب، قضى أيامًا كاملة في تصفُّح أرشيفنا للاطلاع على الكتب التي تتحدث عن عائلتنا. وعكف على هذا الأمر حتى اكتشف في أحد الأيام بين طيات أحد الكتب، دفترًا كان يُدوِّن فيه أبي حسابات السنوات الأخيرة من حياته، وكذلك المبالغ التي وضعها جانبًا من مدخراته ومن بعض الصفقات الناجحة. وجد مع هذا الدفتر كشفًا صادرًا من أحد المصارف. ذهبت حينها إلى هذا المصرف وعلمت أن والدي، قبل أسبوع من وفاته، قام بإغلاق حساب الودائع الخاص به، وسحب المئتَي ألف فرنك التي قام بادخارها على مر السنوات السابقة.

قال بارنيت:

- أليس هذا هو بالضبط المبلغ الذي كان عليه أن يسدده في الأسابيع المتبقية من مهلته، لچورچ كازيفون؟ لماذا تأخر إذن في سداد هذه الدفعة؟

- لا أعلم.

- ولماذا لم يقم بتحرير شيك بالسداد؟

- لا أدري، كان لأبي طقوسه الخاصة.

إذن، من وجهة نظركِ، فإن والدكِ كان قد ادخر المئتَي ألف فرنك، أليس كذلك؟

- بلى.

- ولكن أين وضعها؟

سلمت إليزابيث أليسكار بارنيت وبيشو دفترًا مكونًا من عشرين صفحة مليئًا بالأرقام.

أشارت إلى الصفحة الأخيرة من الدفتر حيث كان مرسومًا فيها ثلاثة أرباع دائرة، عن يمينها نصف دائرة بقطر أصغر، قائلة:

- لا بد أن الجواب يكمن هنا.

كانت هناك أربعة خطوط تقطع نصف الدائرة، وبين كل خط والآخر هناك علامة (إكس X). رسم كل ذلك بالقلم الجاف الذي تظهر من تحته آثار قلم رصاص، تشير إلى أن السيد أليسكار كتب بالرصاص أولًا.

قال بارنيت:

- ما المقصود بهذه الرسوم؟

أجابته إليزابيث:

- لقد استغرقنا وقتًا طويلًا لفهم الرسم، حتى اكتشف جان المسكين ذات يوم أن هذا الرسم يمثل خريطة تفصيلية للبرج الملحق بالقصر القديم. هذه الدوائر ما هي إلا رسم لجزءين غير متساويين من الدوائر الملتحمة ببعضها البعض، وهذا يتطابق مع تصميم البرج الملحق بالقصر القديم من الداخل. وتشير الخطوط الأربعة إلى الفتحات الأربع المبنية فوق الزنزانة الموجودة أعلى البرج، والتي تشبه فتحات إطلاق النار ورمي السهام في الحصون والقلاع.

قاطعها بارنيت قائلًا:

- وعلامة (إكس) تشير إلى المكان الذي خبأ فيه الكونت أليسكار المئتَي ألف فرنك، حتى يحل موعد استحقاق المبلغ؟

ردت الفتاة بوضوح:

- نعم.

أخذ بارنيت يفكر وهو يتفحص المستند، ثم ختم كلامه قائلًا:

- هذا احتمال وارد بالفعل، فقد يكون الكونت أليسكار قد دوَّن مكان المبلغ

كإجراء احتياطي، ولكن وافته المنية بغتةً قبل أن يتمكن من إخبار أحد عن هذا المكان، لكن كان يكفيكم فقط إبلاغ ابن السيد كازيفون والحصول على إذن منه للولوج للبرج، أليس كذلك؟

- أتقصد إذنًا للصعود إلى قمة البرج؟ هذا ما قمنا به بالفعل. وقد استقبلنا چورچ كازيفون نفسه، الذي لم تكن تجمعنا به إلا علاقة سطحية، بمنتهى الود. ولكن كيف لنا الوصول إلى الزنزانة؟ فالسلالم انهارت منذ خمس عشرة سنة والطوب نفسه يتفتت، حتى إن قمة البرج تتهاوى الآن. لا يُوجَد سلم ولا حتى مجموعة سلالم متصلة ببعضها البعض يمكنها أن توصلنا إلى فتحات على ارتفاع ثلاثين مترًا، إلا إذا فكرنا في تسلُّق البرج.. وقد تشاورنا مع چورچ كازيفون لعدة أشهر، قبل أن ينتهي الأمر بـ....

قال بارنيت:

- بالقطيعة؟

ردت وقد احمر وجهها:

- نعم!

- لا بد وأن كازيفون أُعجِب بكِ وطلب يدكِ؛ فرفضتِ.. فتحولت طريقته معكما وصار عدائيًّا، ثم انقطعت الأواصر، ولم يعد مسموحًا لجان أليسكار الولوج إلى سكن مازوريك.. أليس كذلك؟

قالت الفتاة الشابة:

- هذا ما حدث بالفعل، ولكن أخي لم يرتدع. كان يرغب في استرداد أموالنا ليسترجع جزءًا من أملاكنا أو يوفر لي المهر الذي يسمح لي بالزواج. وقد سيطرت عليه هذه الفكرة إلى حد الهوس. كان يعيش في غرفة تطل على البرج، فيتأمل قمته بعيدة المنال بلا كلل ولا ملل. اخترع ألف طريقة للوصول إليه، فتدرب على الرمي بالقوس، ومع بزوغ الفجر، كان يطلق سهامه المربوطة بحبل على أمل أن يسقط سهم في الجهة المقابلة، فيتمكن لاحقًا من التعلق بهذا الحبل والعبور إلى الجهة الأخرى، حتى إنه أحضر معه ذات مرة ستين مترًا من الأحبال. وعشية وفاته قال لي: «إن كنت أجتهد للوصول للبرج بهذا الشكل؛ فذلك لأني متيقن من النتيجة. ستُكلَّل محاولاتي بالنجاح، وستحدث معجزة ما، أنا أشعر بذلك صدقيني. سينتصر الحق، سواء بمعجزة تحدث بترتيبات القدر، أو بإرادة الرب».

استطرد بارنيت قائلًا:

- فهل أنتِ متأكدة أنه مات في أثناء إحدى محاولاته؟

- نعم.

- هل بقي الحبل في المكان الذي تركه أخوكِ فيه؟

- نعم.

- إذن فأين دليلكِ؟

- دوي إطلاق النار.. أظن أن چورچ كازيفون باغت أخي، وأطلق النار عليه.

صاح بارنيت قائلًا:

- ماذا؟ أتعتقدين أن چورچ كازيفون قادر على ارتكاب مثل هذه الفعلة؟

- نعم، فطبيعته الاندفاعية يمكن أن تدفعه للتعامل بعنف وارتكاب أي جريمة، رغم أنه كان يتحكم في نفسه في أغلب الأحيان.

- ولِم قد يطلق النار على أخيكِ؟ للاستيلاء على الأموال التي كان يملكها بالفعل؟

- قالت الآنسة أليسكار:

- لا أعلم، ولا أدري أيضًا كيف تمت هذه الجريمة؟! لا سيما وأن جثة عزيزي چان خلت من أي أثر لأي إصابة بعيار ناري، ولكنني متأكدة مما أقول.

قال بارنيت:

- أيًّا ما يكن، أقوالكِ هذه مستندة على افتراضات ليس إلا، وهذه الافتراضات لا تكفي في الأوساط القضائية. كما أن چورچ كازيفون قد يتقدم ببلاغ ضدكِ بتهمة تشويه سمعته، أليس كذلك يا بيشو؟

نهضت الآنسة أليسكار، وردت بحدة:

- لا شأن لي بكل ذلك، إنني لم أتحدث حتى أثأر لأخي المسكين؛ لأنه لن يعود للحياة في كل الأحوال حتى لو تمت معاقبة الجناة، لكنني أخبرتكم بما يمليه عليَّ ضميري، وليقاضيني چورچ كازيفون إن شاء، سأظل متشبثة بما قلته.

صمتت قليلًا، ثم أضافت:

- لكنه سيظل متكتمًا على الأمر.. كن على ثقة من ذلك يا سيدي.

انتهت المقابلة.. لم يُصِر چيم بارنيت على استكمال الحديث، فالآنسة أليسكار لا تهاب شيئًا. قال لها فقط:

- نعتذر عن إزعاجكِ يا آنسة، لكن كان علينا أن نتحدث معكِ ونستمع إلى أقوالكِ؛ حتى تنكشف الحقيقة، وكوني على ثقة أن المفتش بيشو سيبدد غموض القضية من خلال ما سرديته علينا.

ألقى بارنيت وبيشو عليها السلام ثم غادرا.

خرج بارنيت والمفتش بيشو الذي لم يتفوه بكلمة حتى الآن، ربما تعبيرًا منه

عن اعتراضه على تدخُّل بارنيت في القضية، أو لإخفاء الارتياب الذي كان يشعر به بسبب ملابسات هذه القضية العصيبة، أما بارنيت فأخذ يثرثر، فقال له:

- أنت محق يا بيشو، وأنا أوافقك الرأي فيما يدور في عقلك. اعذرني فيما سوف أقول، ولكن هذه القضية فيها لغط كثير، وفيها ملابسات منطقية وملابسات غير منطقية.. كما أن تصرفات جان أليسكار صبيانية للغاية. إن كان ذلك الفتى المسكين قد نجح فعلًا في الوصول إلى قمة البرج، وهو ما لا أستبعده، رغم أنني أعرف أنك لا تميل لهذه الاحتمالية، فإنه لم يصل لقمة البرج إلا بفضل هذه المعجزة التي تمناها من أعماق قلبه، والتي لا نعرف عنها شيئًا حتى الآن. كيف لهذا الشاب أن يخترع طريقة لتسلُّق البرج وينجح في تنفيذ خطته ويتسلق البرج حقًّا، ثم يهبط منه ثانيةً، وينتهي به الأمر إلى السقوط في الهاوية بسبب عيار ناري لم يُصِبه؟ كيف حدث كل ذلك في غضون ساعتين؟

ظل بارنيت يكرر هذا التساؤل:

- عيار ناري لم يُصِبه.. هناك إعجاز في كل هذا يا بيشو.

اجتمع بيشو وبارنيت في فندق البلدة مساءً. تناول كُلٌّ منهما العشاء بمفرده، واستمر الحال على هذا النحو لمدة يومين آخرين، لم يتقابلا فيهما سوى في أثناء تناوُل الطعام. أما بقية الوقت، فكان بيشو يتابع تحقيقاته واستجواباته، وبارنيت يتجول حول حديقة القصر، حتى استقر في نهاية المطاف في مكان بعيد عن الفناء؛ حيث أخذ يراقب من موقعه على التلال، برج القصر القديم، ونهر كروز. كان يقضي وقته في صيد الأسماك وتدخين السجائر وفي التأمل في أحلام يقظته. وحتى يتمكن من الوقوف على تلك المعجزة، كان عليه أن يتخيل هذه المعجزة، لا أن يتتبع آثارها على أرض الواقع.. أخذ يتساءل عن هذه المعجزة التي يمكن أن تكون قد خدمت جان أليسكار وساعدته على تنفيذ خطته.

في اليوم الثالث، ذهب بارنيت إلى قرية (جيريه)، ويبدو أنه كان عازمًا على المضي قدمًا في تحقيقاته.

وأخيرًا في اليوم الرابع قابل بيشو، الذي قال له:

- لقد انتهيت من التحقيق.

رد بارنيت:

- وأنا أيضًا.

فقال له بيشو:

- سأعود إذن إلى باريس.

- وأنا أيضًا سأعود إلى باريس. دعني أصطحبك معي في سيارتي.

- حسنًا، لديَّ موعد مع السيد كازيفون بعد أربعين دقيقة.

قال له بارنيت:

- عظيم، سألاقيك حينها، لقد طفح كيلي من هذا الوضيع.

قام بارنيت بدفع حسابه في الفندق وتوجه إلى القصر، فزار الحديقة، ثم أعطى چورچ كازيفون بطاقة مكتوبًا عليها: «مساعد المفتش بيشو».

وتم استقباله في قاعة واسعة كانت تشغل جناحًا كاملًا، مزينة برءوس الغزلان، وبمجموعة متنوعة من الأسلحة، والبنادق، وتصاريح استخدام الأسلحة النارية، وتصاريح صيد.

لحق به چورچ كازيفون.. قال له بارنيت:

- من المفترض أن يلتقي بي صديقي المفتش بيشو هنا. لقد تعاونا معًا خطوة بخطوة في هذه القضية وسنغادر معًا.

سأله چورچ كازيفون:

- وما رأي المفتش بيشو في القضية؟

- إنه رجل نمطي ويرى أن ملابسات القضية مباشرة وصريحة، ولا يكترث بالضجيج الذي يُثار حولها.

- وماذا عن الآنسة أليسكار؟

- يرى المفتش بيشو أنها لم تتخطَّ ألم فراق أخيها، وأن أقوالها فيها شيء من الغموض.

- هل تشاركه هذا الرأي أيضًا يا سيد بارنيت؟

- أنا؟ أنا لست سوى مساعد متواضع يا سيدي، ورأيي مقترن برأي المفتش بيشو.

كان بارنيت يتجول في بهو القاعة ويتأمل الفترينات الزجاجية وما تحتويه من مقتنيات.

قال كازيفون:

- هل أعجبتك البنادق؟

- نعم، إنها رائعة.

- هل تستهويك البنادق؟

- إنني معجب بمهارتك وبراعتك أكثر من هذه البنادق، ومعجب أيضًا بكل تلك الشهادات والمؤهلات التي حصلت عليها من مؤسسات مرموقة، مثل: مؤسسة (طلاب القديس هيوبرت)، ومؤسسة (صيادو كروز)، هذه كلها أدلة

تثبت كم أنك متمكن في الرماية. وهذا ما أخبروني به أمس في (جيريه).

- هل يتحدث الناس عن القضية في (جيريه)؟

- لا، لكنهم يتحدثون عن مهارتك الاستثنائية في الرماية والتصويب.

أمسك بارنيت ببندقية وأحكم قبضته عليها وأخذ يزنها بيدَيه.

قال له چورچ كازيفون في ذعر:

- انتبِهْ، إن هذه البندقية محملة بالذخيرة!

- هل تستخدمها للدفاع عن نفسك ضد المجرمين؟

- بل ضد الصيادين المخالفين.

- حقًّا؟ هل تجرؤ على إطلاق النار على أحدهم؟

- يكفيني فقط أن أصيبه في إحدى ساقَيه.

- وهل تطلق النار عادةً من هذه النافذة؟

- لا، لا يقترب الصيادون المخالفون إلى هذا الحد!

- خسارة، كان الأمر ليكون ممتعًا. يا لها من متعة استثنائية!

فتح بارنيت نافذة صغيرة جدًّا في ركن البهو.

وصاح فجأة:

- انظر! يمكننا رؤية الزنزانة القديمة عبر هذه الأشجار، على بعد ما يقرب من مئتين وخمسين مترًا تقريبًا. لا بد أن هذا الجزء يطل على نهر كروز، أليس كذلك؟

- تقريبًا.

- بل يطل عليه مباشرةً.. أظنني رأيت باقة الزهور تلك من قبل.. هل تراها؟ وهل ترى هذه الزهرة الصفراء الموجودة عند طرف البندقية؟

أسند بارنيت البندقية إلى كتفه، وأطلق بحماس، فأسقط الزهرة.

كان المرح يرتسم على وجه چورچ كازيفون. تُرَى ما الذي يرمي إليه هذا (المساعد المتواضع) ذو الأسلوب الفج؟ وبأي حق كان يفتعل كل هذا الضجيج؟

تابع بارنيت:

- يسكن خدمك في الجهة المقابلة للقصر، أليس كذلك؟ لا يمكنهم سماع ما يدور هنا إذن.

لكني على الأرجح اجتررت بهذا العيار الناري الذي أطلقته لتوي ذكرى أليمة على الآنسة أليسكار.

ابتسم چورچ كازيفون، وقال:

- إذن فالآنسة أليسكار مصرة على أن هناك علاقة بين صوت إطلاق النار الذي سُمِع في صباح ذلك اليوم، وبين الحادث الذي وقع لأخيها؟

- بالفعل.

- كيف اختلقت هذا الرابط؟

- لا شك أنها تخيلت أنه كان هناك شخص يقف أمام النافذة هنا ويطلق النار، وأن أخاها كان في الجهة المقابلة متدليًا عند زنزانة البرج.

- ولكن ألم يمت أخوها نتيجة لسقوطه؟

- لقد سقط بعدما تم تحطيم الحجر الذي كان ممسكًا به بكلتا يديه في أثناء تسلُّقه.

اضطرب چورچ كازيفون، ثم قال:

- لم أكن أعرف أن أقوال الآنسة أليسكار تتحول لاتهامات رسمية موجهة لي.

ردد بارنيت وراءه:

- اتهام رسمي.

ظل كازيفون يحدق في بارنيت وهو مشدوه، فجرأة المساعد المتواضع ولهجته الحاسمة، والقرار الذي يبدو أنه كان قد اتخذه بشأنه، كل ذلك أدهشه، فتساءل إذا ما كان المخبر متحفزًا ضده، فهذا اللقاء الذي بدأ بشكل ودي، سرعان ما اتخذ منحًى هجوميًّا أصبح يلزم كازيفون على الدفاع عن نفسه.

جلس كازيفون فجأة، ثم قال:

- وما كان هدف تسلُّقه للبرج وفقًا لأقوالها؟

- استرداد مئتَي ألف فرنك كان قد خبأها والده في مكان ما مشار إليه بعلامات (إكس) في الرسم الصغير الذي أريتك إياه.

قال چورچ كازيفون:

- اعذرني، لا أتفق أبدًا مع هذا الاستنتاج، وإن افترضنا أن والدها كان قد خبأ ذلك المبلغ بالفعل، فلماذا لم يُعطِه لوالدي بدلًا من إخفائه؟

قال بارنيت:

- أعترف أن كلامك منطقي، لكنه لم يخبئ عملات ورقية.

- ماذا خبأ إذن؟

- لا أدري، علينا أن نخمن.

رفع چورچ كازيفون كتفيه في حيرة، ثم قال:

- أظن أن إليزابيث وجان قد ساروا وراء كل الفرضيات الممكنة.

- نعم، لكنهما ليسا محترفين مثلي!

- مهما بلغت براعتك، فلا يمكن لك أن تختلق روايات من العدم.

- أظنني قادرًا على ذلك. هل تعرف السيد جريوم الذي يعمل في مستودع الصحف في (جيريه)، والذي عمل سابقًا محاسبًا في مصانعك؟

- نعم أعرفه.. بالتأكيد، فقد كان رجلًا ممتازًا.

- يدَّعِي السيد جريوم هذا أن والد الكونت جان قد زار والدك في اليوم التالي لتاريخ سحبه للمئتَي ألف فرنك من البنك.

- وما دلالة ذلك؟

- يمكن أن نستنتج من ذلك أن والد جان قد سدد لوالدك المئتَي ألف فرنك بالفعل في أثناء تلك الزيارة، وأن ما تم إخفاؤه في الزنزانة أعلى البرج ما هو إلا إيصال بالسداد؟

قفز چورچ كازيفون، وقال:

- سيدي، هل تدرك حجم الضرر الذي قد يلحق بسمعة والدي من استنتاج أهوج مثل هذا؟

قال بارنيت ببراءة:

- لِم كل ذلك؟

- لو كان والدي قد تسلم مبلغًا كهذا لكان أبلغني به.

- وما الذي يجبره على ذلك؟ لا شيء يجبره على الإفصاح عن عملية السداد هذه.

ضرب چورچ كازيفون المكتب برسغه، وقال:

- ولكن لو كان الأمر كذلك لما كان والدي وثق انتقال أملاك الراحل أليسكار إليه، بعد مرور أسبوعين على وفاة الرجل!

- هذا ما حدث صدِّقْني.

- إن ما تقوله ضرب من الجنون! يجب أن يستند كلامك على قدر من المنطق قبل أن تصدر أحكامًا بهذا الشكل. لماذا سيستحوذ والدي على أملاك الراحل أليسكار لو كان هذا الأخير قد سدد بالفعل دينه له؟! لو كان أليسكار سدد لوالدي ديونه لوضع أبي في حسبانه إمكانية أن يُظهِر أحد أبناء أليسكار إيصال السداد هذا!

استطرد بارنيت بلا مبالاة، قائلًا:

- ربما كان والدك يعلم أن السيد أليسكار لم يخبر أحدًا بأنه سدد ديونه، وبما أن والدك كان متمسكًا بامتلاك هذا القصر؛ كما أخبرني العامة، فقد استسلم للمغريات وتكتم على الأمر.

مع تمادي بارنيت في تلميحاته، تغير مجرى الحديث شيئًا فشيئًا، فقد أصبح كازيفون الأب مشتبهًا به، ومشكوكًا في أمره وفي نواياه، وقد يتورط في جناية نصب واحتيال.

تجهم وجه چورچ كازيفون واستشاط غضبًا، وأغلق قبضتَيه بإحكام وهو ينظر لهذا المساعد الذي كان يسرد بكل هدوء حقائق حدثت على خلفية ذلك اليوم الشنيع. قال كازيفون:

- أسجل اعتراضي على طريقتك يا سيد بارنيت، إنك تتفوه بأقاويل عبثية.

- عبثية؟ أؤكد لك أن الأمر ليس كذلك. لم أذكر أي شيء غير منطقي.

كسر چورچ كازيفون الحلقة المفرغة التي حاصره فيها خصمه، بهذه الاتهامات والفرضيات، فصاح قائلًا:

- هذا كذب! ليس لديك أي دليل يثبت أن والدي قد اقترف هذا الفعل الشنيع، وللعثور على هذا الدليل عليك أن تصعد إلى قمة البرج وتبحث عن الإيصال الذي تدَّعِي أنه موجود بالأعلى

- لقد ذهب جان أليسكار بالفعل.

- لم يحدث! لا يمكن أن يتسلق أي أحد برجًا ارتفاعه ثلاثون مترًا، فهذا يفوق قدرات البشر، ثم كيف له أن يفعل ذلك في ساعتين فقط.

قال بارنيت في إصرار:

- فعلها جان أليسكار.

فرد عليه چورچ كازيفون وقد فاض به:

- كيف؟! أي حيلة مكنته من ذلك؟!

ترك بارنيت الكلمات تنساب من فمه، فقال:

- باستخدام حبل.

انفجر كازيفون من الضحك.

- حبل؟ ما هذا الهراء! لا أنكر أنني رأيته عدة مرات يرمي بالسهام على أمل أن يتمكن ذات مرة من تثبيت أحباله على قمة البرج وتسلُّق البرج. يا له من فتى مسكين! معجزات كهذه لا تحدث، وإذا تغاضينا عن هذه التفاصيل، فكيف فعل كل ذلك في ساعتين فقط؟ ولو فرضنا أنه تسلق البرج فعلًا، فكان سيتعين

علينا حينها أن نجد الحبل معلقًا على البرج بعد سقوطه.

رد جيت بارنيت في هدوء، وقال:

- لم يتسلق البرج بواسطة حبل من أحباله.

ظل چورچ كازيفون يضحك، وقال:

- أيُّ حبل إذن؟ أما زلت جادًّا فيما تقصه عليَّ؟ هل أفهم من كلامك أن الكونت جان حمل معه حبله السحري ونزل في الفجر إلى الحديقة وقرأ تعويذات سحرية فانفك الحبل تلقائيًّا وانساب عاليًا، وتعلَّق بأعلى البرج ليتيح له تسلُّقه؟ المتصوفون الهندوس يفعلون هذه الحركات أحيانًا!

قال بارنيت:

- نعم يا سيدي، ها أنت قد اقتربت من كشف اللغز، فالسيد جان كان بحاجة لمعجزة حقًّا. وقد بنيت فرضياتي أنا أيضًا على هذه الفكرة. وما حدث كان معجزة حقيقية، لكنها لم تحدث وهو يحاول أن يلقي حبله عاليًا، من الأسفل إلى الأعلى، بل حدثت من الأعلى إلى الأسفل.

أخذ كازيفون يمزح، ويقول:

- إذن هو القدر! ألقى القدر بطوق النجاة للشخص الذي اصطفاه؟ سقط حبل من السماء فوق البرج فتشبث به أليسكار، وتسلق البرج.

قال بارنيت في هدوء:

- المعجزة التي أقصدها ليست معجزة إلهية تخالف قوانين الطبيعة، إنما هي معجزة حدثت بفعل الصدفة كما يحدث في زمننا هذا.

- الصدفة!

- لا شيء مستبعد، فالصدفة تصنع المعجزات، فالصدفة هي أكثر القوى براعةً وأكثرها سحرًا ونفوذًا، فالصدفة تقرب البعيد وتبعد القريب، وتخلق أكثر الأمور غرابةً وأكبرها غموضًا.. لم يعد هناك مكان للمعجزات اليوم؛ لأن الصدف هي ما تصنع المعجزات. فكِّرْ معي ماذا يمكن أن يسقط علينا من السماء غير النيازك وجسيمات من عوالم أخرى؟

قهقه كازيفون، وقال:

- أحبال!

- أحبال وأشياء أخرى، فقاع البحر على سبيل المثال مليء بكل ما يسقط من السفن.

- لا تُوجَد سفن في السماء.

- نعم، تُوجَد سفن في السماء لكن تحت مسميات أخرى، فنطلق عليها مثلًا

طائرات أو سفن جوية ومنطادات. تلك السفن تعبر السماء في كل اتجاه كما تفعل السفن في البحار ويمكن لآلاف الأشياء أن تسقط من على متنها. يمكن أن تلقي إحدى هذه المنطادات بربطة حبل تنزل مباشرة فوق البرج فيتعلق طرفها بسور زنزانة البرج، ويتدلى بقية الحبل حتى الأرض.. ما رأيك؟

رد عليه كازيفون باستهزاء:

- سيناريو ساذج!

- لا، إنه سيناريو واقعي للغاية.. أدعوك لقراءة الصحف التي نُشِرت الأسبوع الماضي كما فعلت أمس، وسوف تكتشف أنه كان هناك منطاد ضل عن وجهته، وحلَّق فوق منطقة نهر كروز عشية وفاة الكونت جان. كان المنطاد متجهًا من الشمال إلى الجنوب وتخلص في طريقه من بضعة أكياس من الرمال على بعد خمسة عشر كيلومترًا من (جيريه).. وقد تخلص أيضًا من لفة حبل اشتبك أحد طرفَيه بأعلى سور البرج، واشتبك الطرف الآخر في شجرة من أشجار شرفة أليسكار، فاضطر الكونت إلى كسر ذلك الفرع لفك الحبل منه، ثم هبط من الشرفة وهو يمسك بطرف الحبل، ثم فكر في الوصول إلى أسفل البرج، وحاول تسلُّق البرج.. يا له من إنجاز صعب! ولكن ليس على فتى في مثل عمره.

تجهم وجه كازيفون، ثم همس قائلًا:

- وماذا بعد؟

اختتم بارنيت قائلًا:

- ثم رآه أحد الأشخاص وهو يتدلى في الهواء معلقًا على البرج، فأطلق النار على الصخرة التي كان الحبل معلقًا بها في البرج، فسقطت الصخرة، وسقط الحبل، وسقط أليسكار نفسه.

صاح كازيفون قائلًا:

- هكذا إذن! هذا ما تظنه؟

استكمل بارنيت قائلًا:

- نعم، ثم ركض هذا الشخص مسرعًا إلى النهر، وفتش الجثة لانتزاع الإيصال منها، فأمسك بالحافة المتدلية من الحبل، وجذب الحبل إليه بالكامل، وذهب لإلقاء هذا الحبل الذي يدينه في بئر ما، تمكنت الشرطة من العثور عليه لاحقًا بسهولة.

تحولت أصابع الاتهام فجأة إلى كازيفون الابن من بعد أبيه.. تشابك الماضي مع الحاضر بشكل عجيب، فورث الابن عن أبيه الأملاك، والاتهامات أيضًا.

حاول كازيفون تبرئة نفسه، فثار فجأة على بارنيت بدلًا من دحض كلامه، وقال:

- لقد سئمت من هذه التفسيرات غير المتسقة، ومن هذه الفرضيات العشوائية.. اغرب عن وجهي! سأبلغ السيد بيشو بأني طردتك أيها المحتال!

- صدِّقني يا كازيفون، لو كنت أريد ابتزازك لكنت استهللت حديثي بالأدلة التي أملكها بين يدَي.

رد كازيفون وقد فقد صوابه:

- أدلتك! وهل تملك أدلة؟ مجرد تفسيرات خاوية وعبثية، هذا ما تملكه! وحتى لو كنت تملك دليلًا، فهل دليل واحد يبرر كل ما تقوله هذا؟ لا بد أنك تمازحني! أعطِني دليلًا قاطعًا يا سيد بارنيت، دليلًا واحدًا قد يدينني أنا وأبي.. كل هذه الحماقات التي تنساب منك لا تملك عليها أي دليل.

- وما الدليل الذي تنتظره مني؟

- أعني الإيصال! الإيصال الموقع من والدي، والذي يثبت أنه قد حصل على مستحقاته من السيد أليسكار كما تدَّعِي!

أشهر بارنيت ورقة مطوية قديمة وصفراء اللون عليها ختم قائلًا:

- ها هو. أليس هذا هو خط والدك؟ وأليس الإيصال موثقًا؟ اقرأ: «أقر أنا الموقع أدناه -كازيفون أوجست- أنني قد تسلمت من الكونت أليسكار مبلغًا قدره مئتا ألف فرنك كنت قد أقرضته إياه. يُلغَى بموجب هذا الإيصال الاتفاق المبرم بيننا، والذي كان ينص على انتقال أملاكه لي في حال عدم السداد».

إن تاريخ تحرير هذا الإيصال يوافق اليوم الذي ذكره السيد جريوم، والتوقيع موجود؛ لذا هذا المستند لا يمكن أن يكون محلًّا للخلاف، ولا شك أنك كنت على دراية بوجوده يا سيدي.. فإما أن والدك أخبرك به، أو أنك عرفت بأمره من الوثائق السرية التي تركها. إن ظهور هذا المستند يثبت التهمة على والدك وعليك أيضًا، وسيتم بموجبه طردك من القصر الذي تشبثت به كما تشبث به والدك.. لقد تشبثتم به لدرجة دفعتك لقتل أليسكار.

- لو كنت أنا القاتل لكنت استعدت الإيصال يا بارنيت.

- لقد فتشت عنه في جثة ضحيتك، ولكنك لم تجده.. فتوخيًا للحذر؛ ربط الكونت الإيصال بحجر رماه من قمة البرج وكان سيقوم بالتقاطه لاحقًا. ولكني وجدته أنا بالقرب من النهر على مسافة عشرين مترًا تقريبًا.

استطاع بارنيت أن يرجع للوراء قبل أن ينتزع چورچ كازيفون المستند من بين يدَيه. راقب الرجلان بعضهما البعض، ثم قال بارنيت:

- فعلتك هذه خير دليل على تورُّطك.. إن الكراهية تنضح من عينَيك، ويمكن أن تدفعك كراهيتك إلى ارتكاب أي فعل أهوج كما قالت السيدة أليسكار. وهذا ما حدث في ذلك اليوم.. هيا، تمالك نفسك؛ هناك مَن يقرع الباب، إنه المفتش بيشو والأولى لك ألا يعرف شيئًا مما حدث.

انقضت لحظات وجيزة، ثم تمتم چورچ كازيفون الذي بدا تائهًا قائلًا:

- كم تريد؟ كم تريد مقابل هذا الإيصال؟

- إنه ليس للبيع.

- هل ستحتفظ به؟

- سأعيده إليك بشروط.

- ما هي؟

- سأخبرك إياها في وجود المفتش بيشو.

- وماذا إن رفضت الانصياع إليك؟

- سأفضحك حينها.

- أدلتك ليست قوية بما يكفي.

- جرِّبْ إذن.

شعر چورچ كازيفون بقوة خصمه؛ لأنه طأطأ رأسه. في اللحظة ذاتها أخبره أحد الخدم بوصول بيشو. لم يكن المفتش يتوقع أن يرى بارنيت في القصر، فعقد حاجبَيه في غضب. تُرَى فيمَ تحدَّث الرجلان قبل مجيئه؟

لقد جعلته مخاوفه أكثر حزمًا في أقواله، فأمسك بيد چورچ كازيفون بلين، ثم قال:

- سيدي، كنت قد تعهدت بأن أخبرك بنتيجة ما توصلت إليه في تحقيقاتي، وبأن أطلعك على تقريري النهائي. ما سأخبرك به متسق تمامًا مع ملابسات القضية ومع مسارها حتى الآن.

بدا أنه اقتبس من بارنيت الكلمات نفسها، فقال:

- لا يجب الالتفات للضجيج الذي أحدثته السيدة أليسكار.

قال بارنيت وقد بدا متفقًا مع بيشو:

- رائع، هذا ما أخبرت به السيد كازيفون لتوي. كنت واثقًا من أن صديقي العزيز وأستاذي بيشو سيصل لاستنتاج ينم عن نبوغه وبصيرته. وأريد أن أقول في الحقيقة إن السيد كازيفون لن يلتفت لهذا الضجيج، وأنه قرر أن يعيد للآنسة أليسكار أملاكها حتى يضع حدًّا لهذه البلبلة.

صُعِق بيشو من مثل هذا القرار، فقال:

- أمعقول هذا؟

أكد بارنيت الأمر:

- نعم، لقد ضاق السيد كازيفون ذرعًا بهذه البلبلة التي أعقبت الحادث، وقرر أنه سيغادر هذه البلدة، ويشرع حاليًّا في شراء قصر قريب من مصانعه بـ(جيريه).. وكان يستعد لتوه، قبل أن تدخل أنت يا بيشو لتوقيع تنازُل يعيد به للسيدة أليسكار أملاكها، بالإضافة إلى تحرير شيك بمبلغ مئة ألف فرنك لتعويض الآنسة أليسكار عما أصابها من أضرار معنوية. ألا زلنا على اتفاقنا يا سيد كازيفون؟

لم يتردد كازيفون لحظة واحدة، وانصاع لأوامر بارنيت بسرعة هائلة؛ خوفًا من الفضيحة، كما لو كان يُقدِم على قرار اتخذه بمحض إرادته.. جلس إلى مكتبه وبدأ في تحرير عقد التنازل عن أملاكه، ووقَّع على الشيك، ثم قال:

- سأخبر المحاسب بتعليماتي.

تسلَّم بارنيت الوثيقتين ووضعهما داخل مظروف أغلق عليه، وقال لبيشو:

- احمل هذه الوثائق إلى الآنسة أليسكار، أنا متأكد من أنها ستكون ممتنة لصنيع السيد كازيفون. وداعًا إذن يا سيدي، ولا يسعني التعبير عن مدى سعادتي أنا والسيد بيشو بأن الأمور قد انتهت بهذا الشكل المرضي للجميع.

خرج بارنيت في عجلة وتبعه بيشو الذي كانت تزداد حيرته، وكان يغمغم في الحديقة قائلًا:

- ماذا حدث إذن؟ هل هو مَن أطلق النار واعترف بجريمته؟

قال بارنيت:

- دعك من كل ذلك يا بيشو، فقد تم حل الأمر كما ترى وبما يصب في مصلحة الجميع. قم إذن بمهمتك وأوصِل المستندات للآنسة أليسكار واطلب منها أن تلتزم الصمت، ثم قابِلني في الفندق.

عاد بيشو بعد ربع ساعة وأخبر بارنيت أنها قبلت بعرض السيد كازيفون وأنها ستكلف محاسبها الخاص بالتواصل مع محاسب السيد كازيفون، وأخبره أنها رفضت الأموال ومزقت الشيك بغضب.

غادر بارنيت وبيشو في رحلة هادئة وسريعة.. لم يسهم المفتش في هذه القضية بأي شيء، واستنفد وقته دون جدوى.. لم يفهم شيئًا ولم يثق ببارنيت.

في الساعة الثالثة، دعا بارنيت بيشو للغداء بالقرب من نهر كروز. كان بيشو مرهقًا للغاية فقبِل الدعوة.

قال بارنيت:

- اطلب الطعام أنت، فثمة أمر يجب أن أفعله.

لم يُطِل بارنيت في غيابه، ثم عاد وأكل الاثنان.

كان بيشو يحتسي قهوته، فقال:

- يجب أن أعيد للسيد كازيفون بقايا الشيك الممزق.

- لا تُعِر ذلك اهتمامًا.

- لماذا؟

- لأن الشيك لم يكن له قيمة.

- وكيف ذلك؟

- لقد توقعت أن ترفض الآنسة أليسكار الشيك، ولذلك دسست شيكًا قديمًا ومختومًا مع عقد تنازُل كازيفون عن الأملاك لها داخل المظروف.

قال بيشو بضيق:

- وماذا عن الشيك الأصلي الذي وقَّع عليه السيد كازيفون؟

- قمت بصرفه من المصرف لتوي.

فتح چيم بارنيت سترته قليلًا، ليكشف عن رزمة من الأوراق المالية.

أسقط بيشو فنجان القهوة، ولكنه تمالك أعصابه رغم ذلك.

ظل كُلٌّ منهما يدخن السجائر وينفخ دخانها في وجه الآخر، ثم قطع چيم بارنيت هذا الصمت، وقال:

في الحقيقة، كان تعاوننا مثمرًا حتى الآن يا بيشو. لقد اجتزنا معًا مغامرات عديدة، وحققنا نجاحات مدوية، وزادت مدخراتي الصغيرة. ولكنني منزعج من أنني المستفيد الوحيد من أغلب هذه القضايا، فما رأيك في وكالة تحقيقات ننشئها أنا وأنت؟ ونسميها (وكالة بارنيت وبيشو). أليست فكرة سديدة؟

نظر إليه بيشو نظرة تنضح بالكراهية. لم يسبق له أن كره شخصًا كما يكره ذلك الرجل.

نهض بيشو وألقى ورقة نقدية لدفع الحساب، ثم غمغم قائلًا:

- أتساءل أحيانًا إن لم تكن أنت الشيطان نفسه.

فقال بارنيت ضاحكًا:

- أتساءل أنا أيضًا عن نفس الأمر أحيانًا.

القفازات والجوارب البيضاء

خرج بيشو من التاكسي منتفضًا، ودلف على الفور إلى وكالة بارنيت. ركض بارنيت نحوه، وصاح:

- يا إلهي! لا تعرف كم أنا سعيد بهذه الزيارة يا بيشو.. لقد تشاحنا المرة الأخيرة، وخشيت أن أكون قد أغضبتك. ما الأمر إذن؟ أخبرني.. هل تحتاج إلى شيء مني؟

- نعم يا بارنيت.

أمسك بارنيت بيد بيشو، وسلم عليه بحرارة، ثم قال له:

- حسنًا، ماذا بك يا صديقي؟ لماذا يميل وجهك للاحمرار إلى هذا الحد؟ لا تقل لي إنك أُصِبت بالحمى القرمزية.

- لا تمزح يا بارنيت.. الموضوع معقد، وأريد أن أفرغ منه دون أن أشوه سمعتي.

- ما الأمر يا صديقي؟

أجابه بيشو:

- الأمر يتعلق بزوجتي.

- زوجتك؟ وهل أنت متزوج؟

- منفصل عن طليقتي منذ ستة أعوام.

- لم يحدث وفاق بينكما؟

- لا، لكنها آثرت أحلامها عليَّ.

- وما أحلامها؟ أن تتركك؟

- بل أن تصبح ممثلة مسرحية. لك أنت تتخيل.. زوجة مفتش الشرطة ممثلة!

- وهل نجحت في تحقيق حلمها؟

- نعم، أصبحت مطربة.

- بالأوبرا؟

- لا، بكباريه اسمه (فولي برجير).

- وما اسمها؟

- أولجا فوبو.

- أولجا، الراقصة الاستعراضية؟

- نعم.

لم يتمالك چيم بارنيت حماسه، فقال لبيشو:

- أهنئك يا صديقي! أولجا فوبو فنانة عظيمة تغرد خارج السرب بأغانيها الغريبة. آخر أغنية أصدرتها كانت تقول فيها: «إزيدور يعشقني، لكنني أحب چيم...». يا لها من أغنية تقشعر لها الأبدان!

- أشكرك يا بارنيت، لكني تلقيت منها هذا الصباح هذه الرسالة العشوائية، كُتِبت وأُرِّخت بتاريخ اليوم، تقول فيها: «لقد سرقوا غرفة نومي، وحاولوا اغتيال أمي.. تعالَ فورًا. أولجا».

رد بارنيت:

- جملة «حاولوا اغتيال أمي» تعني أنهم على الأرجح لم يخططوا لاغتيال أمها من الأساس.

أردف بيشو قائلًا:

- لقد تواصلت مع قسم الشرطة المختص، وطلبت أن أعاون زملائي الذين يتولون هذه القضية.

- وما الذي يخيفك يا بيشو؟

قال بيشو بصوت متهدج:

- أخشى رؤيتها.

- أما زلت تحبها؟

- عندما أراها أشعر أن قلبي يختلج في صدري، وأتلعثم.. كيف سأعمل على هذه القضية في مثل هذه الظروف؟ أظنني سأرتبك وسأفسد الأمر كله.

- بالطبع تريد أن تحافظ على ماء وجهك أمامها، وأن تبقى متماسكًا وهادئًا، أليس كذلك؟

- بلى، بالضبط.

- هل تثق بي يا بيشو؟

- نعم، أثق بك يا بارنيت.

- كيف تتصرف السيدة أولجا؟ هل تتصرف على أنها لا تزال زوجتك؟

- نعم، فلولا مهنتها هذه لبقيت زوجتي، ولظلت تُلقَّب بالسيدة (بيشو).

رد بارنيت وهو يسحب قبعته:

- لو بقيت زوجتك، لخسرها الفن خسارة فادحة لا تُعوَّض.

في غضون بضع دقائق كانا قد وصلا إلى أحد الشوارع الأكثر هدوءًا وسكونًا على الإطلاق، بالقرب من حدائق لوكسمبورج.

كانت أولجا فوبو تسكن بالطابق الثالث والأخير، في عمارة سكنية راقية، كانت نوافذها بالطابق السفلي مزودة بقضبان حديدية.

قال له بيشو في حسم:

- أرجوك يا بارنيت، تخلَّ عن رغبتك الدفينة في تحصيل الغنائم من أي قضية تُوكَل إليك، أرجوك لا تُسِئ لعملنا.

عارضه بارنيت، وقال له:

- لكن ضميري يحتم عليَّ أن...

- دع ضميرك جانبًا لمرة واحدة، وفكِّرْ في ضميري أنا الذي يؤرقني كلما سكتَّ عن أفعالك هذه.

- هل وصل بك الأمر إلى أنك تشك في أنني سأسطو على أموال زوجتك أولجا؟

- لم أقل أولجا فقط.. لا أريدك أن تسطو على أي شخص!

- ولا حتى على مَن يستحقون هذا العقاب؟

- دع القضاء يعاقبهم يا بارنيت.

تنهد بارنيت، ثم قال:

- ستكون القضية مملة إذن.. لكن حسنًا، كما تحب..

كان هناك ضابط يحرس مدخل الشقة، وضابط آخر يقف في غرفة حارسَي العقار، اللذين أزعجتهما هذه القضية برمتها. عرف بيشو أن مفوض قسم الحي وضابطين من الأمن العام غادروا لتوهُّم المنزل، وأن قاضي التحقيقات أجرى تحقيقًا موجزًا.

قال بيشو لبارنيت:

- دعنا نستغل عدم وجود أحد بالداخل يا بارنيت.

وبينما يصعدان السلم، شرح بيشو لبارنيت بعض التفاصيل، فقال له:

- هذه بناية قديمة لا تزال تحتفظ بطرازها القديم، فالباب -على سبيل المثال- يبقى مغلقًا دائمًا، ولا يُوجَد له مفتاح، فلا يمكن لأحد أن يدلف إلا إذا دق الجرس وفتح له أحد الحراس من الداخل بواسطة حبل يتم جذبه. في الطابق الأول يسكن راهب، وفي الطابق الثاني يسكن أحد القضاة، وتتولى حارسة العقار تنظيف بيتهما والوقوف على احتياجاتهما، أما أولجا، فتقطن في الطابق الثالث، مع أمها ومربيتين عجوزين قامتا بتربيتها وهي صغيرة.

فتح أحدهم الباب لهما، ثم أوضح بيشو لبارنيت أن المدخل يفضي يمينًا إلى غرفة أولجا وصالونها الخاص، ويسارًا إلى غرف الأم والمربيتين، وأنه في الجهة المقابلة هناك غرفة مخصصة للرسم تم تحويلها إلى صالة رياضية، مزودة بعقلة حديدية ثابتة، وجهاز عارضة التوازن وبعض الأطواق وعدد من الأدوات الرياضية الأخرى المتناثرة بين الأرائك والمقاعد.

بمجرد دلوفهما إلى الصالة الرياضية هذه، سقط شيء من أعلى، من الواجهة الزجاجية التي يدخل منها ضوء النهار للصالة. نظرا إلى أعلى، فلمحا شابًّا صغيرًا كان يضحك ويتراقص من تحت قناعٍ ظريف، وباروكة غير مهندمة. عرف بارنيت أنها أولجا فوبو من ثوبها الضيق قليلًا عند الخصر.

صرخت بلهجة تشبه لهجة سكان ضواحي باريس، وقالت لبيشو:

- والدتي على ما يُرام يا بيشو.. إنها نائمة الآن.. آه يا أمي العزيزة! حالفها الحظ!

أخذت تتراقص وقدماها في الهواء، وهي تغني بصوتها الرنان: «إيزيدور يعشقني، لكنني أحب چيم».

ثم التفتت لبيشو، وقالت:

- وأحبك أنت أيضًا يا بيشو.. إنها لفتة لطيفة منك أن تحضر إليَّ بهذه السرعة.

حاول بيشو أن يحافظ على هدوئه، لكن رجفة عينه وحركاته العصبية كشفت توتره وقلقه، فقال لها:

- أُقدِّم لكِ زميلي بارنيت.

- ممتاز! عليكما إذن أن تتوليا هذه القضية، وأن تعيدوا لي غرفتي كما كانت! هذه مهمتكما.. أما أنا فدعوني أُقدِّم لكما السيد (دي بريجو)، مدرب الجمباز والرياضة، والمدلك، ومختص التجميل، وبائع المراهم الطبية ومساحيق التجميل.. إنه رجل بارع ومعروف بين فتيات المسارح والأوساط الفنية. إنه يعيد إلينا شبابنا ويدلك لنا أجسامنا بمهارة عالية.. مرحبًا يا دي بريجو.

انحنى دي بريجو ليسلم على الضيفين.. كان عريضَ المنكبين، وكانت بشرته سمراء تميل إلى اللون النحاسي، وكان وجهه ممتلئًا ويشبه في مظهره العام شكل المهرجين القدامى. كان يرتدي رباطًا للساق أشبه بالجوارب وقفازات بيضاء، ويمسك بيده قبعة فاتحة اللون. شرع على الفور في شرح طريقته الفريدة في تدليك الجسد، وكيف يدلك العضلات والمفاصل، وأخذ يُلوِّح بيدَيه ويتمتم تارةً بلهجة فرنسية غريبة، وتارةً أخرى ببعض الكلمات الإسبانية والإنجليزية، والروسية أيضًا. قاطعته أولجا، ووجهت حديثها إلى بيشو قائلة:

- ليس لدينا وقت لنضيعه، ما المعلومات التي تحتاج إليها يا بيشو؟

قال لها:

- نحتاج لأن نعاين غرفتكِ أولًا.

- هيا بنا إذن سريعًا!

قامت باستعراض مهارتها الجسدية، فوثبت فجأة من فوق عارضة التوازن، وأمسكت بحلقتين معلقتين، وتعلقت في الهواء، ثم هبطت منهما أمام الباب، وقالت لهما:

- هيا بنا.

كانت الغرفة خالية تمامًا. لم يعد هناك أي شيء، لا فراش، ولا عفش، ولا ستائر، ولا لوحات، ولا مرآة، ولا سجاد، ولا أي تحف.. لم يعد هناك شيء على الإطلاق، أصبحت الغرفة خالية تمامًا.

ضحكت أولجا من قلب خلي، ثم قالت:

- هل قاموا بتنظيف الغرفة وتلميعها بعد سطوهم؟ لا أفهم كيف فعلوا ذلك؟! أخذوا كل شيء حتى حافظة فرشاة شعري العاجية! أخذوا معهم كل شيء، حتى الأتربة! كنت أعشق هذه الغرفة.. يا لك من مسكين يا لويس الخامس عشر! لقد ابتعت أغراض هذه الغرفة غرضًا غرضًا! ابتعت الفراش الذي كانت ترقد عليه السيدة بومبادور.. ابتعت أربع لوحات للرسام الفرنسي بوشيه.. كانت منضدتي أثرية! كانت غرفتي تعج بالمقتنيات الأثرية! يا إلهي، خسرت كل الأموال التي أنفقتها خلال جولتي في أمريكا!

قفزت على الأرض قفزة مفاجئة، ثم بعثرت شعرها، وصرخت بمرح:

- لا يهمني، سوف أشتري أغراضًا غيرها، بمهارتي الجسدية وصوتي الرنان.. ليس لديَّ ما أخشاه. لماذا تنظر إليَّ هكذا يا بيشو؟ عيناك تشي بما في قلبك يا بيشو.. أما زلت تهيم بي؟ دعني أُقبِّلك، واطرح عليَّ أسئلتك، قبل أن يعود رجال القضاء من جديد.

قال لها بيشو:

- قُصِّي علينا ما حدث بالضبط.

- سأقص عليك النبأ باختصار.. كل شيء بدأ مساء أمس، قرابة العاشرة والنصف مساءً. كنت أنا بالخارج بصحبة دي بريجو الذي أوصلني إلى كباريه فولي بيرجير، قرابة الثامنة مساءً بدلًا من والدتي التي كانت تحيك بعض خيوط التريكو. عندما دقت الساعة العاشرة والنصف، سمعت أمي صوتًا يأتي من غرفتي، فركضت نحو الغرفة سريعًا. بالكاد تمكنت من رؤية شاب يفك أجزاء فراشي، وشاب آخر أسقطها أرضًا؛ حتى يتمكن الأول من تغطية وجهها بمفرش الطاولة. أخذوا ينقلون أثاث غرفتي، القطعة تلو الأخرى. لم تتحرك والدتي ولم تنبس ببنت شفة، ولم تصرخ حتى، لكنها سمعت صوت محرك سيارة يدور في الشارع وصوت السيارة وهي تنطلق، ثم فقدت الوعي.

قال لها بيشو:

- وعندما عدتِ من الكباريه؟

- وجدت باب البناية مفتوحًا، وباب شقتي مفتوحًا، ووالدتي مغشيًّا عليها. لك أن تتخيل كيف فزعت!

- وحارسا العقار؟

- أنت تعرفهما يا بيشو، إنهما متقدمَين في السن ويسكنان هنا منذ ثلاثين عامًا، ولن ينتبها حتى لوجود زلزال قوي.. لا يستيقظان من نومهما ليلًا، إلا إذا سمعا صوت جرس البوابة الرئيسة، إلا أنهم يؤكدون أنهما ذهبا للنوم في العاشرة مساءً، وأنهما لم يسمعا صوت أي جرس حتى الصباح.

- أفهم من ذلك أنهما لم يفتحا هذا الباب ولا مرة واحدة طيلة الليلة؟

- تمامًا.

- وبقية السكان؟

- لم يسمعوا أي شيء هم أيضًا.

- وماذا عنكِ؟

- لا أفهم!

- ما رأيكِ فيما حدث؟

- ما هذا العبث؟! ليس من اختصاصي أنا أن أبدي رأيي فيما حدث! تبدو لي أكثر حماقة من رجال القضاء الذين جاءوا إليَّ آنفًا.

- لكنكِ لم تخبرينا بأي معلومات مفيدة حتى الآن.

أجابته أولجا بحدة:

- وكل ما قلته لا يعنيك في شيء؟ ألا يكفيك ما قلته لتمسك أنت بأطراف هذه القضية؟ إذا كان المدعو بارنيت أخرق مثلك، فعلى فراشي السلام إذن.

تقدَّم (المدعو) بارنيت نحوها، وسألها:

- في أي يوم ترغبين في استعادة فراشكِ يا سيدتي؟

نظرت إليه في تعجُّب، وهي التي لم تنتبه إليه حتى هذه اللحظة ولم تتفحصه جيدًا، ثم قالت له:

- ماذا تقصد؟

قال لها بألفة شديدة:

- حددي لي التاريخ والموعد المناسب لكِ حتى تتسلمي فراشك وبقية

أغراض غرفتك من جديد؟

- لكن...

- حددي لي تاريخًا. اليوم، يوم الثلاثاء.. هل الثلاثاء المقبل مناسب لكِ؟

شخَص بصرها وذُهِلت أمام هذا العرض الجريء.. هل كان جادًّا في عرضه أو كان يسخر منها؟

انفجرت ضاحكةً، ثم قالت لبيشو:

- إنه ظريف للغاية! من أين أتيت به هذا يا بيشو؟ زميلك لطيف للغاية ومرح.. يترك لي أسبوعًا ليعيد لي فراشي كما لو كان فراشي معه، في جيبه! وهل تظنان أنني مستعدة لإهدار المزيد من الوقت معكما؟ ما هذا العبث؟!

دفعتهما خارجًا إلى الردهة بالخارج، وصاحت فيهما:

- اذهبا من هنا فورًا، لا أريد رؤيتكما ثانيةً! لا أكره في حياتي شيئًا كالاستخفاف والسخرية.

أغلقت الباب بعنف أمامهما، فغمغم بيشو ممتعضًا:

- ماذا أصابها؟ لم نصل سوى من عشر دقائق فقط.

أخذ بارنيت يتفحص الردهة، وطرح بعض الأسئلة على إحدى المربيتين. وعندما هبطا السلم، نزل إلى غرفة حارسَي العقار، واستجوبهما سريعًا. ما إن خرج من البناية، حتى قفز في تاكسي كان يمر وأعطى له عنوان وكالته، بشارع دي لابورد، وترك بيشو واقفًا حائرًا على الرصيف.

إذا كان المفتش بيشو يثق ببارنيت، فإنه يثق أكثر بطليقته أولجا.. وخاف أن تكون محقة في موقفها، وأن يكون بارنيت قد عرض عليها هذا العرض فقط ليحفظ ماء وجهه.

عرف بيشو أن بارنيت لم يكن لديه أي خطة واضحة، عندما زاره في اليوم التالي في وكالته. دلف إلى المكتب وكان بارنيت قابعًا في مقعده، يمدد قدمَيه على المكتب ويدخن سيجارًا.

قال له بيشو:

- كيف تجرؤ على إعطائها مثل هذه الوعود الهوجاء يا بارنيت؟ إذا كنت ستستمر في العمل بهذه الطريقة فإنني أؤكد لك أننا سنخسر سمعتنا للأبد.. لن أهدر المزيد من الوقت في العمل على هذه القضية بهذه الطريقة، رجال القضاء أنفسهم لا يصلون لشيء على الإطلاق. ولا أنا! نحن متفقون على بعض النقاط المبدئية فقط. فعلى سبيل المثال؛ لا يمكن أن يكون قد دلف أحدهم إلى المنزل، حتى لو كان معه مفتاح مزيف. يجب أن يتم فتح البوابة من الداخل، وبما أنه لم يكن هناك أي شخص يمكن أن نشتبه فيه من الداخل،

فخلصنا إلى فرضيتين لا ثالث لهما: الفرضية الأولى هي أن أحد اللصين دلف إلى المنزل منذ اليوم السابق، وأنه هو مَن فتح لشريكه من الداخل، والفرضية الثانية هي أن حارسَي العقار رأيا السارق حتمًا عندما مر من أمامهما؛ لأن باب البناية يظل مغلقًا طوال الوقت ولا يمكن له المرور إلا من أمامهما. لكن مَن دخل؟ ومَن فتح له الباب وأدخله؟ هذا هو اللغز.. هل تتابعني؟

لم ينبس بارنيت ببنت شفة، بدا وكأن هذه القضية لا تعنيه من الأساس. تابع بيشو حديثه قائلًا:

- لقد حصرنا الأشخاص الذين أتوا في الليلة السابقة. لكن حارسا العقار أكدا أن كل مَن دخل، خرج من جديد.. ليس أمامنا أي دليل، ولا نعرف كيف تمت هذه السرقة بهذه الطريقة الفجة وبهذه الجرأة المتناهية، وبهذه السهولة، ولا نعرف لها دافعًا ولا سببًا. ما رأيك في هذه القضية؟

عاد بارنيت من شروده، وقال:

- إنها ساحرة للغاية!

- ماذا تقصد بـ(ساحرة)؟ عم تتكلم؟

- عن زوجتك.

- ماذا؟

- يبدو أنها لطيفة وذكية، على المسرح وفي الواقع على حد سواء. هذه المرأة تنضح بالنشاط والحيوية! وعلاوة على كل ذلك لديها حس عالٍ وذوق فني مرهف للغاية! لقد فكرت في وضع كل مدخراتها في فراش يعود لمدام مومبيدور عشيقة لويس الخامس عشر، ما هذا الرقي؟! بيشو، أنت لا تستحق الفرصة التي حظيت بها إلى جانبها!

غمغم بيشو:

- أي فرصة؟ لقد تسربت هذه الفرصة من بين يدَي.

- بعدما دامت؟

- بعدما دامت شهرًا واحدًا.

- لماذا تتذمر إذن؟ لقد حظيت بمرافقتها شهرًا كاملًا على الأقل.

عاد بيشو إلى مكتب بارنيت يوم السبت، وكان بارنيت يدخن سيجارًا، ويشرد في خيالاته، ولا يرد على بيشو.

جاء يوم الاثنين، وبدأ الإحباط يتسلل إلى بيشو.

تأفف بيشو قائلًا:

- لقد فشلنا.. كلنا فاشلون وحمقى.. لا شك أنه يتم تهريب فراش أولجا الأثري

وغرفتها بالكامل عبر أحد الموانئ الآن وأنه سيتم بيعها في أي وقت. كيف سأبدو لها الآن؟ سأبدو لها كمفتش أحمق وأبله وعاجز!

نظر بيشو لبارنيت فوجده يحدق في دخان سجائره المتطاير نحو السقف، وامتعض غضبًا قائلًا:

- نحن نواجه لصوصًا بارعين، لم نتعامل مع مثل هذه العقلية من قبل! هؤلاء الناس يعرفون جيدًا ماذا يفعلون ولديهم طرقهم الخاصة، ولديهم خطط محكمة وجاهزة! كيف لك أن تحافظ على هدوئك هكذا يا بارنيت؟! كيف نجحوا هم في التسلل إلى البناية، ولا تحاول أنت حتى الكشف عن الفاعل؟! كيف تتمالك أعصابك إلى هذا الحد؟!

رد عليه بارنيت:

- بها شيء يعجبني ويستهويني أكثر من أي شيء آخر.

- ماذا؟

- إنها تلقائية وطبيعية وغير مصطنعة على الإطلاق! إنها تتفوه بما تفكر فيه، وتتصرف وفقًا لحدسها وهواها، وتعيش وفقًا لما يمليه عليها خيالها.. إنها امرأة ساحرة يا بيشو.

ضرب بيشو برسغه على الطاولة، وقال له:

- أتعرف كيف تراك أولجا يا بارنيت؟ تراك رجلًا أحمق.. وعندما تتحدث عنك مع دي بريجو ينفجرون ضحكًا من فرط بلاهتك! بارنيت الأبله، بارنيت الأحمق!

تنهد بارنيت، وقال بسخرية:

- يا له من وصف مؤلم! وماذا أفعل حتى أجعلها تغير فكرتها عني؟

- غدًا يوم الثلاثاء! يجب أن نعيد فراش مدام بومبادور الأثري لها، هذا ما وعدتها به يا بارنيت!

- لكنني لا أعرف أين يمكننا العثور عليه.. أسدِ لي نصيحة يا بيشو، قل شيئًا.

- يجب أن تعثر على اللصوص، حينها ستعرف الحقيقة.

- فكرة جيدة.. هل لديك تفويض بذلك؟

- نعم.

- وهل معك رجال لمعاونتك؟

- مكالمة هاتفية لقسم الشرطة تكفي.

- اتصِل بالقسم إذن، واطلب منهم أن يتم إمدادك برجلين، واجعلهما يقابلاننا بالقرب من حدائق لوكسمبورج، أسفل معرض أوديون.

انتفض بيشو، وصاح فيه:

- هل تهزأ بي يا بارنيت؟

- على الإطلاق، لكنني لا أريد أن تظن أولجا أنني أبله.. ثم إنني دائمًا ما أفي بتعهُّداتي، أليس كذلك؟

شرد بيشو لبضع ثوانٍ، وبدا له فجأة أن بارنيت كان يتحدث بجدية، وأنه قابع في مقعده منذ ستة أيام يفكر في حل للغز.. ألم يقل من قبل إن في بعض الحالات، يكون التفكير المتأني أفضل من اللهاث وراء التحقيقات؟

أسرع بيشو وأمسك بسماعة الهاتف وهاتَف صديقًا له اسمه ألبيرت، كان المعاون المقرب لرئيس الأمن العام. حصل على موافقة منه بإرسال رجلين إلى معرض أوديون.

نهض بارنيت وخرج مع بيشو. كانت الساعة الثالثة، فقال لبارنيت:

- هل نحن ذاهبون إلى بيت أولجا يا بارنيت؟

- نعم، إلى بنايتها.

- لكن لن ندلف إلى شقتها، أليس كذلك؟

- بلى، سنذهب للحارسين.

جلس بارنيت وبيشو في غرفة الحارسين، بعد أن أمرهما بارنيت بألا يتفوها بأي كلمة، وألا يصدرا أي حركة يمكن أن توحي بأن هناك أحدًا في غرفتهما. اختبأ بارنيت وبيشو وراء ستار طويل كان يغطي الفراش. كان موقعهما هذا يسمح لهما برؤية أي شخص يدلف أو يخرج من البناية بعد أن يجذب الحراس الحبل ويفتحا الباب له أو يغلقاه وراءه.

مرَّ الراهب القاطن بالطابق الأول، ومرت من بعده إحدى مربيات أولجا، وهي تتأبط قفصًا للتسوق.

همهم بيشو:

- ماذا ننتظر بالتحديد؟ ما هدفك؟

- هدفي أن أُعلِّمك أصول مهنتك.

- لكن...

- اصمت يا بيشو أرجوك.

في الثالثة والنصف دخل دي بريجو، وهو يرتدي قفازاته وجواربه البيضاء، وزيه الرمادي وقبعته فاتحة اللون. ألقى التحية على الحارسين، وصعد الدرج. كان هذا هو موعد تدريباته الرياضية مع أولجا.

بعد مرور أربعين دقيقة خرج من جديد، ثم عاد ودلف المبنى للمرة الثانية بقفازاته وجواربه البيضاء، وبعبوة سجائر.

ثم مرَّ ثلاثة أناس مختلفون، وفجأة همس بيشو:

- ها هو دي بريجو يدلف للمرة الثالثة، كيف خرج من الأساس؟

- خرج من هذا الباب يا بيشو.

رد بيشو بشيء من التردد:

- أظنه لم يخرج من أمامنا، أو ربما لم نلاحظه.

أزاح بارنيت الستار، وقال:

- حان وقت العمل يا بيشو، اذهب والتقي بزملائك.

- هل أُحضِرهم إلى هنا؟

- بالطبع.

- وأنت؟

- وأنا سأصعد.

- ألن تنتظرني؟

- ولِم أنتظرك؟

- ماذا يحدث؟! لا أفهم شيئًا!

- ستعرف كل شيء.. عند عودتك قف أنت والرجلين في الطابق الثاني.

- هل أوشكنا على الإمساك بهم؟

- نعم، اقتربنا.

- ومَن هم؟

- أناس ليس لديهم حياء.

انصرف بيشو، وصعد بارنيت كما قال للطابق الثالث، ودق الجرس. تم اقتياده لصالة الرياضة التي كانت السيدة أولجا تنتهي فيها من تدريباتها مع دي بريجو.

صاحت أولجا من أعلى سلم التمرينات:

- ها قد وصل السيد بارنيت المقدام القوي! حسنًا يا سيد بارنيت، هل عثرت على فراشي الأثري؟

- أوشكت على ذلك يا سيدتي.. هل أتيت في وقت غير مناسب؟

- على العكس تمامًا.

برشاقة مبهرة منقطعة النظير، كانت السيدة أولجا تنفذ الحركات التي كان يأمرها بها دي بريجو بصوته الحاسم. كان الأستاذ من جهته يثني عليها تارةً وينتقدها تارةً، وأحيانًا أخرى كان يقوم ببيان على المعلم بما أنه كان بهلوانًا متمرسًا، بيد أن حركاته غلب عليها العنف أكثر من الرشاقة، وعلى ما يبدو، كان حريصًا على إظهار قوته الخرافية أكثر من أي شيء آخر.

مع انتهاء الحصة، بدأ المعلم في ارتداء سترته وأغلق الأزرار الجانبية لجواربه البيضاء، ثم التقط قفازاته البيضاء وقبعته فاتحة اللون.

- أراكِ مساءً في المسرح يا سيدة أولجا.

- ألم نتفق على أنك ستصطحبني إلى المسرح بنفسك يا دي بريجو بما أن والدتي ليست هنا؟

- للأسف لن أتمكن من ذلك يا أولجا؛ فلديَّ حصة قبل العشاء.

توجه دي بريجو بعد ذلك نحو الباب، لكنه اضطر للتوقف؛ لأن بارنيت اعترض طريقه، وقال له:

- هلا أذنت لي بمحادثتك قليلًا يا سيدي العزيز، بما أن الصدفة وضعتني في طريقك؟

- أعتذر وبشدة، ولكن...

قاطعه بارنيت:

- نسيت أن أعرفك بنفسي.. معك المخبر السري بارنيت من وكالة بارنيت وشركاه، وأنا صديق المفتش بيشو.

تقدَّم دي بريجو خطوة للأمام، ثم قال:

- أكرر لك أسفي يا سيدي؛ فأنا على عجلة من أمري.

- لن يستغرق الأمر سوى دقيقة واحدة، دعني أنعش فيها ذاكرتك.

- تنعش ذاكرتي؟ بخصوص ماذا؟

- بخصوص رجل تركي.

- أتقول «رجل تركي»؟

- نعم، اسمه ابن والي.

هز المعلم رأسه، ثم قال:

- ابن والي؟ لم أسمع بهذا الاسم من قبل.

- ماذا عن أفيرنوف؟ هل سمعت بهذا الاسم إذن؟

- لم يحدث أن سمعت به من قبل. مَن هؤلاء السادة؟

رد بارنيت بحدة:

- قاتلون مأجورون.

ساد الصمت قليلًا، ثم قطعه دي بريجو ضاحكًا، وقال:

- هذه نوعية من البشر لا أحبذ التعامل معها كثيرًا.

- ولكن هناك مَن يدَّعِي أنك على صلة وطيدة بهذين الرجلين.

رمقه دي بريجو بنظرة متفحصة، ثم غمغم قائلًا:

- ماذا أفهم من كل هذا العبث؟ لا أحب الألغاز يا سيد بارنيت، ماذا تقصد؟

أرجوك أن تجلس يا سيد دي بريجو؛ حتى نتحدث كما يحلو لنا.

بدأ صبر دي بريجو ينفد، بينما كانت أولجا تقترب من الرجلين.. كانت فائقة الجمال، وترتدي زي الجمباز الخاص بها، ثم قالت:

- اجلس يا دي بريجو، أرجو أن تراعي أن الأمر يتعلق بفراشي الأثري.

قال بارنيت:

- بالضبط، وصدقني يا سيد دي بريجو، لا أطرح عليك أي ألغاز أو ما شابه، كل ما في الأمر هو أنه في أول مرة جئت فيها إلى هنا عقب وقوع السرقة، لم أستطِع منع نفسي من تذكُّر واقعتين متداولتين بكثرة بين الناس، وهما ما أردت سؤالك عنهما ومعرفة رأيك بشأنهما.. بضع دقائق ستكفي.

اختلف سلوك بارنيت ولم يعد يتحدث بلين مثلما فعل سابقًا، ولكنه كان يتكلم بطريقة حاسمة استحوذت على انتباه مستمعيه.. كانت أولجا فوبو منبهرة من طريقته، شعر دي بريجو أن بارنيت يُضيِّق عليه الخناق، فغمغم قائلًا:

- أسرِع إذن.

- حسنًا، ها أنا ذا.

وبدأ بارنيت في الكلام:

- منذ ثلاثة أعوام، كان أحد الصاغة، ويُدعَى السيد سوروا، يسكن مع والده بالطابق الأعلى لعمارة ضخمة في قلب العاصمة باريس، كان السيد سوروا يعمل مع رجل يُطلَق عليه ابن والي، وكان يرتدي عمامة وبدلة تركية وسروالًا منفوخًا، ويتاجر في الأحجار الكريمة من الدرجة الثانية، مثل: حجر التوباز الشرقي، والبلورات التي تعود إلى عصر الباروك، وما إلى ذلك. وذات مرة، صعد ابن والي إلى منزل الصائغ، ونزل منه عدة مرات وفي الليلة نفسها، كان الصائغ سوروا عائدًا من المسرح ووجد والده مطعونًا، وقد فارق الحياة وجميع خزائنه كانت فارغة من محتوياتها. ولكن التحريات كشفت أن مرتكب الجريمة لم يكن

ابن والي نفسه، والذي قدَّم دليلًا يثبت غيابه عن مسرح الجريمة في تلك اللحظة، ولكن الجاني كان أحد الأشخاص الذين أحضرهم ابن والي بعد الظهيرة إلى بيت الصائغ.. وبالتالي، لم يتمكن أحد من إلقاء القبض لا على هذا الشخص المجهول ولا على الرجل التركي؛ فتم حفظ ملف القضية. هل تذكر هذه الحادثة؟

رد دي بريجو قائلًا:

- لا أذكر هذه الواقعة من الأساس، ولم تمضِ سنتان على قدومي إلى باريس، ومع ذلك فأنا لا أرى علاقة بين ما تقوله..

قاطعه بارنيت، واستمر في روايته:

- ومنذ عشرة أشهر، حدثت جريمة مشابهة وقع ضحيتها رجل يحب اقتناء الميداليات، وهو السيد دافول. كان الجاني هو الرجل الذي ساعده أفيرنوف الروسي على الولوج لبيت دافول. أفيرنوف رجل روسي يرتدي معطفًا طويلًا وقبعةً من مدينة أستراخان.

شحب وجه أولجا، وقالت:

- أتذكر هذه الواقعة.

قال بارنيت:

- وأنا أيضًا، تذكرت على الفور هاتين الواقعتين، وأحسست بتشابُه غريب بين سرقة المقتنيات الأثرية للسيدة أولجا، وبين هاتين الواقعتين.. الجريمة التي ارتكبها القاتل المحترف ابن والي في بيت الصائغ سوروا والسرقة التي وقع ضحيتها دافول، تم ارتكابهما من قِبَل رجلين غريبين، وهذه هي الطريقة نفسها التي نُفِّذت بها عملية السطو على غرفتكِ يا سيدة أولجا. لقد تم مساعدة شخص خارجي غريب على الولوج إلى بيتك. ولكن كيف حدث ذلك؟ هذا ما لم أتمكن من فهمه من الوهلة الأولى، ولذا فقد عكفت على الأمر لعدة أيام في صمت وعزلة. كان بين يدَي جريمتي ابن والي وأفيرنوف وطريقة تنفيذهما التي تقتضي تهريب السارق الحقيقي وتسهيل تسلُّله إلى المنازل التي سُرِقت.. وقد تم اللجوء لهذه الإستراتيجية في قضايا أخرى لم أعرف عنها شيئًا.

قالت أولجا بحماس:

- وهل توصلت إلى هذه الإستراتيجية؟

- نعم، إنها إستراتيجية بديعة وباهرة، وهذه الإستراتيجيات تستهويني للغاية؛ لأنها فريدة من نوعها! فاللصوص والقاتلون المأجورون الحقيقيون يعملون خلف الكواليس في مثل هذه الحالات، ويقومون بإرسال شركائهم إلى المنازل المستهدفة.. يتعمد هؤلاء المجرمون انتحال شخصيات عمال أدوات صحية

وعمال خدمات توصيل على سبيل المثال، ويباشرون عملهم في وضح النهار وعلى مرأى ومسمع من الجميع بشكل لا يثير أي شكوك؛ حتى يعتادهم كل الناس، فيترددون على المنازل المستهدفة التي اعتادوا زيارتها.. وفي اليوم المحدد، يخرجون من المنزل ثم يدلفون من جديد، ثم يخرجون مجددًا ويدخلون مرة أخرى، يكررون هذه الحركات، وفي إحدى هذه المرات، يخرج العامل، ويدلف مكانه شريكه وهو يرتدي نفس زيه بالضبط، ثم يدخل العامل وراءه من جديد.

توجه بارنيت بالحديث إلى دي بريجو، وقال:

- يا لها من خطة عبقرية يا دي بريجو! يحاول الرأس المدبر أن يلفت الأنظار إليه، فيخرج ويدخل ويتردد عدة مرات على البيت المستهدف وهو يرتدي زيًّا يميزه؛ حتى يتعرَّفه الناس سريعًا، ولا يلتفتون إليه مع مرور الوقت.. فعلى سبيل المثال كان الرجل الروسي يرتدي دائمًا قبعة من الفرو تميزه على الفور.. وكان الرجل التركي يرتدي سروالًا منفوخًا، أصبح علامة مميزة له.. فإذا مر أحدهما وخرج من باب البناية أربع مرات على سبيل المثال، وعاد ليدلف خمس مرات، فلن يلاحظ أحد أنه دخل إلى البناية مرة إضافية عن عدد المرات التي خرج فيها.. فيخرج اللص ويدخل، ثم يخرج ويدخل، ثم يخرج ويدخل، ويدخل ثانيةً؛ أي أنه في آخر تحرُّك له يدخل لمرتين متتاليتين.. في إحدى هاتين المرتين المتتاليتين يدخل اللص، وفي الأخرى يدخل شريكه وراءه.

اسمح لي أن أرفع قبعتي احترامًا لك! لا بد أن مَن خطط لهذه الخدعة ونفذها أستاذ بارع؛ لذا فأنا أعتقد أن ابن والي والكونت أفرنوف هما نفس الشخص. وقد قادتني تحرياتي إلى أن هذا الشخص نفسه عاد ليضرب من جديد بعملية السطو التي تمت على منزل السيدة أولجا، أليس كذلك؟ فقدَّم نفسه على أنه تركي أولًا، ثم روسي، وأخيرًا قدَّم نفسه مجددًا على أنه رجل أجنبي يرتدي ملابس مميزة للغاية.

ساد الصمت قليلًا، وظهر الاستياء على وجه أولجا؛ فقد فهمت لتوها ما يرمي إليه بارنيت من شرحه المطول هذا، فاعترضت قائلة:

- لا أسمح لك بهذه التلميحات يا بارنيت!

بدا دي بريجو مسالمًا للغاية، وابتسم قائلًا:

- دعيه يا سيدة أولجا، السيد بارنيت يسلي وقته...

- بالفعل، أنا أتسلى يا سيد دي بريجو، وأنت محق في عدم أخذ هذه القصة الصغيرة على محمل الجد، ولكن انتظِرْ حتى تسمع نهايتها. ما أعرفه هو أنك أجنبي وأنك ترتدي زيًّا مميزًا يلفت الانتباه، فجورباك وقفازاك لونها أبيض. وبالتأكيد تساعدك ملامحك على تغيير هويتك، فتارةً تتقمص شخصية رجل روسي، وتارةً أخرى رجل تركي، وأخيرًا رجل أجنبي ذي أسلوب جذاب. ومن المؤكد أن تردُّدك على هذا المنزل أصبح أمرًا مألوفًا؛ نظرًا لمهامك العديدة التي

تقوم بها، والتي تدعوك إلى المجيء عدة مرات. ولكن في نهاية الأمر، لا يُوجَد أي غبار على سمعتك أو نزاهتك، حتى إن أولجا فوبو تشهد لك بذلك. لا مجال إذن لتوجيه أصابع الاتهام إليك، ولكن ما العمل؟ أرجوك أن تتفهم موقفي الحرج. لم يكن باستطاعة أحد أن يفعلها سواك، ورغم هذا لا يمكن أن تكون الفاعل. أليس كذلك يا أولجا فوبو؟

كانت أولجا في غاية القلق والاضطراب، فقالت:

- لا، لا يمكن أن يكون هو.. لكن مَن المتهم الحقيقي؟ كيف نصل إليه؟

رد عليها بارنيت قائلًا:

- بطريقة سهلة.

- أيُّ طريقة تقصد؟

- لقد نصبت فخًّا.

- تقول «فخًّا»؟ ولكن كيف؟

- سألها چيم بارنيت:

- ألم تتلقي اتصالًا من البارون لورنس أول أمس؟

- بلى.

- ألم يأتِ لمقابلتك أمس؟

- بلى.

- وهل أحضر معه علبة فضيات ثقيلة ملكًا للسيدة بومبادور؟

- ها هي على الطاولة.

- كان البارون لورنس قد أوشك على الإفلاس؛ فأراد بيع هذه العلبة التي ورثها من أسلافه من عائلة إيتيول، فترك لكِ العلبة أمس حتى يعود صباح اليوم، أليس كذلك؟

- كيف عرفت كل ذلك؟

- أنا البارون نفسه. لقد أريتِ هذه العلبة لكل مَن حولك، أليس كذلك؟

- بلى.

- ومن ناحية أخرى، تسلمت والدتك تلغرافًا من قريتها في الريف تفيد بضرورة ذهابها؛ لأن أختها مريضة، أليس كذلك؟

- مَن أخبرك بهذا؟

- أنا مَن أرسل هذا التلغراف. ومع مغادرة والدتك في الصباح ووجود العلبة في

غرفتك حتى اليوم، أصبحت الفرصة سانحة لسرقتك من جديد، وهذه المرة لن تكون العملية شاقة كعملية سرقة غرفتك من قبل.

تملَّك الخوف من أولجا فجأة، وصرخت:

- ستتم المحاولة الليلة؟

- نعم، الليلة.

ارتعش صوتها، وقالت:

- هذا مرعب!

نهض دي بريجو، الذي سمع كل هذا الحديث دون أن يحرك ساكنًا، وقال:

لا داعي للخوف يا سيدة أولجا، فها أنتِ تعرفين مسبقًا أنه ستكون هناك محاولة للسرقة، أبلِغي الشرطة الآن.. إذا أَذنتِ لي، سأنصرف أنا الآن.

اعترض بارنيت قائلًا:

- لن تخرج يا دي بريجو! أحتاج لمساعدتك سيدي.

- وكيف لي أنا أن أساعدك يا بارنيت؟

- ستساعدني في القبض على شريك السارق بالطبع.

- لا يزال لدينا الوقت.. ألن تتم المحاولة هذا المساء؟

- بلى، لكن شريك السارق يدلف إلى المنزل قبل موعد تنفيذ العملية.

- هل تقصد أنه هنا بالفعل؟

- نعم، هو هنا منذ نصف ساعة.

- أتقصد منذ أن وصلت أنا إلى هنا؟

- نعم، منذ وصولك الثاني.

- لا يُعقَل!

- نعم.. لقد رأيت السارق يمر كما أراك الآن.

قال دي بريجو متظاهرًا بالدهشة:

إذن فهو يختبئ في مكان ما في هذه الشقة؟

- نعم.

- أين؟

أشار بارنيت إلى الباب، ثم قال:

- هنا، في هذه الصالة تُوجَد خزانة مليئة بالملابس والفساتين لا يفتحها أحد بعد الظهيرة. يختبئ شريك السارق داخلها.

- ولكن لا يمكن أن يكون دخل بمفرده.

- صحيح..

- مَن فتح له الباب إذن؟

- أنت يا دي بريجو.

لم يخفَ على أحد أن بارنيت كان يشير بأصابع الاتهام منذ البداية إلى دي بريجو، ولكن لم يتعدَّ كلامه -حتى تلك اللحظة- مرحلة التلميحات الضمنية، ولكن هذه الاتهام المفاجئ والمباشر لـ(دي بريجو) صعقه، وطفحت على ملامحه كل المشاعر التي كان يحاول كبتها. فوشى وجهه بالغضب والقلق والرغبة الملحة في الخروج من الموقف. استغل بارنيت الفرصة، وانطلق نحو البهو الكبير، ثم فتح الخزانة وأخرج منها رجلًا، دفعه نحو صالة الرياضة.

صرخت أولجا مفزوعة، وقالت:

- كان معك حق إذن؟

كان حجم الرجل الذي يرتدي سترة رمادية وجوارب بيضاء مماثلًا لدي بريجو، وكان وجهه مستديرًا وهادئًا مثله.

وضع بارنيت على رأس الرجل قبعة فاتحة اللون، وأعطاه قفازين لونهما أبيض، قائلًا:

- لقد نسيت قبعتك وقفازيك يا سيدي العزيز.

كانت أولجا مشدوهة من هذا المشهد، ودون أن تُنزِل عينَيها عن الرجلين، أخذت تتراجع ببطء وتصعد السلم بظهرها. لقد أدركت فجأة حقيقة دي بريجو، والمخاطر التي كانت تحدق بها في وجوده.

قال بارنيت ضاحكًا:

- كم هذا مضحكًا! أليس كذلك؟ إنهم كالتوأم تمامًا، فبنيتهم الجسدية متشابهة ووجوههما توحي أنهما كانا مهرجين فيما مضى، بالإضافة لأزيائهم المتطابقة.. ألا يبدوان كالأخوين؟

بدأ الشريكان يستفيقان من صدمتهما، ومن الضربة التي وجهها لهما بارنيت، ورأيا أن خصمهما الذي يعترض طريقهما هزيل وضعيف البنيان، أشبه بمحاسب ضئيل الحجم بمعطفه الضيق هذا.

تمتم دي بريجو بكلمات بلغة غريبة فهمها بارنيت على الفور، فقال:

- لا داعي من التحدث بالروسية لتسأل زميلك إن كان مسدسه معه.

استشاط دي بريجو غضبًا، وقال بضع كلمات بلغة أخرى.

قال بارنيت:

- حظك عثر للغاية، فأنا أتقن التركية وأعرفها تمام المعرفة. وعليَّ أن أذكرك أن بيشو، زوج أولجا ينتظر على الدرج ومعه زميلاه. إن أطلقت النار سيأتون على الفور.

نظر دي بريجو وشريكه لبعضهما البعض، وانتابهما شعور بالضياع. ولكنهما لا يستسلمان إلا إذا حسما الجولة لصالحهما ووجها لخصمهما ضربة قاضية.. فباغتوا بارنيت فجأة.

صاح بارنيت قائلًا:

- التوقيت ممتاز.. هيا بنا نتواجه رجلًا لرجل. ستكون المواجهة ضارية، وإذا غلبتموني سيضطر بيشو للخروج عن آدميته، وسترون منه وجهًا آخر.. تأملي عن قرب هذا المشهد يا سيدة أولجا! أنتِ على وشك أن تشاهدي مشهدًا مذهلًا! هذان الرجلان الضخمان يحاربان رجلًا هزيلًا مثلي. جالوت ضد طالوت.. هيا إذن يا دي بريجو! أسرِعْ رجاءً! هيا، كن شجاعًا! اقترِبْ واخنقني!

لم يفصل الرجلان عن بارنيت سوى ثلاث خطوات.. بدأ المجرمان في تجهيز أنفسهم للانقضاض عليه بعد ثانية.

حذرهم بارنيت من هذه المواجهة، ثم نظر للأرضية، وأمسك بقدم كل منهما وأسقطهما مثل الدمى. وقبل حتى أن يتسنى لهما الدفاع عن أنفسهم، شعروا بيد بارنيت وهي تثبت رأسيهما على الأرض مثل المطرقة الحديدية. بدءا في الصراخ على الفور، ثم خارت قواهما، ولم يصمدا أمامه.

بهدوء غريب، قال بارنيت:

- أولجا فوبان، هلا تفضلتِ بفتح الباب واستدعاء بيشو إلى هنا؟

سارعت أولجا بهبوط الدرج، وركضت نحو الباب بكل قواها.

ظلت تصرخ:

- بيشو! بيشو!

عادت مع المفتش، وكانت مفعمة بالحماس والرعب في آنٍ واحد، وقالت:

- انتهى الأمر! لقد قضى عليهم وحده! لم أكن لأتوقع هذا من شخص مثله!

قال بارنيت:

- ها هما فريستاك يا بيشو. لم يبقَ سوى أن تضع الأصفاد في أيديهما حتى أتركهما يتنفسان الصعداء.. كم أشفق عليهما المسكينين! لا داعي أن تُحكِم إغلاق الأصفاد، أعدك بأنهما سيتصرفان بعقلانية. أليس كذلك يا دي بريجو؟ لا

رغبة لديك في المقاومة، أليس كذلك؟

نهض بارنيت عن الأرض، وقبَّل يد أولجا التي كانت تنظر إليه بإعجاب شديد، ثم قال بسعادة:

- كانت معركة اليوم ممتعة للغاية! تمكنا من صيد فريستين هما من أشد وأضخم وأكثر الفرائس دهاءً ومكرًا! أحييك على طريقة عملك يا دي بريجو.

كان بارنيت يطرق بأصابعه على صدر معلم الجمباز، بينما كان بيشو يمسك به بإحكام، فتابع بارنيت كلامه في سعادة، وقال:

- إنها خطة عبقرية يا دي بريجو، عندما وقفنا أنا وبيشو في غرفة حراس العقار، رأيتك بالفعل وراقبت تحركاتك، وأدركت أن آخر شخص دلف لم يكن أنت. أما بيشو فقد وقع في فخك بعد تردُّد دام بضع ثوانٍ، وظن أن الرجل ذا الجوارب البيضاء والقفازات البيضاء والقبعة فاتحة اللون والسترة الرمادية الذي دلف من أمامنا، دون أن يكون قد خرج من أمامنا، هو أنت يا دي بريجو. بفضل خطتك المحكمة صعد دي بريجو الثاني براحة تامة، وتسلل من الباب الذي تركته غير مغلق عمدًا، ثم اختبأ في الخزانة. وهذا هو ما فعلته في الليلة التي سطوت فيها على غرفة نوم السيدة أولجا. ألا تعترف أنك عبقري؟!

لم يتمالك بارنيت نفسه من فرط سعادته؛ فراح يقفز على المتوازي في صالة الجمباز، ثم قفز فوق لوح ثابت أخذ يدور كالمروحة. أمسك في آنٍ واحد بالحبل المعقود كحلقة الجمباز؛ كأنه قرد يمرح في قفصه! كان منظر معطفه الضيق وهو يتدلى من خصره في الهواء، وهو مقلوب رأسًا على عقب مثيرًا للضحك.

كانت أولجا مندهشة من كل ما يدور حولها، ووجدت بارنيت فجأة أمامها، يقول لها:

- ضعي يدكِ على قلبي يا سيدتي الجميلة، يكاد نبضي يتوقف، أليس كذلك؟ ماذا عن جبهتي؟ لم يعد لديَّ قطرة عرق واحدة.

أمسك بارنيت بالهاتف، وطلب رقمًا، ثم قال:

- مرحبًا، أريد التحدث إلى قسم الشرطة.. إلى قسم الأمن العام.. ألبرت، أهذا أنت؟ نعم، معك بيشو. ألم تتعرَّف صوتي؟ لا بأس! أبلِغْهم أن المفتش بيشو قد ألقى القبض على القاتلين المأجورين المتهمين بسرقة منزل السيدة أولجا فوبان.

مد بارنيت يده لبيشو، ثم قال:

- تستحق أن تنال هذا المجد يا بيشو.. سيدتي، أستميحكِ عذرًا.

توجه بارنيت إلى دي بريجو، وقال له:

- لا تبدو لي سعيدًا يا دي بريجو.

غمغم دي بريجو قائلًا:

- لا يستطيع أحد أن يُوقِعني إلا رجل واحد.

- ومَن يا تُرَى؟

أرسين لوبين.

قال بارنيت:

- أصبت يا دي بريجو، يا له من تحليل سيكولوجي رائع! أتعرف؟ طالما أنك حي ولم تُعَدم؛ سيظل ذهنك حاضرًا. ولكن للأسف، يبدو لي أن رقبتك لم تعد على ما يرام.

انفجر ببارنيت ضاحكًا، ثم ودع أولجا، وغادر بخفة وهو يتغنى، ويقول:

«إيزيدور يعشقني، ولكنني أحب چيمس».

في اليوم التالي وبعد أن انهالت الأسئلة على دي بريجو، اعترف أن أثاث السيدة أولجا فوبان في حظيرة في ضواحي باريس، وحدث ذلك يوم الثلاثاء وقد وفَّى بارنيت بوعده.

بعد مرور بضعة أيام، كان بيشو مجبرًا على الذهاب إلى الريف لإتمام مأمورية كُلِّف بها، وعند عودته، وجد رسالة من بارنيت تقول:

«عليك أن تعترف أنني ترفعت هذه المرة عن أي مكاسب! لم أجنِ فلسًا واحدًا من القضية برمتها! ولم أسئ إليك بأي طريقة! أتمنى لو حظيت بتقديرك فقط يا بيشو!».

في اليوم التالي بعد الظهيرة، عزم بيشو على إنهاء علاقته ببارنيت، فتوجه إلى الوكالة في شارع دي لابورد، لكنه وجد الوكالة مغلقة، ومعلقًا عليها لافتة تقول:

«مغلق لأسباب عاطفية..

سنعود للعمل بعد شهر العسل».

تسرب القلق إلى بيشو؛ فغمغم قائلًا:

- ما الذي يعنيه هذا الكلام؟

فركض على الفور إلى منزل أولجا ووجده مغلقًا هو الآخر. انطلق إلى كازينو (فولي بيرجير) وهناك، أخبروه أن الفنانة دفعت تعويضًا كبيرًا لاضطرارها للسفر.

عندما خرج إلى الشارع، أخذ يردد:

- يا للهول! أيُعقَل؟ هل فشل بارنيت في الحصول على المال فقرر مغازلتها؟! لا! هذا شيء مريع! يا لحسرتي! كيف لي أن أتأكد؟

خاف بيشو من التحقق من هذا السيناريو الذي خشيه أكثر من أي شيء آخر.

ولكن للأسف، فبارنيت لا يدع فريسته تنعم بلمحة هدوء، فأخذ يرسل الخطابات لبيشو، الواحد تلو الآخر، ويرسل له بطاقات بريدية عليها رسومات وبعض الكتابات المبهجة، وقال له في إحدى هذه الخطابات: «إن منظر اكتمال القمر في روما رائع يا بيشو! أدعوك أن تأتي إلى صقلية إن أُغرِمت في يوم ما».

أخذ بيشو يعض على أسنانه، ويقول:

- حقير! سامحتك على كل شيء.. ولكنني لن أسامحك على هذه الفعلة أبدًا يا بارنيت.. انتقامي وشيك!

بيشو يلقي القبض على چيم بارنيت

دخل بيشو إلى إدارة الشرطة واجتاز الممرات، أخذ يصعد الدرج، ثم فتح الباب دون أن يطرقه، وهُرِع مباشرةً إلى مديره، كان وجهه متجهمًا مما يحمله من أخبار، تلعثم، ثم قال أخيرًا:

- إن چيم بارنيت متورط في قضية ديروك! لقد رأيته بأم عيني أمام منزل النائب ديروك.

- چيم بارنيت؟

- نعم يا سيدي، ذلك المخبر الذي حدثتك عنه مرارًا وتكرارًا. هو مختفٍ منذ بضعة أسابيع.

- برفقة الراقصة أولجا، أليس كذلك؟

لم يتمالك بيشو نفسه من الغضب، فصاح:

- نعم، زوجتي السابقة!

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- قمت بتتبعه على الفور.

- ألم يشك في أنك تراقبه؟

- لم يسبق أن كشفني أحد وأنا أراقبه يا سيدي. ومع ذلك ورغم أنه كان يبدو هائمًا على وجهه، فإن هذا المحتال كان يتخذ احتياطاته. لقد رأيته يسير من ميدان إيتوال، ويدلف إلى شارع كليبر، ثم توقف في ميدان تروكاديرو الصغير بالقرب من امرأة جالسة على مقعد. أظنها غجرية، وكانت جميلة وترتدي وشاحًا ملونًا، وشعرها أسود يغطي رأسها كأنه خوذة.

بعد نحو دقيقة أو دقيقتين، بدءا في الحديث معًا دون أن تتحرك شفاههما، وثبتا أعينهما على إحدى البنايات الموجودة على ناصية شارع كليبر وميدان تروكاديرو. ثم ما لبث أن نهض من مكانه واستقل المترو.

- وكنت لا تزال تراقبه؟

- نعم، ولكن لسوء حظي فاتني المترو، وعندما عدت إلى الميدان كانت الغجرية قد غادرت.

- وهل تبادر إلى ذهنك أن تذهب إلى ذلك المنزل الذي كانا يراقبانه؟

- كنت سأخبرك للتو يا سيدي.

فاستكمل بيشو بفخر، وقال:

- الشخص الذي يقطن هذه البناية، وبالتحديد شقة مفروشة بالطابق الرابع، هو والد المتهم، اللواء المتقاعد ديروك، وكما تعرف فإنه عاد من الريف للدفاع عن ابنه ضد تهمة الاختطاف والاحتجاز والاغتيال.

نالت الجملة استحسان رئيس الشرطة، وقال:

- هل عرفت نفسك للواء؟

قال بيشو:

- نعم، لقد فتح لي الباب بنفسه وأخبرته عن المشهد الصغير الذي رأيته لتوي في ميدان تروكاديرو. لم يفاجئه ذلك، وقال لي إنه في اليوم السابق زارته غجرية، وعرضت عليه خدماتها؛ كالتخاطب مع الأرواح، وقراءة الطالع من أوراق التاروت؛ مقابل ثلاثة آلاف فرنك، وكان من المفترض أن يذهب في ذلك اليوم إلى ميدان تروكاديرو بين الساعة الثانية والثالثة؛ ليعطيها إشارة بالموافقة على المبلغ، فتأتي لمقابلته.

- وما العرض الذي قدَّمته له هذه الغجرية؟

- كانت تدَّعِي أن بمقدورها جلب الصورة الشهيرة التي يبحث عنها.

قال رئيس الشرطة:

- الصورة التي نبحث عنها نحن أيضًا؟

- هي بعينها. الصورة التي قد تُورِّط النائب ديروك في القضية أو تبرئه، وفقًا لما يُوجَد فيها ووفقًا لموقف القاضي.

خيم الصمت طويلًا بعدها، ثم قطع ضابط الشرطة هذا الصمت، وسأل بثقة قائلًا:

- هل تدري ما حجم المكافأة التي رصدناها نظير تلك الصورة يا بيشو؟

- نعم، أعلم تمامًا.

- بل إن حجم المفاجأة يتخطى ما تعرفه أنت حتى. يجب علينا، وبصورة إلزامية، الحصول على تلك الصورة قبل أن تصل إلى أيدي النيابة العامة.

ثم أردف يقول بصوت خافت:

- الشرطة أولًا...

وبنفس النبرة المفعمة بالجدية قال بيشو:

- ستحصل عليها يا سيدي، ومعها المخبر بارنيت في آنٍ واحد.

في الشهر الذي سبق هذه المحادثة بين بيشو ورئيسه، كان الممول

ڤيرالدي، وهو أحد أكبر أثرياء فرنسا؛ نظرًا لحجم ثروته وعلاقاته السياسية وجرأته ونجاح مؤسساته، ينتظر زوجته على الغداء، لكنها لم تأتِ. لم تعد لمنزلها في ذلك المساء، ولم يرَها أحد طوال الليل.

بدأت الشرطة في البحث عنها، وتوصلت على الأرجح إلى أن كريستيانا ڤيرالدي التي كانت تسكن على مقربة من غابة بولونيا، كانت تتنزه في هذه الغابة؛ كعادتها كل صباح، عندما اعترض أحدهم طريقها في شارع خالٍ من المارة، ثم سحبها بعنف إلى السيارة، وانطلق بها باتجاه نهر السين بسرعة جنونية.

لم يتمكن أحد من تعرُّف الرجل، ولكنه كان يبدو يافعًا، وكان يرتدي سترة زرقاء وسميكة يعلوها رداء أسود. لم ترِد أي أوصاف أخرى عنه، ولم تتطور التحقيقات منذ ذلك الحين.

لكن الأمور انقلبت رأسًا على عقب، عندما لاحظ بعض المزارعين الذين كانوا يعملون بالقرب من طريق شارتر في باريس، أن هناك سيارة يقودها أحدهم تسير بسرعة جنونية. ثم علا منها صوت صرخات فجأة، ورأوا أن باب السيارة انفتح، وأُلقِيت منه امرأة على الطريق. انطلق المزارعون على الفور صوب هذه المرأة.. وفي الوقت نفسه، صعدت السيارة أحد التلال، وعبرت إحدى الحدائق، ثم ارتطمت بشجرة، وكان محرك السيارة لا يزال دائرًا.. خرج من السيارة رجل سليم ومعافى بمعجزة إلهية، ثم أخذ يركض نحو المرأة. ولكنها كانت قد ماتت؛ حيث ارتطم رأسها على ركام من الحصى.

نُقِلت المرأة إلى فندق مجاور، وتم إبلاغ الشرطة. لم يتردد الرجل في الكشف عن اسمه. لقد كان النائب جان ديروك، نائبًا برلمانيًّا مرموقًا ورئيس المعارضة، وابن اللواء المتقاعد ديروك.. أما الضحية فقد كانت السيدة كريستيانا ڤيرالدي ابنة رجل الأعمال ڤيرالدي.

وعلى الفور حمي وطيس المعركة المفعمة بالعدائية، واستُنفِر زوج الضحية، واستُنفِر القضاء الذي لم يكن عداؤه لجان ديروك أقل ضراوةً من زوج الضحية؛ حيث كان بعض الوزراء يخططون لإقالة النائب ديروك من منصبه.

لم تكن تهمة الاختطاف التي يواجهها جان ديروك محل خلاف، لا سيما وأنه كان يرتدي سترة زرقاء وفوقها رداء أسود، تمامًا مثلما أفاد الشهود في وصفهم للجاني.

أما عن تهمة القتل، فإن شهادة المزارعين كانت قاطعة: لم يروا إلا ذراع الجاني وهو يدفع بالضحية خارج السيارة. وعلى ذلك، تمت المطالبة برفع الحصانة البرلمانية عن النائب.

إن رد فعل النائب ديروك أضعف موقفه للغاية؛ لأنه اعترف مباشرةً أنه اختطف الضحية واحتجزها بلا أي مراوغة. ولكنه قام بدحض تهمة القتل التي وُجِّهت له وفقًا لإفادة المزارعين الذين شهدوا الواقعة.

طبقًا لأقواله، فإن السيدة هي التي ألقت بنفسها من السيارة وفعل هو المستحيل للحاق بها ومنعها من الانتحار. ولكن النائب أصر على التكتم على ملابسات هذا الفعل الانتحاري وملابسات الاختطاف وجملة ما حدث خلال اليومين اللذين اختفت فيهما السيدة، وكذلك المناطق التي مرت بها والأحداث التي سبقت هذه النهاية المؤسفة.

لم يكن من السهل استنتاج تفاصيل اللقاء الأول بين النائب ديروك والسيدة ڤيرالدي، ولا مكان لقائهما، لا سيما وأنه لم يسبق لزوجها أن التقى بالنائب ديروك من قبل حتى.

عندما كانت تحاصر النيابة النائب البرلماني ديروك بالأسئلة، كان يرد قائلًا:

- لم يعد لديَّ ما أقوله. صدِّقوا ما تريدون تصديقه، وافعلوا بي ما شئتم. فمهما حدث، لن أتفوه بكلمة.

حتى إنه لم يمثُل أمام لجنة مجلس النواب.

عندما ذهب ضباط الشرطة ومن بينهم بيشو إلى منزل النائب ديروك، فتح لهم الباب بنفسه وقال:

- أنا مستعد لمرافقتكم يا سادة.

تم تفتيش المنزل بدقة فائقة، ووجدوا في مدفأة حجرة المكتب كوم رماد يدل على احتراق أوراق كثيرة. فتحوا الأدراج وفتشوها، وأفرغوا كل الأثاث من محتوياته، حتى إنهم هزوا كتب المكتبة، وقاموا بربط حزمة من المستندات للاطلاع عليها لاحقًا.

في خضم كل ذلك، كان جان ديروك يتابع هذا الضجيج بلا أدنى اهتمام. لم يحدث ما يثير الشك خلال جولة التحقيقات باستثناء حدث واحد ذي دلالة بالغة.

فقد وجد بيشو، الذي كان أمهر من زملائه، لفافة ورق يبدو أنها كانت ملقاة بشكل عشوائي على الأرض؛ فوضعها في جيبه ليطلع عليها لاحقًا وفي هذه اللحظة انتفض ديروك نحوه، وحاول انتزاعها من بين يدَيه، وصرخ قائلًا:

- هذه الورقة غير مجدية على الإطلاق! إنها صورة قديمة، تفككت حتى من بروازها الكرتوني.

كان رد فعل بيشو يوازي في حدته تصرُّف ديروك غير المنطقي، فجذب منه اللفافة بقوة وعنف، لكن النائب هَمَّ بالفرار وغادر حجرة مكتبه، مغلقًا الباب وراءه. دلف ديروك إلى غرفة مجاورة كان يحرسها أحد رجال شرطة الأمن العام. ما لبث أن لحق به بيشو وزملاؤه حتى احتدم النقاش بينهم، فقد تم تفتيش جيوب جان ديروك، ولكن لم يجدوا اللفافة المفقودة التي احتوت على الصورة. عند استجواب شرطي الأمن العام، أفاد بأنه تمكّن من اعتراض طريق الجاني

الهارب، ولكنه لم يرَ المستند الذي كانوا يبحثون عنه.

تم إصدار أمر بإلقاء القبض على النائب ديروك، فاقتادته الشرطة إلى القسم. هذه هي الواقعة المأساوية في نقاط مختصرة.

أحدثت تلك الواقعة المأساوية التي وقعت قبيل الحرب العالمية صدًى بالغًا، حتى إنه ليس من الضروري إعادة سرد تفاصيل القضية أو إعادة سرد سير التحقيقات القضائية التي ما كانت لتُجدِي نفعًا لولا تدخُّل بيشو.

فالهدف من قص هذه القضية الآن، لا يكمن في تبديد غموض القضية نفسها، بل في الكشف عن تلك الحلقة السرية التي سرَّعت من وتيرة التحقيقات، وساعدت على غلق ملف القضية، والتي وضعت حدًّا لهذا الصراع الدائر بين بيشو وبين خصمه المخبر السري بارنيت.

ففي هذه الجولة كانت المعركة بينهما مختلفة، قد أصبح بيشو على دراية بألاعيب بارنيت، كما أنه يعرف مسبقًا الطريقة التي سيهاجمه بها، بالإضافة إلى أن هذه الجولة تدور في هذه المرة على ملعب بيشو.

في اليوم التالي لحديث بيشو مع رئيسه، أبلغ ضابط الشرطة بنفسه اللواء ديروك، والد المتهم، بقدوم بيشو. فتح له الباب خادم يرتدي زيًّا أسود، وبطنه كبير، تمامًا كالمحاسبين الريفيين.

قام الخادم بإبلاغ سيده بوصول بيشو، الذي دلف ووقف خلف النافذة لمدة ساعتين أو ثلاث ليراقب ميدان تروكاديرو دون جدوى.. فلم تظهر المرأة الغجرية. ولم يختلف الأمر كثيرًا في اليوم التالي.

ظن بيشو أن بارنيت يأخذ احتياطاته، واتفق مع السيد ديروك على القدوم كل يوم ومراقبة الميدان من النافذة.

كان اللواء رجلًا نحيفًا، طويل القامة ونشيطًا، ويبدو كموظف حكومي مسن بسترته الرمادية. كان متبلدًا بعض الشيء وقليل الكلام، ويصب كل اهتمامه على أولوياته، وكان ابنه على رأس هذه الأولويات.

لم يكن يشك ولو للحظة واحدة في براءة ابنه جان ديروك، فمنذ اللحظة التي وصل فيها إلى باريس وهو يؤكد ذلك في كل المقابلات، حتى كسب بحديثه تعاطُف الرأي العام معه:

«لا يمكن أن يؤذي جان أحدًا، ولا أن يبدر منه أي تصرُّف سيئ. إن كان لابني جان أي عيوب فعيبه الرئيس هو الإفراط.. الإفراط حتى في استقامته وانضباطه إلى حد التهور، فقد ينسى جان نفسه أحيانًا، وينسى حتى مصلحته الشخصية. وقد تمادى في ذلك، وأضر بنفسه، لدرجة أنني لا أرغب في زيارته في زنزانته، وأرفض مقابلة محاميه، ولا أكترث بشعوره بالذنب. إنني لم آتِ إلى هنا للتشاور معه، ولكن للدفاع عنه وإنقاذه من نفسه، فكل رجل يقطع على نفسه عهدًا، وإن كان قد تعهد هو بالتزام الصمت، فإن العهد الذي قطعته

أنا على نفسي يُملِي عليَّ أن أحافظ على سمعة عائلتنا».

ذات يوم، بينما كانت الأسئلة تنهال على اللواء، صاح قائلًا:

- أتريدون سماع رأيي؟ ها هو رأي بصراحة تامة ودون أي تحفُّظ: لم يخطف جان أحدًا، وإنما ذهبت الضحية معه بملء إرادتها. وإن كان جان يلتزم الصمت حتى الآن؛ فإنه يفعل ذلك حفاظًا على سمعة امرأة متوفاة، وأنا على يقين أن ثمة علاقة حميمة كانت تجمع القتيلة بابني. ابحثوا جيدًا وستجدون الدليل.

لم يتوقف اللواء من ناحيته عن البحث قط، وكان يقول لبيشو:

- لديَّ العديد من الأصدقاء الأقوياء والمخلصين في كل مكان الذين يعكفون على هذه القضية. ولكن التحقيقات متعثرة حتى الآن؛ لأننا ينقصنا دليل واحد مثلك تمامًا أيها المفتش. تلك الصورة التي فقدناها.. تكمن القضية بأكملها في إيجاد تلك الصورة. لقد دبَّر الممول ڤيرالدي وخصوم ابني السياسيون مؤامرة، وذلك بمساعدة بعض أعضاء الحكومة؛ من أجل العثور على هذه الوثيقة المفقودة، ولا بد أنك على علم بكل ذلك. لقد قلبوا منزله رأسًا على عقب؛ بحثًا عن الصورة، وقام ڤيرالدي برصد مكافأة مالية لمَن يرشدهم إلى أي دليل. فلننتظر إذن، عندما تسنح لنا الفرصة، سيكون بين أيدينا دليل دامغ على براءة ابني.

أما بالنسبة لبيشو فلم يكن يكترث مطلقًا لبراءة النائب من عدمها. كانت مهمته تقتصر على العثور على هذه الصورة المفقودة، وكان يعرف في قرارة نفسه أن أعداء النائب ديروك سيعرفون كيف يطمسون هذا الدليل ويخفون هذه الصورة حتمًا، ما دامت ستساعد النائب وتكون في صالحه.

ظل بيشو يعكف على مهمته، وظل ينتظر الغجرية التي لم تأتِ قط. كان يترقب أيضًا ظهور بارنيت الذي توارى عن الأنظار، وأخذ في اعتباره أقوال اللواء ديروك الذي كان يُطلِعه من جهته على آخر تطوُّراته، وعلى خطواته وآماله.

ذات يوم، استدعى اللواء العجوز المسن بيشو وقد بدا مشتتًا بعض الشيء؛ ليخبره بما استجد، فقال له:

- سيدي المفتش، لقد توصلنا أنا وأصدقائي إلى حقيقة مفادها أن الشخص الوحيد الذي قد يُجدِي نفعًا في مسألة اختفاء الصورة هو شرطي الأمن العام الذي اعترض طريق ابني يوم إلقاء القبض عليه. ولا أعرف لماذا لم يخبرنا أحد باسمه، كل ما عرفناه عنه هو أن قسم الشرطة استعان به. ماذا حل به؟ لا يعرف أحد عنه شيئًا، على الأقل في محيط زملائك.. ولكن في دائرتي أنا، أصبحنا على يقين أنه تم استجواب هذا العميل وأنه وُضِع تحت المراقبة. وعلى ما يبدو فقد تم تفتيش شقته بالكامل بما في ذلك ملابسه وأثاث منزله. وتم التحقيق مع عائلته بأسرها. هل عليَّ أن أخبرك كذلك بأسماء المفتشين الذين كُلِّفوا بهذه المهمة؟ هل عليَّ أن أخبرك أن اسمك يا بيشو من بين هؤلاء المفتشين؟ اشرح لي الموقف أرجوك!

لم ينكر بيشو هذه الأقاويل، ولم يؤكدها أيضًا، وهذا ما دفع اللواء للصياح قائلًا:

- صمتك يا سيد بيشو يبرهن على أهمية الاستعلامات التي أقوم بها من جانبي، وأنا على يقين أن استعلاماتي ستثمر عن شيء ما، وأرجو أن يسمح لك رؤساؤك بإحضار هذا الشرطي إليَّ لمقابلته. فلترفع طلبي هذا إلى مَن يهمه الأمر. وفي حالة الرفض، سأقوم بـ...

وافق بيشو على هذا الطلب برحابة صدر؛ لأن خطته لم تسفر في كل الأحوال عن شيء حتى تلك اللحظة.. ماذا حل ببارنيت؟ وما دوره في هذه القضية؟ فبارنيت ليس بالرجل الذي يعمل في الظل، فبين لحظة وأخرى ودون مقدمات، ستجده أمامك وسيكون الأوان قد فات.

حصل بيشو على تفويض كامل للعمل على هذه القضية، وبعد مرور يومين، كان سيلڤستر، خادم السيد ديروك، يخبره بقدوم بيشو برفقة شرطي الأمن العام ريمبورج.

كان ريمبورج رجلًا شجاعًا وهادئًا، يرتدي زيه الرسمي، ويُعلِّق في خصره مسدسًا وعصًا بيضاء.

كانت المقابلة طويلة، ولم تثمر عن شيء مفيد. كان ريمبورج صارمًا وثابتًا على قول واحد: لم يرَ شيئًا. ورغم ذلك، فقد كشف عن تفصيلة أوضحت للواء ديروك سبب وضعه تحت المراقبة: كان النائب ديروك هو مَن توسط له لتعيينه عندما تعرَّف إليه في أثناء خدمته في كتيبته.

توسل إليه اللواء بأن يفصح عن المزيد من المعلومات تارةً، وتملَّكه الغضب تارةً أخرى، وأخذ يهدده ويتحدث باسم ابنه، ولكن ريمبورج لم يهتز له طرف، وأكد أنه لم يرَ الصورة مع النائب في ذلك اليوم، وأكد -بالإضافة لذلك- أن النائب ديروك لم يتعرَّف إليه من الأساس وسط ارتباكه وتوتُّره. لم تكن المشاحنة ستجدي نفعًا، فتراجع اللواء، وقال له:

- أشكرك وأود لو كان بإمكاني تصديقك، لكن علاقتك السابقة بابني تدعوني للتمسك بالشك الذي يساورني.. يا لها من مصادفة غريبة!

ثم قرع اللواء الجرس، وقال:

- سيلڤستر، رافِق السيد ريمبورج من فضلك.

فخرج الخادم والشرطي، وأُغلِقت البوابة وراءه. في هذه اللحظة، نظر بيشو في عينَي اللواء ديروك؛ فوجده مغتبطًا لسبب ما غير مبرر بالمرة. انقضت بضع ثوانٍ، وحدث حينها شيء باهر جعل بيشو يحدق مشدوهًا، بينما كان اللواء يبتسم.

ظهر من آخر الغرفة، الذي ظل بابها مفتوحًا، شيء غريب أخذ يتقدم إلى الأمام. كان لهذا الشيء ذراعان متدليتان من رأس يميل للأسفل، وبطن

منفوخ ومستدير مثل الكرة يعتلي ساقين نحيفتين تهتزان في اتجاه السقف.

وفجأةً، وقف هذا الشيء، وأخذ يدور على طرف قدمه التي كانت مثبتة على القدم الأخرى مثل النحلة. كان هذا الشيء هو الخادم سيلفستر الذي تملَّكه جنون هستيري؛ فأخذ يدور حول نفسه مثل الدراويش، وكان بطنه يرتج من فرط الضحك، ويُصدِر صوتًا من فمه المفتوح مثل القُمع.

أكان هذا سيلفستر حقًّا؟ أمام هذا المشهد الغريب بدأت جبهة بيشو تتصبب عرقًا. هل كان هذا الشيء هو سيلفستر نفسه الذي كان يسير دومًا بلا مبالاة مثل محاسب ريفي؟

وفجأة توقف هذا الشيء عن الحركة وثبت عينَيه العريضتين المستديرتين على بيشو، ثم زالت تلك الابتسامة عن وجهه كقناع يسقط، ثم بدأ في فك أزرار معطفه والصدرية التي كان يرتديها، ونزع بطنه المطاطية، ثم ارتدى سترة ناولها له اللواء ديروك، فنظر لبيشو مرة أخرى، وقال بلهجة حادة:

- بيشو، أيها الأبله!

لم يكن بيشو غاضبًا، فقد كان يستحق أسوأ الإهانات؛ بسبب ضعف موقفه.. لم ينبس إلا بكلمة واحدة فقط:

- بارنيت..

رد الآخر قائلًا:

- أصبت.

كان اللواء يضحك من قلب خلي، فتوجه بارنيت إليه بالحديث، وقال:

- اعذرني يا سيادة اللواء، فعندما أنجح في أمر، تتملكني سعادة غامرة، وأجد نفسي أقوم ببعض الحركات البهلوانية التي قد تبدو في غاية السخافة.

- وهل نجحت يا سيد بارنيت؟

رد بارنيت:

- أظن ذلك. كل هذا بفضل صديقي القديم بيشو، ولكن دعنا لا نشوقه كثيرًا، ولنسرد له التفاصيل التي غابت عنه منذ البداية.

جلس بارنيت، وقام هو واللواء بإشعال سجائر، ثم قال بارنيت بسعادة:

- حسنًا يا بيشو، لقد كنت في إسبانيا حين أرسل لي صديق مشترك طلبًا عاجلًا لمساعدة اللواء ديروك. لقد كنتُ مغرمًا بإحداهن في هذه الرحلة كما تعرف بالتأكيد. كنت مع هذه السيدة الساحرة.. لكن بدأت عواطفنا تخفت شيئًا فشيئًا، وهذا ما جعلني أتوق لنيل حريتي واستقلالي من جديد، فعدت برفقة غجرية لطيفة للغاية كنت قد قابلتها في غرناطة.

وراقت لي القضية على الفور لنفس السبب الذي شغلك أنت أيضًا.. وتوصلت إلى أنه إذا كان هناك حق قد دليل قد يبرئ النائب ديروك أو يدينه، فسنجده بحوزة الشرطي الذي اعترض طريقه في أثناء محاولته الهروب.

وهنا، أعترف لك يا بيشو، أنه رغم حيلتي وبراعتي ومصادري الخاصة، لم أتمكن من معرفة اسم هذا الشرطي الشجاع. فقلت لنفسي: ما العمل إذن؟ كانت الأيام تمر شيئًا فشيئًا، وكانت المحنة تزداد صعوبةً على اللواء وابنه، وكنت أنت الأمل الوحيد يا بيشو.

بدا بيشو مهزومًا ومنكسرًا، لدرجة أنه لم يحرك ساكنًا. شعر أنه وقع في فخ كرهه أكثر من أي شيء آخر. أي رد فعل من جانبه ما كان ليجدي نفعًا؛ فالأمور قد ساءت بالفعل.

كرر چيم بارنيت كلامه:

- كنت أنت الأمل الوحيد يا بيشو. كنت أنت الوحيد الذي يمكنه أن يجلب لنا بعض البيانات عن هذا الشرطي.. وكنا على دراية بأنك كنت مكلفًا باستجوابه. ولكن كيف أستدرجك إلى هنا؟ الأمر بسيط. ألقيت بنفسي في مرماك في أحد الأيام، وتركتك تتعقبني حتى ميدان تروكاديرو، حيث كانت غجريتي الجميلة في انتظاري. كان يكفي أن نتحدث أنا وهي بصوت خافت وأن نحدق نحو هذا المنزل؛ حتى تقع أنت في شراكنا. ففكرة القبض عليَّ أو على شريكتي استهوتك بشدة. ولذلك نصبت غرفة عملياتك الخاصة هنا، ببيت اللواء ديروك وبالقرب من خادمه سيلڤستر (أنا).. وبطبيعة الحال كان يمكنني رؤيتك وسماعك يوميًّا والتأثير عليك بواسطة اللواء ديروك.

وهنا التفت چيم بارنيت إلى اللواء، وقال:

- تحياتي الخالصة لك يا سيادة اللواء، لقد كنت دقيقًا وغامضًا مع بيشو، لدرجة أنك أثرت شكوكه وجعلته يتوجه نحو الهدف الذي نقصده نحن، وجعلته يضع الشرطي المجهول طوعًا تحت تصرُّفنا لعدة دقائق. نعم يا بيشو، تلك الدقائق القليلة وفت بالغرض. ذكِّرْني مجددًا يا بيشو بهدفنا وهدفك وهدف الشرطة وهدف النيابة العامة والجميع. العثور على الصورة، أليس كذلك؟

في الحقيقة كنت أدرى الناس ببراعتك، ولم يكن لديَّ أدنى شك في أنك قد أجريت تحقيقاتك على أكمل وجه. فلم يكن هناك داعٍ لأن أسلك نفس الطرق التي سلكتها أنت آلاف المرات؟ كان يتعين عليَّ أن أفكر خارج الصندوق، أن أفكر في حيلة استثنائية ومذهلة، وهذا ما فعلته حتى نصل لليوم الذي تجلب لنا فيه الشرطة بنفسها الشرطي المجهول، ليتم تفتيشه بضربة واحدة.. لقد فتشت الشرطة ملابس هذا الرجل، وجيوبه، وبطاناته، ونعال حذائه، وكعبه المجوف الذي قد يساعد على دس أي مستند.. لكن هذه كلها حيل تقليدية. كان السر يكمن -كما خمنت أنا يا بيشو- في تفتيش مكان يستحيل أن يتبادر إلى ذهن أحد التفتيش فيه؛ بسبب غرابته.. السر يكمن في التفكير في

الشيء الذي يستحيل التفكير فيه.. تعيَّن عليَّ أن أفكر في المخبأ الذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بوظيفة هذا الرجل دون أي وظيفة أخرى. فما هذا الشيء الذي يميز شرطي الأمن العام ويتيح له القيام بعمله؟ ما الذي يميزه عن الضابط العادي وضابط الجمارك أو حارس محطة أو حتى مفتش شرطة عادي؟

فكِّرْ يا بيشو، وقارِنْ بين هذه المهن. سأمهلك ثلاث ثوانٍ لا غير لتفكر في الأمر، فالأمر في غاية الوضوح.

واحد.. اثنان.. ثلاثة.

هل توصلت لشيء؟ هل فهمت الأمر؟

في الحقيقة لم يعِ بيشو أي شيء، رغم سخافة الموقف وسهولة هذا السؤال. حاول بيشو مرارًا التركيز في تفاصيل الشرطي واسترجاع ما قد يرتبط به خصيصًا، وبمهام عمله دون غيره.

باغته بارنيت:

- عجبًا يا صديقي بيشو! يبدو أنك لست على ما يرام اليوم، رغم أن ذهنك دائمًا متقد!

يبدو أنه يتعيَّن عليَّ أن أضع لك النقاط فوق الحروف لتفهم.

ولكن بارنيت ركض خارج الغرفة، ثم عاد وهو يُثبِّت على أنفه عصًا بيضاء. نفس العصا التي يستخدمها أفراد الشرطة وقوات حفظ النظام في باريس ولندن وكل أنحاء العالم للسيطرة على الجماهير، إصدار الأوامر، والتحكم في الجموع وتحريك المشاة وتنظيم حركة المرور.. بهذه العصا يتحكمون في كل شيء، كما لو كانوا ملوكًا بالشوارع..

أخذ يقذف العصا في الهواء مثلما يفعل البهلوان بالزجاجة، ثم مررها خلف قدمه وظهره وحول عنقه، ثم جلس والتقط العصا أخيرًا بين إبهامه وسبابته، ثم أخذ يُحدِّث العصا ويقول لها:

- أنتِ أيتها العصا البيضاء، يا رمزًا للسلطة.. لقد أخذتكِ من حزام الشرطي ريمبورج واستبدلتكِ بغيرك. نعم، لم أخطئ عندما خمنت أنكِ أنتِ الخزنة المنيعة التي تخفي الحقيقة، أليس كذلك؟ كنتِ أنتِ العصا السحرية الصغيرة! يستخدمونكِ لتوقيف سيارة خصمنا ڤيرالدي، أو سيارة هذا الوزير أو ذاك.. لقد كنتِ أنتِ مَن يملك سر القضية منذ البداية.

أمسك بيده اليسرى بذراع العصا التي تتخللها شقوق صغيرة وضغط بيده على القطعة المصنوعة من خشب المران الصلب المدهون، وحاول أن يفك المسمار المربوط، ثم قال:

- ها هي! يا لها من تحفة فنية صعبة الصنع، بل مستحيلة الصنع! يا له من إعجاز فني! لا بد أن الشرطي ريمبورج يعرف خراطًا قلَّما نجد مثله في زماننا.

وإلا فكيف يتمكن أحدهم من تفريغ عصا مصنوعة من خشب المران الصلب ودس أنبوب في تجويفها دون أن يتحطم الخشب؟! لقد ربط الخراط مسمارًا لا يظهر على الإطلاق، وبالإضافة لكل هذا، قام بتثبيت المسمار بإحكام؛ بحيث لا يكسر صولجان الشرطي ذراع العصا.. ما هذه الحرفية؟!

أدار بارنيت المسمار الذي بدأ يتزحزح؛ فكشف عن غطاء نحاسي. كان كُلٌّ من اللواء وبيشو يشاهدان ما يحدث في تعجُّب شديد. انقسم هذا الشيء لقسمين، يحتوي أحدهما على أنبوب نحاسي يصل لنهاية العصا.

اندهش اللواء وبيشو وحبسا أنفاسهما.. أما بارنيت، فقد كان يتصرف بوقار رغمًا عنه.

أخذ بارنيت الأنبوب النحاسي وقلبه بوضع رأسي، وجعله يرتطم بالطاولة، حتى سقطت ورقة من داخل هذا الأنبوب.

كان بيشو في قمة غضبه، وصاح قائلًا:

- إنها الصورة.. إنها هي.

- تعرفها إذن، أليس كذلك؟

كان يبلغ حجمها خمسة عشر سنتيمترًا، وقد تفككت من إطارها الكرتوني، وبدت مجعدة قليلًا. قال بارنيت للواء:

- هلَّا فتحتها بنفسك أيها اللواء.

بخطى متثاقلة وبتريث شديد، أمسك اللواء ديروك بالصورة، وقد كان مثبتًا عليها أربع رسائل وتلغراف. تأمل اللواء الصورة للحظة، ثم أراها لرفيقَيه، وأخذ يشرح بصوت تغمره مشاعر لا تنتهي، تمتزج بين الفرح والقلق:

- إنها صورة امرأة شابة ومعها طفل على قدمَيها. إنها تشبه صور السيدة ڤيرالدي التي نشرتها الصحف. إنها السيدة ڤيرالدي بلا شك، ولكن منذ تسعة أو عشرة أعوام مضت على الأرجح.. ها هو التاريخ مدون في أسفل الصورة. أرأيتم؟ لم أكن مخطئًا. هذه الصورة عمرها أحد عشر عامًا. وها هو التوقيع: كريستيانا.. هذا اسم السيدة ڤيرالدي.

غمغم اللواء قائلًا:

- لكن ما الذي يعنيه هذا؟ أكان ابني يعرفها في الفترة التي سبقت زواجها؟

- اقرأ الرسائل أيها اللواء.

ثم مد بارنيت يده، وناول اللواء أول رسالة، وقد كانت مهترئة من آثار الطي، ولكن كُتِب عليها بخط يبدو أنه خط امرأة.

أخذ اللواء ديروك يقرأ، وما لبث أن قرأ بدايتها حتى تحشرج صوته؛ لأنه قرأ ما لفت انتباهه وأثار اهتمامه وآلمه في الوقت نفسه. استمر اللواء في قراءة

الرسالة، وقرأ الرسائل الأخرى بسرعة كلما ناوله بارنيت إياها. صمت اللواء، وقد ارتسم على وجهه القلق.

قاطعه بارنيت:

- هلَّا شرحت لنا، سيدي اللواء؟

لم يُجِب اللواء على الفور، فقد اغرورقت عيناه بالدموع، ثم قال بهدوء شديد:

- أنا الجاني الحقيقي.. منذ قرابة اثني عشر عامًا، وقع ابني جان في غرام فتاة من العامة، عاملة بسيطة.. وأنجب منها ابنًا. كان يريد الزواج بها. بغروري وغبائي وتعنُّتي، رفضت حتى رؤيتها، ووقفت بالمرصاد لهذا الزواج. كان سيتم هذا الزواج رغمًا عني، ولكن الفتاة ضحت من أجل جان.

ها هي الرسالة الأولى التي كتبتها:

«وداعًا يا جان، إن والدك يرفض زواجي بك، ويجب عليك أن تستجيب لرغبته، وإلا فسيكون ذلك فأل شؤم على صغيرنا. إليك صورتين لنا.. احتفِظْ بهما ولا تنسَنا سريعًا».

ولكنها هي مَن نست ابني، وتزوجت من السيد ڤيرالدي.

علم جان بأنها أنجبت منه صبيًّا، فأخذ الصبي وأوصى معلمًا مسنًّا بتربيته بالقرب من منطقة شارتر، حيث زارته والدته سرًّا عدة مرات.

انحنى كُلٌّ من بيشو وبارنيت نحو اللواء لسماعه بوضوح؛ لأن صوته بدأ يخفت، كما لو كان يكلم نفسه، وظلت عيناه مثبتتين على الرسائل التي تُذكِّره بالماضي.

استطرد اللواء قائلًا:

- الرسالة الأخيرة تعود لخمسة أشهر مضت، كتبت فيها كريستيانا بضعة سطور تعترف فيها لجان بندمها، وتقول إنها تعشق ابنهم..

ولكن هذا التلغراف أرسله المعلم المسن لابني جان، ويقول فيه: «الطفل مريض للغاية، احضر الآن».

صمت اللواء مجددًا. لكن الحقائق كانت تتجلى شيئًا فشيئًا.. بمجرد أن عرف جان بموت ابنه، لحق بكريستيانا على الفور وسحبها رغمًا عنها داخل سيارته. بعد عودتهما من شارتر وبعد تقبيل ابنها الميت، أُصِيبت كريستيانا بنوبة اكتئاب وقتلت نفسها. وبعد ذلك كتب جان تلغرافًا لمعلمه يخبره فيه بما حدث في بضع كلمات تلخص لنا تسلسُل هذه الأحداث المروعة:

«تُوفِّي ابننا، وقتلت كريستيانا نفسها».

قال چيم بارنيت:

- بمَ تأمرنا يا سيادة اللواء الآن؟

- أريد أن نكشف الحقيقة للجميع. امتنع جان عن إعلان الحقيقة للحفاظ على سمعة حبيبته المتوفاة من جهة، ولعدم إدانتي أنا من جهة أخرى؛ لأنني أنا المسئول عن هذا الحدث الأليم برمته. ومع ذلك ورغم ثقته التامة في أن المعلم المسن في شارتر وأن الشرطي ريمبورج لن يفضحا أمره، فلا بد وأنه أراد أن يترك لنفسه متنفسًا، لعل القدر يلعب لعبته ويثبت براءته، ولذلك احتفظ بهذه الرسائل، وها أنت تمكنت من كشف الحقيقة يا سيد بارنيت.

- لم أنجح إلا بمساعدة صديقي بيشو، سيدي اللواء. دعنا لا ننسى هذا. دون استدراج بيشو للشرطي ريمبورج وعصاه البيضاء، لما نجحت في مهمتي. لا تشكرني، بل اشكر بيشو يا سيدي اللواء.

- الشكر موصول لكما. لقد أنقذتما ابني ولن أتوانى أنا عن القيام بواجبي.

وافق بيشو على طلب اللواء ديروك، وكان متأثرًا بالأحداث، فوضع عزة نفسه جانبًا، وتنازل عن ضبط هذه المستندات التي تبحث عنها الشرطة، فضميره الإنساني غلب ضميره المهني. وكان اللواء قد انزوى إلى غرفته، فاقترب بيشو من بارنيت، وضربه على كتفه، ثم قال بلا تردُّد:

- چيم بارنيت، أنت رهن الاعتقال.

أصدر بيشو هذا الأمر بلهجة ساذجة وبنبرة عبثية، ولكن أصدره على أي حال، حتى يتم مهمته التي كُلِّف بها، والتي كانت تهدف لاعتقال بارنيت.

مد له بارنيت ذراعه، ورد قائلًا:

- أحسنت القول.. ها أنا ذا تحت أمرك، رهن الاعتقال ومنهزم.. لا يمكن أن ألومك على فعلتك هذه.. أما الآن وقد قبضت عليَّ، فدعني أفلت منك إن كنت لا تمانع. دعني أهرب بحق صداقتنا.

قال بيشو رغمًا عنه بطريقة صادقة وبريئة:

- لقد تخطيتهم جميعًا يا بارنيت.. يبدو أن لديك عقلًا إضافيًّا. لا يمكن أن يكون ما فعلته اليوم إلا معجزة إلهية. كيف استنبطت كل ذلك بلا أي أدلة؟ كيف استطعت وبكل بساطة أن تكتشف مخبأً لا يمكن أن يخطر على بال أحد؟! كيف عرفت أن الصور مخبأة داخل عصا شرطي؟!

أخذ بارنيت يسخر منه، وقال:

- دعك من هذا الحديث، فالمكاسب التي سأحصل عليها تحفز مخيلتي.

قال بيشو وقد اعتراه قلق بالغ:

- عن أي مكسب تتحدث؟ لن يعطيك اللواء أي مكافأة يا بارنيت.

- لم أكن سأقبل بأي مكافأة منه يا بيشو على أي حال.. لا تنسَ أن وكالة

بارنيت تعمل بالمجان.

- ماذا تقصد إذن؟

تحدَّث چيم بارنيت بحماس، وقال له:

- حسنًا يا بيشو، عندما ألقيت نظرة خاطفة على الرسالة الرابعة، علمت أن كريستيانا ڤيرالدي كانت قد أخبرت زوجها بالحقيقة كلها. ومن ثَم فإن هذا الأخير بعد علمه بعلاقة زوجته الراحلة ووجود طفل لها من عشيقها، شرع في تضليل العدالة، وتعمد عدم كشف هذه العلاقة؛ حتى يظل جان ديروك في دائرة الاتهام.. أراد أن ينتهي به الأمر إلى الإعدام إن أمكن.. وهذه خطة واقعية ومنطقية من رجل مثله. ألا تعتقد إذن أن ڤيرالدي، ذلك الرجل فاحش الثراء، سيرغب في شراء رسالة مثل هذه قد تشوه سمعته إذا خرجت للنور؟ وإن أراد رجل شجاع أن يبتز ڤيرالدي ويساومه على هذه الرسالة ألن يشتريها منه ڤيرالدي بكل سرور؟

وتحسبًا لهذه اللحظة، دسست الرسالة الرابعة في جيبي.

تنهد بيشو ولم يقوَ على الاعتراض، وحدَّث نفسه بأنه ما دامت براءة المتهم قد ظهرت، وما دام تم إصلاح الضرر وتم رفع الظلم الواقع على المتهم، فلِم لا يكتفي بذلك؟ أليس هذا هو الغرض الأساسي منذ البداية؟ لِم علينا أن نعبأ بهذه (الأدلة) الصغيرة التي ظهرت في اللحظات الأخيرة، والتي كان يمكن أن تكون لصالح المتهم أو ضده؟

قال بيشو أخيرًا:

- الوداع يا بارنيت، يُفضَّل ألا نلتقي بعد ذلك أبدًا؛ حفاظًا على ما تبقى من ضميري المهني.. الوداع.

- الوداع يا بيشو. أتفهم دوافعك جيدًا وصدِّقني، إنها تزيدك شرفًا.

بعد عدة أيام، تسلم بيشو من بارنيت رسالة مفادها الآتي:

«ابتهِجْ يا عزيزي، صحيح أنك لم تتمكن من إلقاء القبض على هذا اللئيم بارنيت كما وعدت العدالة.. ولم تتمكن من ضبط الصورة كما أمرك رؤساءك، ولكني زكيتك بشكل إيجابي، وأوضحت دورك الحيوي في حل القضية، لدرجة أنه قد تم ترشيحك لتنال منصب عميد».

بدا الغضب على وجه بيشو.. هل سيحصل على ترقية بتزكية من بارنيت؟ هل أصبح مدينًا لبارنيت؟ وكيف له أن يرفض مكافأة المجتمع له وهو يعلم بنفسه المجهود الذي بذله طيلة مسيرته؟

في نهاية المطاف مزق بيشو هذه الرسالة، لكنه قبِل هذه الترقية بصدر رحب.

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

-

فهرس المحتويات..